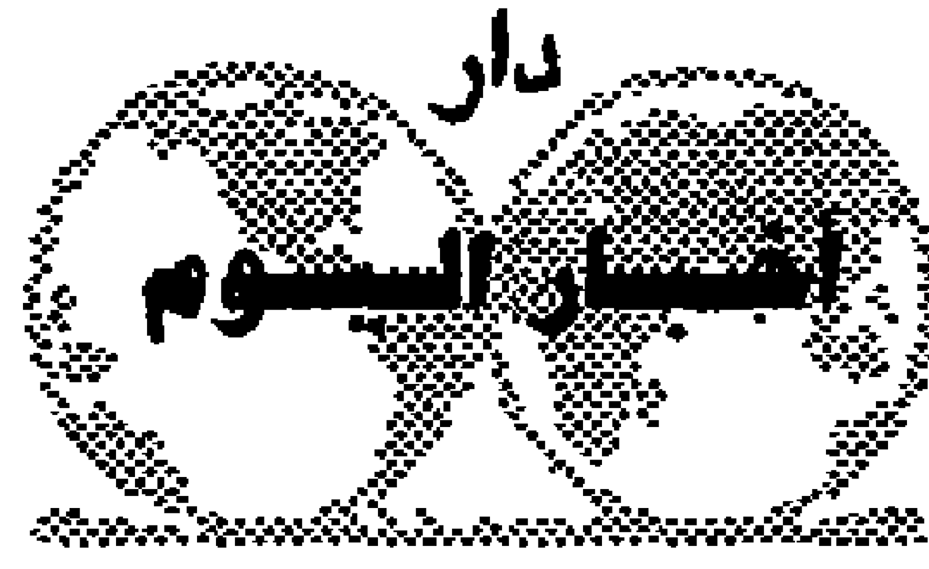
كتاب اليوم

اليهود واليهودية



د.عبدالجليل شلبى



قطاع الثقافة

كتاب اليوم

يصدر
أول كل شهر

الطبعة الثانية

عدد مارس ١٩٩٧

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهما
لبنان	٤٥٠٠	ليرة
الأردن	٢٠٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٥	دينار
السعودية	١٢	ريال
السودان	٢٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٢٥	ل.س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٢٥٠	دينار
سلطنة عمان	١,٢٥٠	ريال
غزة	٢	دولار
ج. اليمنية	١٥٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٢	دراهم
قطر	١٢	ريالات
انجلترا	٢	جك
فرنسا	١٠	فرنك
ألمانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا

أوربا وأمريكا ٣٥ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٥ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

● تلكس دولى : ٢٠٣٢١٠

● تلكس محلى : ٢٨٢

اليهود

واليهودية

تأليف:

الدكتور عبد الجليل شلبي

فاتحة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (١)
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤)
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ (٧)

تقديم

يعرض هذا الكتاب معلومات وافية عن الأمة الاسرائيلية منذ نشأة العبريين فى الجزيرة العربية وفى بلاد الكلدانيين ثم فى فلسطين، كما يعرض تشتيتهم بعد هدم هيكلهم فى أنحاء الأرض ومحاولاتهم العديدة لاعادة دولة لهم حتى قامت لهم أخيرا دولة قوية ذات مطامع لا تنتهى.

ويلاحظ من هذا العرض أن أساس تماسك هذا العنصر يقوم على العقيدة الدينية وعلى تمسكهم بما جاء فى كتابهم من أن الله سبحانه وعد ابراهيم ووعد اسحق بملك واسع فى هذه الأرض، وعلى هذه العقيدة قام جهادهم وبها استباحوا دماء الآخرين وقالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل. وقد عرضت فى هذه العجالة مع تاريخهم وديانتهم فرقهم الدينية، وفلاسفتهم وأشهر أنبيائهم الذين كان لهم جهاد فى تصحيح العبادة وإقامة الدولة، وأود أن أكون قدمت فى هذا المختصر ما يفيد أبناءنا طلاب الدعوة ودارسى الديانات وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل على ضآلته وأن يثيبنى عليه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبى الحنيفية السمحة سيدنا محمد سيد الأنام كله. وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه.

الباب الأول

بداية الأسرة

بين يدى الحديث

هذا حديث موجز عن تاريخ اليهود وديانتهم وسياستهم. وكلها أفكار يرتبط بعضها ببعض، فلا يُدرس التاريخ اليهودى دون درس ديانتهم. ولا ديانتهم منسلخة عن تاريخهم ، فالديانة اليهودية نشأت وتطورت متأثرة بتطورات هذا الشعب والأحداث التى مرت به ومصدر هذه الدراسة قبل أى مصدر آخر هو العهد القديم من الكتاب المقدس، ويدعو هذا إلى الإلمام بشىء من تاريخ الأمم التى عاصرت اليهود واختلطت بهم سواء فى أرض الرافدين أو فى فلسطين، ثم الكتب الإسرائيلية المقدسة الأخرى، والآثار التى أثرت عنهم.

وتفصيل هذه الدراسة قد يملأ سفرا ضخما، فإذا أضيفت إليه الدراسات النقدية وآراء الباحثين وخصوصا المحدثين كان الحديث أكثر ضخامة وأكبر حجما، ولكنى اكتفى بعرض المعالم ذات الأهمية، وأدع التفاصيل الفرعية، ووجهات النظر المتعارضة، لأنى أكتب هذا الحديث للبادئين فى دراسة الأديان ومقابلاتها، وقد كان جزء منه مما ألقى على طلاب العقائد والديانات فى جامعة الأزهر، فاكتفيت بعرض هذه المعلومات الأساسية أمامهم، ولمن شاء بعد ذلك أن يتوسع فى أى جزئية من الجوانب التى تعنيه.

والعهد القديـم أكثر أهمية لقداسته لـديهم، وهو كتاب تاريـخ أكثر مما هو كتاب دين، وهو يتحدث عن أنبيـاء الشعب العبراني وكبار قواده، وكبار الـرجال الـذين. أسهمـوا في بنـائه وتطويـر حيـاته، وخـلال هـذا الحديث التاريخي تأتي تعاليم وعظـات الأنبياء والحكماء والأحبار منهم، كما تأتي صلات هذا الشعب بالأمم الأخرى ويظهر تأثرهم بدياناتهم وحضاراتهم.

وقد اتصل الشعـب العبراني ـ منذ عهـد ابراهيم خليل الله إلى أن قـامت لهم دولة وإلى أن أعيدت لهم دولة حديثـة ـ بأمم عديدة. وامتص كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم الدينية، وامتـزج أيضا بهم بالمصاهرة وغير المصاهرة، فلم تبق ديانتهم نقيـة خالصة كما تـركها أنبياؤهم، ولا دمـاؤهم نقية كما يدعون وكما يتوهم بعض الناس.

وهذا مـا يحتم أن نلم بمعـرفة الحضـارات والديانـات القديمـة التي عاصرها بنو اسرائيل واختلطوا بأهليها.

والـدراسات الـلاهوتيـة تبـدأ مناهجها بدرس تـاريخ الشرق الأوسط القديـم وعرض حضـاراته وديـاناته، ليمكـن الموازنة بينهـا وبين الديـانة اليهودية، وليمكن التعرف على مكونات العهد القديم.

وتبدى هذه الدراسة أن الشعب العبرانـي كان أقل حضارة وأكثر بداوة من جميع الشعوب التي عـاصرها واختلط بها. وأنه كان يستفيـد منها ولا يفيـدها ولكنـه تـرك هذا التراث الـروحي الـذي أتيح له أن ينتشر انتشـارا واسعـا، مع نشاط المبشرين المسيحيين، لأن العهـد القـديم الذي يعـرض تـاريخ اليهـود مقـدس أيضا لـدى المسيحيين، ولأن السيـد المسيح عليـه السـلام ـ نبي من أنبيـاء بني اسرائيل، لم يأت لهدم ديـانتهم، ولكنه جـاء ليصلح مـا أفسـدوا منهـا وليكمل نقصهـا، وقـد قـال: «مـا جئت لأنقض النامـوس بل جئت لأكمله» ـ وحقـا بتسامحه ودرايته بـدلالات النصوص أصلح ما أفسد أحبارهم وربانيـوهم، وقد فعل أنبياء بني اسرائيل مثل هذا من قبل.

كان الاسرائيليون ينحرفون بكثرة عن تعاليم أنبيائهم ويقلدون وثنيات

الأمم التى من حولهم، لأنهم كانوا أقل منهم مدنية وأضعف قوة، حتى بعد استقرارهم فى أرض فلسطين واقامتهم دولة لهم بها، وبعد انتصاراتهم الحربية ظلوا يحاكون من حولهم ويعبدون آلهتهم أو يتخذون لهم أنصابا مثلهم.

وبين أيدينا الآن فيض من الكتب الحديثة منها ما يعنى بدرس الشعب الاسرائيلى خاصة ، ومنها ما يتناوله ضمن الحضارات القديمة، والديانات العديدة التى ظهرت فى الشرق الأوسط أو الأقصى، ولا يغفل أى منها أن يرجع إلى المصادر اليهودية المقدسة وغير المقدسة ـ من التوراة، والتلمود، والمشنا، والمدراش وغيرها. وأيضا ما جاء فى تاريخ يوسيفوس، ولا يعنى هذا أنهم أخذوا بكل ما جاء فيها، فهم قد خالفوها فى مواقف كثيرة، وفندوا كثيرا من محتوياتها، ونال العهد القديم نقدا أوسع ومعارضات أشد، مما اضطر الربانيون والأحبار أن يتناولوا نصوصه ويحملوها على محمل غير ظاهرها.

ثم كان نشاط الحفريات والكشوف الأثرية بدءا من القرن الماضى ينبوعا جديدا للدارسين، وثقوا به أكثر مما وثقوا بغيره. وأيدت هذه الكشوف بعض ما جاء فى العهد القديم وعارضت بعضا آخر، وصدرت عن هذه الآثار والحفريات التى أجريت فى جوانب عديدة من الشرق الأوسط ـ مكتبة كبيرة، تحوى معلومات واسعة عن هذه الحضارة أو الحضارات، وبها اتسعت دائرة البحث فى أصول الديانتين اليهودية والمسيحية.

وتوقفت عمليات الحفر والتنقيب أثناء الحرب العالمية الثانية. ثم استؤنفت لمدة وجيزة إذ توقفت أثناء حرب العرب واليهود فى أواخر الأربعينيات الماضية، وهى تجرى الآن بنشاط أقل، ولم ينته البحث فى محتويات العهد القديم إلى كلمة نهائية.

أسماء غير مترادفة

إننا نتحدث عن هذا الشعب بشىء من التسامح فى تسميته، فنقول مرة الشعب العبرانى وثانية الشعب الاسرائيلى وثالثة اليهودى مما يوهم أنها

أسماء مترادفة، وهي في واقعها ليست كذلك. فالعبرانيون أو العبريون هم الذين جاءوا مع ابراهيم عليه السلام من بلاد الكلدانيين إلى أرض كنعان، سموا كذلك لأنهم عبروا نهر الفرات متجهين إلى هذه البلاد أو لأنهم عبروا نهر الأردن في تجولهم في بلاد الكنعانيين. وتعزى هذه التسمية في التوراة إلى عابر بن سام بن نوح، الذي هم من سلالته، وهذه التسمية الأخيرة مما فنده بعض المستشرقين، وعابر هذا لم يكن أكبر أبناء سام، ولا جدا أدنى لإبراهيم، ثم إن أبناء نوح وسلالاتهم ممن ذهب بهم الدهر ولا يطمأن إلى تاريخهم (١).

أما الاسرائيليون فهم أبناء يعقوب، وستأتي تسميته باسرائيل، وقد نسل اثنى عشر ابنا كل واحد منهم صار أصلا لجد ينسب إليه.

وبهذا يخرج من أسرة الاسرائيليين كثير من العبرانيين، مثل لـوط وذريته، واسماعيل ونسله، وأيضا عيسو بن إسحق..: فهؤلاء عبرانيون وليسوا اسرائيليين.

وأما اليهود فينسبون إلى يهوذا ـ الابن الرابع ليعقوب، وكانت له الرسالة الدينية من بين إخوته فنسبوا إليه باعتبارهم أبناء هذه الديانة. وجاء في بعض الكتب أنها نسبة إلى مملكة يهوذا ـ الاقليم الجنوبي من مملكة اسرائيل. وهذا ليس بشيء.

فالأسماء الثلاثة ـ ليست مترادفة، ولكن قد يستعمل أي اسم منها للجميع تجوزا.

وصارت الرسالة الدينية بعد ذلك في بني لاوي «ليفي» ـ ويعرفون باسم «اللاويين» ولاوي هو الابن الثالث ليعقوب. ومن هذه السلالة هارون أخو موسى. وهارون عند اليهود هو الزعيم الديني. أما موسى

(١) في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: «عابر بن شالخ بن ارفكشاد بن سام» وفيه أن ابراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن راعو بن فالج بن عابر.. وجاء في محاضرات تيرنر Turner أن عبري بمعنى خارجي، وأن القوم سموا بذلك لأنهم فصلوا ديانتهم عن ديانة الكنعانيين ـ فهي إذن تسمية متأخرة. وليس من المقبول أن يكون بين إبراهيم وبين نوح سبعة آباء فقط.

فهو القائد السياسي. ولذا انحصرت الرسالة الدينية في هارون ونسله.

هذا بالنسبة للأشخاص، أما اللغة فهي اللغة العبرية، لأنها أقدم من اسرائيل وبنيه، ومع ما دخلها من تطورات وتغير ظلت ترجع إلى أصلها الأول. وتوجد الآن لغة عبرية قديمة وأخرى حديثة، وكانت بقسميها في ركود يضيفها إلى اللغات الميتة، فلما قامت لاسرائيل دولة، انبعثت هذه اللغة وأخذت مكانا بين اللغات الحية في المدارس وصحف اسرائيل، ولا يزال نشاطها يزداد يوما بعد يوم، بما تناله اسرائيل من تقدم وبسبب حرصها على إحياء لغتها.

أصل العبرانيين

من المقطوع به أن العبرانيين شعب من الشعوب السامية، والمحقق الآن أن هذه التسمية لا ترجع إلى سام بن نوح ـ كما جاء في سفر التكوين، ولكنه اسم أطلق على مجموعة معينة من الناس، كما أطلق اسم الآريين واللاتين والمغول على مجموعاتهم. وكان العبرانيون ككل الشعوب السامية يسكنون الجزيرة العربية ـ فهي مهد الساميين جميعا ـ وقد انفصلت منها موجات متتابعة في أحقاب متتالية، بحثا عن الرزق والتماسا لأمكنة أخصب وعيش أرغد ومن هذه الأجناس الفينيقيون والآشوريون والكلدانيون والأثيوبيون وغيرهم، فهذا الجذم العبرى منهم.

ولم تكن أور Ur مقرهم الأصلي ولكنهم نزحوا إليها من جزيرة العرب، والكتب التي تتحدث عنهم تبدأ حديثها برحلة ابراهيم ـ عليه السلام من أور، وذلك مجاراة لما جاء في العهد القديم من ناحية ولأن حياتهم قبل ذلك ليست معروفة معرفية كافية، سواء في ذلك حياتهم في الجزيرة أو في أرض الرافدين، وكما لا يتفق الباحثون على وصف لحياتهم شامل لا يتفقون على تحديد المكان الذى كانوا فيه، ويرجع ذلك إلى قلة الآثار التي تركوها أو ندرتها، وإلى أنهم كانوا بدوا متنقلين، وإن كان تنقلهم في بقعة محدودة من الجزيرة العربية، ولم تؤثر لهم فيها مواقع حربية ولا عرف لهم رئيس ذو شهرة ولا بطل ذو مآثر، وكل ذلك من شأنه أن يجعل حياتهم في ذلك الوقت مبهمة غامضة. وأوثق الأقوال أنهم كانوا

قبيلـة بدويـة صغيرة فى الجنـوب الشرقى من الجزيـرة العربيـة فيما بين السـاحل وجنـوب الصحـراء، وحـدد البـاحثـون مكـانتهم الإجتماعيـة ودرجةحضارتهم وبقعة تنقلهم بالدابة التى كانوا يستعملونها ويعتمدون عليهـا فى معايشهم، وقـد كانـوا يستعملـون الحمر دون الابل والخيـول، ويـدل ذلك على أنهم لم تكن لهم شـدة البـدو القادرين على جـوب الفيـاق والتزاحم على المراعى والمياه ولذا لم يستعملوا الجمل سفينة الصحراء، ولم تكن لهم اشتباكات وحروب فـاستغنوا عن الخيول، ثم إن الخيل يستعملها من له حظ من الحضارة أو شىء من الترف، وكانوا هم دون ذلك. فاعتمدوا على الحمر، ولكن يبدو من جانب آخر أنـه حتى هذا الوقت لم يكن الحصان قد دخل الجزيرة ولا حياة سكانها، ولعلـه وجد فى الشمال قبل أن يوجد فى الجنوب، وربما كـان وجوده فى الشمال أيضـا بعد ذلك بـزمن غير قصير، ولاينـافى ذلك أن اعتمادهم على الحمـر من أدلـة ضعفهم واستكـانتهم بين السكان الآخرين(١).

وقد كانت الحمر توجد على حالة وحشية بمقربة من السهول الرملية فى الجزيرة العربيـة، وتصل أحيـانا قطعانهـا المجفلة مـن السباع إلى أرض حوران(٢).

بهذا أمكن أن يقال إنهم كانوا فى الجنـوب الشرقى من الجزيرة، أو كانوا أدنى إلى الجنوب، وقد اشتهر اقليم الإحساء بالحمـر أيضـا (٣) ويبدو أن حياتهم بهذه البقـاع، وعدم استقـرارهم ـ ممـا سهل عليهم التحـرك نحو الشمال حتى دخلوا سقى الفـرات، وتدل هذه الحالـة أن أعمالهم كانت هى الوساطة بين سكان الساحل المدنيين الذين يعتمدون على التجارة، وسكان الصحـراء المستهلكين، وقـد كـانت على سـاحل المحيط الهنـدى والخليج

(١) انظر هـذا كله كتيب «الثقافـة العربية أقـدم من ثقافة العبريين .. لـلأستاذ عباس العقاد ص ٥٢ وما بعدها

(٢) نفسه

(٣) لا يزال الناس يقولـون عن الحمار الجيد النشيط : «حمار حساوى» يعنون إحسائى.

العربى مرافىء للسفن التجارية الآتية من الهند وما حولها، وكان سكان الصحراء يحصلون على حاجياتهم مما يرد إلى تلك المرافىء تنقل إليهم أحيانا وينتقلون إليها أحيانا أخرى، وقد عرف العرب من قديم بلاد الهند وعرف الهنود بلادهم. وكانت السيوف الهندية من معدات العرب الحربية، وكان هؤلاء يقومون بهذه الوساطة وربما جذبهم مكان ودفع بهم آخر حتى انتهوا إلى بلاد الكلدانيين فى ظروف غامضة يصعب تحديدها ـ وكل هذا مما استنتجه علماء الآثار والمؤرخون

حياتهم فى أرض الرافدين

كانت أرض الرافدين من قديم جدا مسرحا لأحداث لونت التاريخ بألوان لا تزال آثارها باقية إلى الآن، ولها أثر كبير فى دفع الحضارة وتقدم الإنسانية.. كان السومريون أول الأجناس التى عمرت هذه البقاع وأنشأت فيها لونا حضاريا، فهم أمة نشطت التجارة والزراعة، وبنت المعابد، وبثت عن طريق الدين نوعا من الرقى، واستفاد الذين جاءوا بعدهم من حضارتهم، فظل العيلاميون والبابليون ومن بعدهم يبنون على آثارهم، وبقيت سمات من ديانتهم وحضارتهم بادية على هؤلاء جميعا.

وقد ظهر الأكاديون شمال سومر عند نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، أو حول سنة ٣٠٠٠ق.م تقريبا، وتم انتصارهم على سكان البلاد بزعامة قائدهم الكبير سرجون حول عام ٢٧٥ ق. وحدد برايت قيام امبراطورية أكاد بسنة ٢٣٦٠ق.م، ووصفها بأنها ربما كانت أول امبراطورية حقيقية فى العالم، وتبدو عظمة هذه الامبراطورية فى امتدادها وسعة رقعتها فقد شملت ما بين عيلام ـ على الخليج الفارسى إلى البحر المتوسط، ومن لبنان إلى سوس على نهاية الساحل. وكانت ميزتها أنها دولة موحدة ذات حكومة واحدة، وليست كما كانت دولة السومريين دولة مكونة من عدة دول.City states ولكن بقى لديهم ما كان متبعا لدى السومريين من أن الاله إنلايل enlaile هو مصدر القوى كلها[1] ويوجد من

---

(١) Turner lecturs 2

الآثار مـا يدل على أن ملوك أكـاد سجلوا لأنفسهم حقًا إلهيـا أو امتيازات، ووجد فى الحفريات الحديثة اسم ناران سن narran sin ـ مسجلا بين أسماء الآلهة.

على هـذه الأمـة وفـد الشعب العبرى أو الـذى سمى عبريـا فيما بعـد. ويتـوقع أن هـذه الـوفـادة كانت فى الـربع الأول من الألف الثـالث ق.م. ويقـال إنهم قبل أن يعـرفوا بـاسم العبرانيين كـانـوا يسـمون «خبيرى Khabiri»[1] أو خبيرو، ووجد هذا الاسم فى رسـائل تل العمارنة، وكانت الرسـائل إخبارا لفـرعون مصر بأن جماعـة بهذا الاسم كانت تـزحف من الصحراء على سكان الشمال، ويظن أنها كانت هى العبرانيين.

ولم تكن الـديانـة فى بـلاد الأكاديين ديـانة واحـدة، بل كـانت طقوسـا وشعائر مـادية، وذلك لتوالى عـدد من الأمم على هذه الأرض، وكـان لكل أمة عقـائدها وطقـوسهـا، ولكن نظرا لأن طبيعـة البـلاد هى الـزراعة، كـانت الطقـوس والآلهة متشـابهة، وكـانت الشمس والقمـر والنجـوم من معبوداتهم، كما كانت الملوك تنال احترام الآلهة وقداستهم [2].

ولم تكن القبيلة الساميـة الوافدة بعيدة عن هـذا، فمن الثابت أنها كانت وثنية، بينما دعا ابراهيم ـ عليه السـلام ـ إلى عبادة إله واحد، وكان يسمى «إل.شاداى»El shaday. ولم تكن قبيلتـه على وفاق معـه، بل نجـدهم حتى بعـد رحلتهم معـه إلى أرض كنعـان يحرصون على عبـادة الأوثـان، ويؤلهون الجبـال، وتوجد أيضـا أدلة كـافية على أنهم كانوا يعظمون صور الأسـلاف [3]. وهناك حوار مأثور بين ابراهيم وبعض الملوك أو الرؤساء. يقـودة فيـه ابـراهيم بحسن محاجتـه إلى عبـادة الله الـواحد خـالق كل شىء [4] ولعل عبادة إل شاداى كانت لأسرته ولبعض من أتباعه.

(١) the living post 139

(٢) محاضرات تيرنز، المحاضرة الثانية، وهذا عند أكثر الأمم

(٣) The religicus experibce . P 33

(٤) أنظر أبو الأنبياء ابراهيم ص ٤١

ودرس الديانــة اليهودية الذى نتعرض لــه بعد بيدى ما تركت بــه ديانة البابليين من آثار. والذى نلمحه من هذا كله مع قلة المعلومات عن هذا العهد أن هذه الجماعــة أثناء إقامتهــا بين الكلدانيين لم تكن ذائبــة فى حياتهم، بل كان لها فى مجتمعهم بروز بـوجه ما[١] ويقال إن أبا ابــراهيم أو عمه كان ملكا أو أميرا على جماعــة أو إقليم وكلمة «إبرام التى صــارت إبراهيم تعنى أمير. ويقــال أيضــا إن اسمه الأصلى هــو «أورهــام» Orham وأنها تعنى أيضا أمير[٢]. ومواقف ابــراهيم التى جاءت فى الكتب المقدسة تـدل على أنه كان ذا مكانة وبروز فى مجتمعه، ولهذا جرؤ على مخالفتهم ومحاجتهم.

بدايــة الرحــلة

جــاء فى سفر التكــوين أن تارحــا أبا ابــراهيم خرج بــه وبلوط حفيــده. وساراى كنتــه [٣] فخــرجوا جميعــا من أور الكلــدانيين ذاهبين إلى أرض كنعان فأقــاموا حينا، ولم يذكــر سببا لهذه الإقامــة، ولكن الحركة من أور كانت بقصد الاتجاه إلى كنعان.

وجاء فى شروح العهــد القديم أن تــارحا أبــا ابراهيم كــان قد فقــد ولده حاران أبا لوط، فلم يطق الإقامة فى أور. فتركها تخفيفا عن نفسه.

ويذكر بعــض الباحثين أن بلدة حاران كانت مقــر القبيلة الأصلى، ولكن العاصمــة «أور» بما فيها من تقدم ومــدنية جــذبتهم إليها، فأقامــوا بها ما أقاموا، ثم جــاءت غارات العيلاميين التى كانت مكتسحــة مدمرة، فأزعجت السكان وحملتهم على الفرار من وجــه المغيرين، وكانت أسرة حاران ضمن الــراحلين، فــذهبت إلى موطنهــا الأصلى حــاران لتقيم إقــامة مــؤقتــة ربما للاستراحــة ـ ثم تواصل رحلتها، بعــدها إلى أرض كنعان. وهذا يــوضح ما جاء فى سفــر التكوين ويبين سبب الرحلــة والإقامة العــارضة. ويستأنس لهذا الــرأى بما كشفته الحفــريــات الحديثة فى أرض الــرافــدين من سمات

(١) egypt and IsraelpII
(٢) أنظر Living Post 14 وهو يرجح هذه التسمية.
(٣) الكنة زوجة الابن

حضارة سومرية عظيمة، وما وجد فى عاصمتهم «نَبوٌر» من عبارات محزنة من الرثاء والبكاء على هذه الحضارة العظيمة التى حطمها العيلاميون، ووجد أيضا وصفا لغاراتهم التى جعلت الآباء يرحلون تاركين أولادهم. والزوجات أيضا يتركن أزواجهن وأولادهن، وهكذا تشتت الأسر. وفى سنة ١٩٦٠ ق.م حطمت مدينة آور تحطيما نهائيا (١) ووجد فى الحفريات التى أجريت هناك كتابات تصف غارات العيلاميين. وبكاء السامريين على ما أصابهم، وحدد هذا الهجوم بهذه السنة.

وبينما كانت هذه الغارات العيلامية جارية، كان الآموريون يغيرون على الاقليم من شماله الغربى، ووقعت حاران بين الجانبين، وكان لابد لأسرة تارح أن تزمع الرحيل إلى بلد آمن تفصله الجبال وعوامل الطبيعة عن هذه الأحداث، فاتجهت إلى أرض كنعان.

وهذه الأسباب تجعل الرحلة معتمدة على أسباب مادية بحتة لادخل للدين فيها. وقد مات تارح فى حاران فآلت رياسة الأسرة إلى أكبر أبنائه ابرام. فاضطلع بها.

وانفرد القرآن الكريم بذكر سبب دينى لهذه الرحلة، وهو فشل دعوة ابراهيم بين قومه إذ دعاهم إلى عبادة إله واحد،، وحطم أصنامهم، وعاب عبادتهم للكواكب، حتى هموا بإحراقه وقتله فنجاه الله من النار، وكانت بردا وسلاما عليه، ووجهه ولوطا إلى الأرض التى بارك فيها للعالمين، وهى أرض كنعان، وبعد عبورهم نهر الأردن أطلق عليهم اسم العبرانيين وهى كلمة مأخوذة من العبور، أو من العبر من الجانب الآخر (٢)

الخطوط الرئيسية لتاريخ الاسرائيليين

أوثر أن أقدم هذه الخطوط البارزة من تاريخ الاسرائيليين بين يدى الحديث عن الديانة اليهودية حتى لا يتشتت ذهن الطالب حين تعرض عليه

(١) yudaism PII (٢) I leid

بعض التفاصيل من هذا التاريخ..

وقـد عرفنـا أن هـذا الشعب جذم سـامى انفصل من الأمـة السامـيـة الكبرى، وقد انفصل منها عديد من الأمم فى أزمنـة متطاولة، ولا يزال الرأى الـراجح لدى المؤرخين أن الجزيـرة العربيـة كانت هى المهـد الأول لجميع الشعوب السـامية، ولا يمكن تحديد الزمـن الذى نزحت فيه هـذه الجماعة من الجزيرة العـربية إلى أرض الرافـدين، ولكنهم أقاموا هنـاك بين ساميين نزحوا إلى هذه الأرض من قبلهم.

وقد رأينـا من قبل أن أرض الرافدين كـانت مهد حضارة اجتـذبت إليها الشعوب منذ عهد السومريين.

ولا يكاد التاريخ يـذكر شيئا عن حياة هـذه الجماعة فى تلك البقعة حتى كان العهـد الكلدانى، حين كـانت أور Ur عـاصمة كبيرة تتمتع بحضـارة راقية،وتحت حكم ملوك أقـوياء، ففى هذا الوقت ظهر ابـراهيم عليه السلام رئيسا على جماعة هـاجر بها إلى بلاد الشام، وقـد تنقل فى إقليم سوريا على حافة الصحراء، كما انتقل إلى مصر وعاد منها بجارية تدعى هاجر ولدت له اسماعيل. ومن ثم دبت الغيرة فى قلب سارة الزوجة التى جاء بها من «أور» فلم تطق هاجر معها فذهب بها إلى مكـة لتقيم مع ابنها بجوار البيت المحرم حيث يأوى إليهما الناشئ، فيجدان ما يقيمان به حياتهما. من الوافدين عليه، ورجع هو إلى زوجه.

ورزقت سـارة من ابراهيم على الكبر ولـدها اسحق، ولد لإسحـق ولدان عيسو ويعقوب، وعيسو هو الأكبر لكن قيـادة الأسرة وكيانها الدينى أسند إلى يعقوب لأسباب تأتى بعد.

وسمى عيسو لحمرة كانت به «آدوم»، ونشأ من ذريته الشعب الآدومى أو الآدوميون، أمـا يعقوب فسمى بعـد باسم اسرائيل[1]، وتزوج يعقوب

---

(١) لكل من الاسمين معنى خـاص فى العبريـة ـ فيعقـوب معنـاه ليحفظ إيل، أو محفوظ برعاية الله، واسرائيل تعنى ليحكم إيل، أو جندى الله.

اختين بنتى خاله، «لاَبَان» كانت أولاهما تـدعى ليئة، والثانية تدعى راحيل، وأنجبت راحيل ولدين أكبرهما يوسف[1] الذى كان أبـوه يحبه كثيرا حتى أثار غيرة اخوته منه وكراهيتهم لـه فصمموا على التخلص منه ونقلته قافلة مهـاجرة إلى مصر فى قصـصـه المعـروف وفيـه أنه شـب وترعـرع فى مصر وسجن ثم كـان أمينا على خـزائنهـا وحـدثت فى ذلك العهد مجاعـة فى مصر وبلاد الشـام، ولكنه كان قد اختـزن من القمح ما يسد غائلـة الجوع فكان الناس يأتون إلى مصر ليبتاعوا ميرتهم.

واحتـال يوسف حتى أحضر أبـاه واخوتـه إلى مصر فأقامـوا بها سنين طـويلـة يقال إنها كـانت ٢٢٠ سنـة[2] تكـاثروا خـلالها ونما عـددهم واكتسبـوا كثيرا من حضارة المصريين، ولكنهـم ظلوا منفصلين ومميـزين عنهم ولهم بقعة خاصة يقيمون بها.

وحـدثت أسباب تـدعـو إلى الخصومـة والتبـاغض بين المصريين وبنى اسرائيل حتى جـاء فرعـون لا يعرف من كـان يوسف، فـاشتط فى التنكيل وأسرف فى تعـذيب الاسرائيليين، فكـان يقتل من يـولـد لهم من الـذكـور ويستبقى الإناث إذ لا خطر منهن.

وفى هذه الأثناء ظهر موسى عليه السلام ـ وقصة نشأته فى بيت فرعون معـروفة. كـذلك هجرتـه إلى «مديـان» فى سيناء وإقـامته مع شعيب عليـه السلام وزواجه من ابنته.

وجاء إلى مصر ليخلص قومه من بطش فرعون.

أقـام موسى فى مصر ينـاضل ويناضـل معه أخـوه لأمه هـارون حتى استطاع أخيرا أن يفلت ببنى اسرائيل، إلى أرض سينـاء، ومكث أبناء اسرائيل فى هذه البقعـة أربعين عاما، مات خـلالها هارون وموسى، فـانتقلت قيادة الاسرائيليين إلى يوشع.

---

(١) بالعبرية معناه ليضف إيل، أو ليزد الله ويبارك

(٢) أنظر مقدمة ابن خلدون ص ١٣ نقلا عن المسعودى

هذه مرحلة من مراحل التاريخ الاسرائيلي، يمكن أن تقسم إلى وحدات، كل وحدة لها تفاصيلها وأحداثها، ولكنها جميعا يحيطها الغموض، وتغص بالمبالغات والأساطير، ومرجع المؤرخين فيها قبل كل شيء ما جاء في العهد القديم من الكتاب المقدس، وجاء في القرآن الكريم حديث يوسف وموسى وخروج بني اسرائيل من مصر، وعدا ما جاء في القرآن لا يطمأن إليه، وجاءت فيه أحاديث أخرى عن بني اسرائيل وأنبيائهم وملوكهم، ولكنه لم يعن بذكر تفصيلي لتاريخهم.

وتبدأ المرحلة الثانية ـ وهي مرحلة لها بعض الوضوح التاريخي وإن لم تخل من المبالغات والأساطير ـ بخروج يوشع من أرض سيناء بالشعب الإسرائيلي الذي معه ـ إلى أرض فلسطين. وكان هو القائد الأعلى، ولكن كان لكل قبيلة أو سبط من الأسباط الاثنى عشر زعيم أو قائد خاص، ونزلوا عقب خروجهم من سيناء إلى بادية شرق الأردن، في الجنوب الشرقي من سوريا، وظلوا يوالون الحروب مع البلاد المجاورة للاستيلاء على أماكن خصبة، وتأسيس دولة خاصة بهم، فطالت هذه الحروب وامتدت، وهي مذكورة في سفر يوشع، وسفر العدد، وهي تسجل ليوشع انتصارات باهرة، أولها انتصاره على «سيحون» ملك الآموريين، ثم على «عوج» ملك باشان ثم استطاع أن يقتطع مدنا من مملكة كنعان في فلسطين من أهمها أريحا، وهي مدينة مقدسة كان يهوه إله العبرانيين قد وعدهم بها.

وقد أشعل يوشع فيها النار فأحرقها وأباد سكانها ومزروعاتها، وكان هذا نصرا عظيما له، ثبت به أقدام الدولة الناشئة، وبتثبيت قدمها في هذا الطرف أخذت تناضل لتستولي على أرض أوسع واستمرت حروبها إلى ألف عام أو ما يزيد بعد ذلك.

ويقدر ظهور يوشع وقومه من الصحراء، وبداية زحفهم إلى أرض كنعان بأنه كان في منتصف القرن الثالث عشر ق م. أي نحو سنة ١٢٥٠ ق م تقريبا. وحياتهم بعد استقرارهم وتكوينهم شعبا له مميزاته العنصرية والسياسية مرت بهذه الأدوار.

عهد القضاة، ثم عهد الملوك

بدأ الاسرائيليـون بتقسيم الأرض بينهم أخـد عشر قسما، أخذهـا أحد عشر سبطا من أبناء يعقوب الاثنى عشر، عدا سبط يهوذا ـ الابن الرابع له ـ فقد ظل أبنـاؤه موزعين بين الأسباط الأخرى، لأن الـرسالة الدينيـة كانت مقصـورة عليهم، فجُعل منهم معلمـون فى كل سبط، واختـار كل سبط رئيسا له، فكـان هؤلاء الرؤساء يعقدون مجالس للتشـاور فى أمر الجماعة وتصريف شئـونها، ويسمى الواحـد منهم قـاضيا ويعـرف عهدهم بـاسم «عهد القضـاة».

وقـد امتـد هـذا العهـد نحـو مـائة سنـة وستين عـامـا (١١٨٠ ـ ١٠٢٠)ق م. أى أنه شغل الربع الأخير من القـرن الثانى عشر، وامتد حتى الربع الأخير من القرن الحادى عشر.

وفى آخر هذا العهـد كان الرئيس الدينى هو صمـوئيل، وكان العبرانيون حين جـاوروا ممالك أرقى منهم فى أرض كنعـان أحبوا أن يكـون لهم كما لجيرانهم ملك. وأنهوا رغبتهم إلى صمـوئيل، فأخذ يـردهم عنها محذرا لهم من استبـداد الملك بهم، ولما أصروا اختـار لهم شـاءول، فكـان أول ملك عليهم، وقد جـاء فى القرآن الكريم إشـارة إلى هذا حيث ذكر شـاءول باسم طالوت(١)

كـان شـاءول ملكـا فـاشـلا لم يستطع أن يحقق لهم نصرا ضـد الفلسطينيين، بل واجه هزيمـة شنيعة فقد فيها ثـلاثة من أولاده، ثم انتحر هو حزنا، وله فى فقد أولاده مَراثٍ مؤثرة(٢)

وكان داود عليه السلام ـ ثانى ملك عليهم وهو الذى قتل جالوت زعيم الفلسطينيين ـ ومـد حـدود دولـة اسرائيل إلى أقصـى مـا وصلت إليـه من السعة، وهو الـذى اتخذ مدينة أورشليم (القدس) لتكون عاصمـة الدولة،

(١) سورة البقرة س ٢ آيات ٢٤٦ ـ وما بعدها
(٢) أنظر سفر الملوك الأول صموئيل الأول ص ٨

وبنى بها أول معبد لهم ـ على أنقاض معبـد كان بها لليبـوسيين من قبل، واستمـر حكمـه نحو ستين عـامـا كـانت مليئـة بالحروب، ولكن الـدولـة انتعشت فى عهـده ماديـا وأدبيـا، وأحرزت مع الثـراء المادى قـوة حربيـة، فضلا عن توحد أسباطها.

وخلف سليمان أباه داود. واستمر حكمـه نحـو أربعين عامـا (٩٦٣ ـ ٩٢٣ ق م) قام خـلالها بمشروعات تجاريـة ومعمارية وصنـاعية، وبلغت الدولـة فى عهده أقصى مـا بلغت من الأبهة والترف، وهو الـذى بنى الهيكل بناء فخما مكان الهيكل الذى بنـاه أبوه، وبنى لنفسه أيضـا قصراً عظيما(١) وتزوج بنت أحـد الفراعنة، وكان هذا شرفـا عظيما أن يتزوج اسرائيلى بنت فرعون مصرى، ولا يحفظ التـاريخ له ما حفظت الكتب المقـدسة من حكمة وحسن تصرف، فقد أجهـد الدولـة من الناحيـة المادية بسبب إسرافـه فدبّ فيهـا الضعف، وظهـرت بين كبرائهـا خـلافـات كبيرة نتيجـة سيـاستـه واعوجاجه.

ويقول عنه الكتاب المقدس إنه أحب نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ـ مؤابيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات من الأمم التى نهى الله عن الاختـلاط بهن، فكـان لـه سبعمائة من النسـاء الحرائر وثلثمائة من السرارى، فأمـالت النسـاء قلبـه فـذهب وراء آلهة أخـرى، عشتروت إلهة الصيدونيين، وملكوم بـرجس العمونيين(٢) وبنى مرتفعـة يكموش رجس المؤابيين على الجبل تجاه أورشليم، وعـومك رجس بنى عمون، وهكـذا فعل لجميع نسائه الغريبات(٣)

وكان عـاقبة هـذه الحالة أن انقسمت الـدولة بعـده إلى مملكتين، مملكة يهوذا فى الجنـوب وعـاصمتهـا «أورشليم» ومملكـة اسرائيل فى الشمال

(١) بنى لسليمان الهيكل حيرام ملك صور بواسطة عبيده وعماله، وأنظر وصف البيت وبناءه فى سفر الملوك الأول ص٥ وما بعده

(٢) الملوك الأول ص ١١

(٣) نفسه

وعاصمتها السامرة. ثم بدأ الضعف يدب فى كلتا الدولتين، وكانت الدولتان الكبيرتان فى مصر وأرض بابل قد شب بينهما تنافس سياسى وأصبحت اسرائيل محاصرة بخصمين كل منهما أقوى منها، وكان لابد لها أن تنحاز إلى إحدى الدولتين، واختلف رؤساؤها فيما بينهم على الاتجاه الأفضل للدولة، ولكنهم أخيرا ركنوا إلى مصر فكان ركونهم هذا إعلان عداء للآشوريين، وهذا ما سبب غزو الملك سرجون الثانى لهم.

ويأتى تفصيل لهذا الموقف بعد.

خلاصة تاريخية

قبل أن ننتقل إلى دخول العبرانيين فلسطين نلخص تاريخ الحقبة الماضية فى النقاط التالية:

١ـ هجرة جماعة سامية من جنوب شرق الجزيرة العربية إلى أرض بابل، وهى هجرة لم يعرف عنها إلا مادلت عليه الكشوف الحديثة، ولا يمكن تحديد الزمن الذى حدثت فيه، ويرى الأستاذ العقاد أن حياتهم فى «الجزيرة» ورثتهم صفات لا تزال معهم الى الآن، وهذا لجمودهم وتمسكهم بماضيهم، ولا يستبعد هذا، غير أن جماعات كثيرة فى ظروف مختلفة انضمت إليهم (١)

٢ ـ والهجرة التى منحتهم لقب العبرانيين، هى التى قادها ابراهيم، ويظن أنها كانت تعاصر حركة الهكسوس، وفيها كان هجوم على منطقة شرق البحر المتوسط من مجموعة أجناس منهم الساميون ومنهم غير الساميين من الحوريين والحثيين والميتانيين، ومنهم جماعة الخابير والداين يغلب على الظن أنهم العبرانيون، وربما قدم معهم اليبوسيون والفرزيون(٢).

وقد ذكرنا قبل بعض الأسباب التى يراها المؤرخون دافعا لهجرة تارح

(١) انظر اللغة العربية أقدم Heku sheswet

(٢) تاريخ سورية جـ١ ص ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ٦١

أبى ابـراهيم من أور، وقـد تكون ضمن هـذه الهجمـة الـواسعة، وهـى قـد حدثت أوائل القرن الثامن عشر، وكان الهكسوس أبرز عناصرها وقد دخلوا مصر أوائل القــرن الثامن عشر ١٩٠٠ ق.م تقـريبـا، وكان ملـوك الأسرتين الخامسة عشرة والسادســة عشرة من الهكسوس، وبين أسماء ملوكهم اسم يعقوب[1]، وكـانت مدة حكمهـم فى مصر من سنة ١٧٣٠ ــ ١٥٨٠ ق.م تقـريبا أى نحـو قرن ونصـف القرن. ثم طـاردهم الملك أحمس Ahmose الأول، رأس الأسرة الثامنة عشرة.

٣ـ الهجرة الثــالثة إلى مصر، وقد جاءت فى سفــر التكوين، كانت بسبب يوسف الصـديق، وقد عـد سفر الخروج أبنـاء يعقوب الأحـد عشر الذين جاءوا معــه، وقد كـان يوسف بمصر من قبل، وذكر أن الـذين جاءوا كــانوا سبعين نفسا من صلب يعقوب، ثم توالـد بنو اسرائيل وكثروا وامتلأت بهم الأرض[2].

٤ ــ الهجـرة الرابعة كـانت من مصر إلى فلسطين ـ أواخر القــرن الثالث عشر ق م، بقيادة موسى ثم من بعده يوشع.

---

(١) ظهر الهكسوس أوائل القـرن الثامن عشر، وسموا فى اللغة المصريـة القديمة Heku sheswet وهى تعنى الملـوك الرعـاة، أو الحكام الأجـانب، وهم أول من أدخل الخيـول والعجلات الجرارة، وهـذا ممـا يستدل بـه على صلتهم بـالحضارة «الهندو أوروبية» ـ وقد استولوا على سورية ثم تسللـوا تدريجيا حتى دخلوا مصر، وقد قاموا فيها بأعمال وحشية كثيرة، وأدخلوا مصر الإله بعل والآلهة عشتروت، وجعلوهما عدلا لـلإله ست والالهة إيـزيس، كما أدخلـوا أخت بعل ورفيقــة منات، وكـانت عـاصمتهم «أفاريس» ــ مكان صان الحجر، وهى مدينـة العنابر التى بناهـا الاسرائيليون للملك رعمسيس الثـانى، وجاء فى سفر الخروج ١ / ١١ أنهم بنوا لفرعون مـدينتى مخازن فيتوم، ورعمسيس، وأنظر تاريخ سوريا ١ / ١٦٠ هامش (٤)

(٢) خروج ١ ــ ٨

قصة ابراهيم من سفر التكوين

بعد الإيضـاحات التاريخية الســابقة، نرجع إلى قصة ابــراهيم وذويه كما جاءت فى العهـد القديم ويلاحظ أن الخلاف واسع جدا بين مـا جاء عن أبى الأنبياء إبراهيم فى العهد القديم وما جاء عنه فى القرآن الكريم، وإن كان القرآن لم يعن بذكر التفاصيل والجزئيات من حياته.

وفى الإصحـاح الحادى والعشرين من سفر التكـوين وما بعـده قصص ابراهيم وبنيه ورحلاتهم حتـى استقرارهم أخيرا فى فلسطين، وخطوط هذه الرحلة كمايلى:

ابراهيم هو ابرام بن تـارح، وتارح من نسل سام بن نوح يفصل بينهما فقط ستة آباء، حيث يكـون ابراهيم هو الحفيد الثـامن لسام، أو ابن له من السلالة التاسعة، وواضح أن هذا غير معقول، وأن الزمن بين ابرهيم وسام أطول من ذلك بكثير.

وقد ولد لتارح ــ أبو ابراهيم ـ ثلاثة أبنـاء هم إبرام ـ الذى سمى فيما بعد ابراهيم(١) وناحور وهاران، وولد هـاران لوطا واختان لهما هما ملكة ويسكة، ثم مـات قبل أبيه تارح. وتـزوج ابراهيم من ســاراى التى سماها سارة(٢) وتزوج نـاحور من ملكـة بنت أخيـه هاران، وكانـت الأسرة كلها تقيم فى أور الكلـدانيين، ثم أراد تـارح أن يهاجر إلى أرض كنعـان، فـانتقل بـالأسرة كلها إلى حـاران، وأقام بها ومـات بها، فـانتقلت زعامـة الأسرة إلى ابـراهيم. وأوحى الله إليه أن يهاجـر إلى الأرض التى يـريه إيـاهـا ليباركـه وتتبارك فيهـا جميع قبائل الأرض، فـرحل مع ذويه حتى نـزلوا فى شكيم ـ وهى نابلس ـ فى أرض كنعان، وهناك ظهـر له الرب ووعده أن يعطى نسله

---

(١) ابـراهيم فى العبريـة آب رام abh Ram بمعنى الأب الرفيع، أمـا ابـراهـام وابراهيم فبمعنى والد الشعب.

(٢) فى الاصحـاح ١٧ / ١٥: وقـال الله لابراهيـم : ساراى امـرأتك، لا تـدع اسمهـا ســاراى بل اسمهـا ســارة، وفى ص ٢٠ / ١٣، وبـالحقيقـة هى اختى ابنـة أبى غير أنها ليست ابنة أمى فصارت لى زوجة

هذه الأرض. فبنى ابراهيـم هناك مذبحا، وبنى مذبحــا آخر فى بيت إيل وظل يوالى تنقلاته نحو الجنوب. وقد رحل إلى مصر كما ذكرنا قبل.

قصـة لـوط

كان لوط فى مصر مع عمــه إبراهيم، وعاد من مصر ثريا أيضا لــه ماشية ومعــه رعــاة، ولــذا لم تتسع البقعــة لهما، فارتحل لــوط جنــوبــا إلى دائرة الأردن، وكانت هذه بقعــة خصبة فأقام بها وبنى خيامــه فى سدوم، وكانت هنــاك حــروب عنيفة بين رؤســاء القبــائل التى فى هــذه البقعــة، وسقطت سدوم فى أيدى أعدائهــا، فأخذوا لوطا وماله وغلمانـــه، لكن ابراهيم نـهض له بــرجالــه فاستخلصــه واستخلص له مــاله، ولم يأخـذ من الغنيمة شيئــا لنفسه، ورجع إلى مقره.

كان أهل سدوم وعمورة أهل سوء، فأرسل الله ملكين لتدميرهما و إخراج لوط وقومه فهربوا إلى مدينــة صغيرة سميت بعد باسم صوغر، وأمطر الله على سدوم وعمورة كبريتا ونارا. وانتقل لوط مع بنتين له فسكن فى مغارة فى الجبل، وشعــرت البنتــان بحاجتهما إلى رجل معهما فسقتــا أبــاهما خمرا، واضطجعت كل منهما معــه فأحبلهما على غير شعــور منه، وولــدت الكبرى ولــدا سمته مــوآب، فهــو أبو المؤآبيين، وولــدت الصغــرى ولدا سمتــه «بَن عمّى» فهو أبو بنى عمون ـ العمونيين، ـ فهذان الشعبان من لوط.

عــود إلى إبراهـيم

تجلى الله لإبراهيــم ثانيا بعــد رحيل لوط، ووعــده بنسل كتراب الأرض، وأن تكون الأرض التى من حولــه كلها له ولنسله، فنقل ابــراهيم خيامه إلى ممــرا «ممرات» التى فى «حبرون»، وبنــى هناك مــذبحــا للرب أيضــا، وكبر شأن ابراهيم واجلــه كل من ملك سدوم وملكى صادق. ملك شــاليم، وكان ملكى صادق كاهنا.

«وشكا ابراهيم إلى ربــه انقطاع نسله، فوعده أن يعطيه نســلا. وقال له: «اعلم أن نسلك سيكون غريبــا فى أرض ليست لهم، ويستعبدون (لمن فيها) فيذلونهم أربعمائة سنــة ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينهــا، وبعد ذلك

يخرجون بأملاك جزيلة. «فى ذلك اليوم قطـع الرب مع ابراهم ميثاقا قائلا: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

سـارة وهاجـر

ولما كانـت سارة عقيما لا ولد لها دفعـت بجاريتهـا هاجر إلى ابـراهيم ليبيت معهـا فما لبثت أن حملت واستهـانت بسيـدتها، وأكلت الغيرة قلب سارة، فأذلت هاجر حتى هربت منها، وقابلها ملاك الرب فأمرها بالعودة، وبشرهـا بأنها ستلـد نسـلا لا يعـد، وقـال لها سمى ابنك الـذى فى بطنك اسماعيل، لأن الـرب قد سمع لذلتـك، وولدت اسماعيل حين كان ابـراهيم ابن ست وثمانين سنة(١)

البشرى بإسحق والأمر بالختان

ظهر الله لإبرهيم وهو فى التاسعـة والتسعين من عمره فجدد عهده معه وأخبره ثانيا وثالثا. أنه سيكون أبا للأمة ولهذا أسماه ابراهيم (٢) بدلا من ابـرام، وأمره أن يسمـى زوجه سـارة لا سـاراى ووعـده أنها ستلد ولـدا يسمى اسـحق(٣) وأمـره أن يختتن ويختن من معه ففعل، وكـان اسماعيل ابن ثلاث عشرة سنة.

وظهر الله له وهـو أمام خيمة ظهرا، فـرأى ثلاثة رجال، فقـام وأعد لهم وليمة وبشره الرب بولادة اسـحق من سارة بعد شيخوختها.

حديث أبى مالك

انتقل ابـرهيم بمن معـه إلى أرض الجنوب، وسكـن بين قادش وشـور وتغرب فى جـرارى التى كان يملكها «أبيمالك» ومـرة ثانية قـال ابراهيم إن سـارة أختى، فأخذهـا الملك، ولكنـه رأى الله فى حلمه ينهـاه عنهـا، فردهـا

(١) اسماعيل فى العبرية «يشمع إيل» أى ليسمع الله
(٢) أى أبو الشعب
(٣) أى ليقسم الله.

لإبراهيم، وأعطاه ماشية وغنما وبقرا وعبيدا، وقال له: اسكن فى أى مكان شئت من أرضى.

وأصيبت أسرة أبيمالك كلها بالعقم بسبب سارة، حتى صلى ابراهيم من أجلهم فشفاهم الله وولدوا.

هجرة هاجر بإبنها

قالت سارة لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنتها، لا تدعه يمت مع ابنى اسحق، فأعطى ابراهيم هاجر وابنها ماء وخبزا وصرفها فى برية بير سبع فنفد الماء وأشرف الولد على الموت، فتركته أمه وانتحت بعيدا تبكى، فأرشدها الله إلى بئر ماء. فملأت قربتها وسقت وليدها، ونما الولد وسكن فى برية فاران وتزوج من أرض مصر.

بئر سبع

اغتصب غلمان أبيمالك بئر ماء من عبيد ابراهيم، ولكن «أبيمالك» اعتذر بأنه لم يعلم بذلك ورد البئر فأعطاه ابراهيم سبع نعاج شهادة على أنه حفر البئر وأنها له فسمى المكان بير سبع، وزرع ابراهيم هناك أَثْلاً.

موت سارة

ماتت سارة فى حبرون من أرض كنعان وحبرون هى قرية أربع، وكان عمر سارة يومئذ مائة وسبعا وعشرين سنة، وسمح الحثيون لابراهيم أن يدفنها بين مقابرهم، ولكنه اشترى من عِفْرون الحثى مقبرة فى المكفيلة بربعمائة شاقل فضة، وبذا ثبت لإبراهيم ملك فى أرض كنعان. وقد قال له عِفْرون: الحقل وهبتك إياه والمغارة التى فيه لك وهبتها ادفن ميتك «ودفن ابراهيم سارة فى حقل المكفيلة أمام مَمْرَا التى هى حبرون فى أرض كنعان، فوجب الحقل والمغارة التى فيه ملكَ قبر من عند بنى حِث»(١)

---

(١) أنظر سفر التكوين ص ٢٣ / ١٨ ـ ٢٠

وصية إبراهيم وزواج اسحق

لما شـاخ ابراهيم وشـارف الموت استـدعى رئيس عبيده، وأوصـاه ألا يتزوج اسحق ابنه من الكنعانيين، بل يـذهب إلى أرض بابل ليختار له زوجة من عشيرته.

وكان ابراهيم قد أخبر أن ملكة زوج أخيه ناحور قد ولدت ثمانية بنين وأن أحدهم وهو بتوئيل ولد بنتا دعاها رفقة.

وذهب العبد إلى أرض بابل فصـادف أن رأى رفقة تملأ جرتها فأعجبته وطلب منهـا أن تسقيه فأجـابت فى كـرم بالغ، وسقت لـه مـاشيته أيضـا، فأعجب بها وبأخلاقها، وأعطاها خـزامة ذهب وسوارين، وسألها عن أهلها فأخبرته أنها رفقة بنت بتوئيل، ورحبـت به ضيفا عليهم، ثم ذهبت إلى بيتها وأخبرت بما حدث فجـاء أخ لها يدعى لابان، وقاد الـرجل إلى بيتهم. وهناك قص عليهم قصته وأخبرهم بمال ابراهيم ووصيتـه، وطلبه زواج رفقة من اسحق، فاستجابوا لأنه أمر إلهى، فأخذ العبد رفقة، وعاد بها وبمن معه إلى أرض كنعان حيث تزوجها اسحق.

موت ابراهيم ومواريثه

مات ابـراهيم عندمـا بلغ مائة وخمساً وسبعين سنـة، وكان بعـد موت سارة قـد تزوج امـرأة تدعى «قطـورة» فولـدت له عـددا من البنين، وولد بنوها أيضا، لكن ابراهيم قبل موته أعطى ابنه اسحق كل ما كان له، وأعطى أبنـاء السرارى عطـايـا وصرفهم عن اسحق شرقـا. ولما مـات دفنـه اسحق واسماعيل فى مغارة المكفيلة مع سارة.

وولد كل من اسحق واسماعيل نسلا كثيرا.

يعقوب وعيسو

عقمت رفقـة أياما فلـم تلد، وكان اسحـق يصلى لله ويدعوه مـن أجلها. فحملت بولـدين نزل أحـدهما أحمر فسمى عيسو لحمـرته، ونـزل الثانى ممسكا بعقبه فسمى يعقوب. فكان عيسو هو البكر الذى يخلف أباه، وكان

يحب الصيد فأجبه أبو، أما يعقوب فكان إنســانا كاملا يسكن الخيام ـ أى كان متحضرا ـ فأحبته أمه.

وجاء عيسو يومــا من البرية متعبا فوجد يعقوب قـد طبخ عدسا، فقال: أطعمنى من هذا الأحمر، فقـال له يعقوب: لا، حتى تبيعنى بكورتك، فبـاعه إياها لأكلة عدس أحمر، وسمى آدوم ومنه الآدوميون.

وشــاخ اسحق وكلـت عينـاه، فطلب من عيســـو أن يخرج للصيـد وأن يصنع له طعاما يشتهيه، حتى تقنع نفسه فيباركه ليكون ولى عهده. وخرج عيسو ليصطاد لأبيه، ولكن رفقة أوعزت إلى يعقوب فذبح جديين وطبختهما ووضع يعقوب على يديـه وعنقه جلود الماعز، وتظاهر بأنـه عيسو، فقد كان عيسو أشعر ويعقوب أملس، وقدم لأبيه الطعام فأكل وقدم له خمرا فشرب، ثم استدناه ليقبله ويباركه، فأنكر صـوته ولكنه أحس خشونة يديه، فقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيســو، فأعطاه كل بركته، ودعا له، وسأل الله أن يعطيه من ندى السماء، ومن دسم الأرض.

وجــاء عيسو بصيـد لأبيه. فـدهش أبـوه، وقال: إن يعقـوب بمكر أخـذ بركتى، فأخـذ عيسو يبكى ويطلب شيئـا من بركة أبيـه، فأجابه بأنـه بلا دسم الأرض يكـون مسكنك وبلا نـدى السماء من فـوق، وبسيفك تعيش ولأخيك تُسْتعبَد.

وحقد عيســو على أخيه حتى أراد قتله، ولكن رفقـة طلبت من يعقوب أن يغترب أياما عن أخيها لابان حتى يهدأ غضب عيسو.

وتزوج عيســو على نسائه الحثيـات «محلة» بنت اسماعيل بن ابـراهيم أخت بنايوت.

أما يعقوب فبتوجيه أبيه وأمه تزوج بنت خاله الآرامى.

زواج يعقوب

قصـة زواج يعقـوب كما هى فى الكتاب المقـدس قصـة عجيبـة تعكس صورة واضحة من أخلاق اليهود، ونلخصـها فيما يلى:

كانت رغبة رفقة واسحق أن يتزوج من بنات خاله لابان، وذهب يعقوب إلى حـاران وهو لا يعـرف خالـه ولا أحداً من أولاده، فـوجد الـرعاة هنـاك مجتمعين حول بئر مغطاة بحجر ثقيل، وسألهم عـن خاله، وكانت صغرى بنتيه راحيل قادمة بأغنامهـا لتسقيها، فقام هو وأزال الحجر وحده وسقى لها، وكان الـرعاة حين يجتمعـون يدحـرجون الحجـر ليسقوا أغنـامهم ثم يعيدونه على فم البئر ولكن يعقوب زحزحه وحده وسقى لابنة خاله وعرفها بنفسه، وكانت حسنـاء فأحبها. وجاء أبوها فاستدعـاه إلى بيته، وطلب منه يعقوب أن يـزوجه راحيل فى مقابلة خـدمته سبعة أعوام، وقبل لابـان ولكنه خدع يعقـوب فزف إليـه خفية ابنته ليئـة، وكانت ليئـة هى الكبرى، وكانت كليلة العينين، وأعطـاها أبوهـا جاريـة تدعى زلفة، وتبين يعقـوب فى اليوم الثانى خدعـة خاله وعاتبـه عليها فقال له: إن عـادتهم ألا تتزوج الصغرى قبل الكبرى، ووافقه على أن يزوجه راحيل على أن يخدمه سبع سنين أخرى وزفها إليـه بعد أسبوع. وأعطـاها جاريـة تدعى بلهة، فكـان يعقوب يحب راحيل أكثر من ليئة.

وولدت ليئة له أولاداً أربعـة بنين هم رَءوبَيْن وشمعون ولاحرى ويهوذا، وتوقفت عن الولادة مدة ثم ولدت ولدين هما باكر وزبلود، وبنتا هى دينة

وأمـا راحيل فقـد عقمت مـدة، ثم ولـدت يـوسف. ثم ولـدت بعـد ذلك بنيامين. وكـانت أثناء عقمهـا دفعت بجاريتهـا بلهة إلى يعقـوب فولـدت له ولدين، كما دفعت ليئة له أيضا جاريتها زلفـة فولدت له ولدين أيضا فهؤلاء الأسباط الاثنا عشر أبناء يعقوب.

وخدم يعقـوب خالـه عشرين سنة أربع عشرة سنـة لأجل ابنتيه، وست سنوات بأجر ثم عزم على الرحيل وطلب أجره من خاله.

احتيالات يهودية

أراد يعقوب الرحيل بـآله، وطلب أجره كل شاة رقطـاء وبلقاء، وكل شاة سوداء بين الخراف، وكـل رقطاء وبلقاء بين المعـزى، ووافق لابـان ولكنه عزل هذه الأنواع وأمر أبناءه أن يبتعدوا بها عن يعقوب مسيرة ثلاثة أيام.

وعمد يعقوب إلى حيلـة أذ جلب قضبانا خضرا، وقشر أجـزاء منها فصارت مخططة ونصبهـا عند مســاقى الغنم وهى فى وقت وحمها، فـولدت أغنـاما كلها مخططة، فعـزل غنما لنفسه، وظل كلما توحمت الأغنام القـوية وضع القضبـان أمامهـا ولا يضع أمـام الضعيفـة فصارت الأغنـام القـوية لـه والضعيفة للابـان. وكثرت أغنام يعقوب جدا، مما أثـار أحقاد لابان وأولاده عليه.

وشكا يعقـوب لزوجتيه تغير وجـه أبيهما نحوه. وعـزم على الرحيل مع كل أسرته سرا، فوافقتا ولكن راحيل سرقت أصنـام أبيها!!وعلم لابان برحيل يعقوب فى اليوم الثالث،فهرول مع أبنائه ليـدركه، فأدركه بعد سبعة أيام فى جبل جلعـاء. وسأله عن أصنـامه التى سرقت. وقـام ففتش خيام يعقـوب، لكن راحيل وضعت الأصنـام تحت رجـل جمل وجلست فـوق الـرجل، ولما جاء أبوهـا وفتش لم تقم واعتذرت بأن عليها عادة النســاء فلا تستطيع أن تقـوم، ولما لم يجد لابان الأصنـام، كان لـه عتـاب ونقاش مع يعقـوب، ثم ودعهم جميعا ورجع.

رؤية الله ومعونته ليعقوب

لما كان يعقـوب فى طريقــه إلى حاران، نـام فرأى سلما يمتـد إلى السماء تنزل عليه الملائكة ورأى الله، فقـال الله أنا معك وهذه الأرض لك ولبنيك من بعدك، وفى الصبح أخـذ يعقوب الحجر الذى كـان يضع رأسه فوقــه فنصبه وصب عليه الزيت وسمى المكان بيت إيل أى بيت الله.

ولما كان عـائدا من حاران بآله، وتبعـه لابان ـ جـاء الله إلى لابان فى حلم وحذره أن يكلم يعقوب بشر أو بخير، ولما انتهى مـوقفهما أخذ يعقوب حجرا فنصبه ، وعملـوا حولـه رجمة وسمى يعقوب المكـان جلعيد. وقطعـا هناك عهدا على أن تكون هذه الرجمة فاصلا بينهما وذبح يعقوب ذبيحته.

إسرائيل لا يعقوب

كـان يعقوب يخشى حقـد أخيـه عيسو عليـه لما صـار له من الماشيــة والغلمان، فوزع ماشيته بين غلمانه وأعد لأخيـه هدية ثمينة، وفرق غلمانه

وأولاده ونساءه وبقى وحـده فى الليل خرج عليه إنسان، أو بـالأحرى خرج لـه الله فى صورة إنسـان أو جنى. وأخـذ يصارعـه طـوال الليل حتى مطلع الفجر، ولما لم يقـدر عليه ضرب حق فخـذه فانخلع، وقـال ليعقوب اطلقنى فقال: لا، حتى تباركنى، فسماه اسرائيل أى ليحكـم الله، وظل يعقوب يعانى آلام النسا.. هذا العرق الذى على الفخذ، وحرم على نفسه بعض الأطعمة(١) فهل كان هذا المصارع هو الإله أم كان جنيا أم إنسانا.

لا تكون التسمية مقدسـة إذا كانت من بشر أو جنى، ولا يمنح البركة إلا الله، فانظر كيف يصارع المخلوق خالقه ويغلبه حتى يطلب منه أن يطلقه!!

قصـــة دينـــة

استقـر يعقـوب فى مدينـة شكيم من أرض كنعـان، واشترى من حمور والد شكيم قطعة حقل نصب فيها خيمة، وأقام هناك مذبحا.

وخرجت دينة يوما لتنظر بنات الأرض، فرأها شكيم بن حمور، فأخذها واضطجع بها، وأحبها فطلب من أبيه أن يخطبها له، وكان يعقوب وبنوه قد غضبوا لما نال ابنتهم، فلما جاء شكيم وأبوه إلى يعقوب وبنيه لخطبة دينة، قالـوا لهم: إنكم غير مختونين، اختتنوا لكى نـزوجكم، فرجع شكيم وحمور إلى قـومهما يطلبان أن يختتنـوا جميعا، فـاختتنت المدينـة كلها، وفى اليـوم الثالث وهم موجوعون من الختـان، هجم عليهم شمعون ولامرى أخوا دينة فقتلا حمورا وشكيما وكل ذكور المدينة، ثم جـاء بنو يعقوب فنهبوا المدينة، وخاف يعقـوب عاقبة هذا العمل فـرحل إلى بيت إيل، وقد ظهر الله له ثـانيا وسماه اسرائيل مرة أخـرى ، وجدد معه عهـد ابراهيم واسحق، ثم رحل من بيت إيل إلى إفراتة، وفيها ولدت راحيل ابنها الثانى بنيامين، وماتت هناك.

بهذا اكتمل عدد بنى يعقـوب اثنى عشر ابنا، ستة من ليئـة على ما سبق،

---

(١) هـذا العرق الـذى على حق الـرجل يسمى النسا ولا يقـال فى العـربية عـرق النسـاء بل يقـال النسا فقط.. وجـاء فى القـرآن الكـريم: «كل الطعام كـان حـلا لبنى اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة » .

واثنان من راحيل وأربعة من الجاريتين، ولكن رأوبين بن ليئـة ضـاجع بلهة سرية أبيـه وأم ولديه!! وذهب يعقوب إلى حبرون حيث كـان اسحق لا يزال حيا، ومات اسحق هناك ودفنه ابناه عيسو ويعقوب.

فى هاتين القصتين، قصة زواج يعقوب، وقصة دينة، أبدى كاتب السفر أخلاق اليهود ومـا جبلوا عليه من صفات المكر والخيـانة والخداع والقسوة وحب المال فضـلا عن الاستهـانة بـالأعـراض. وفى الإصحاحـات السـابع والثلاثين ومـا بعده جاءت قصة يـوسف الصديق مع اخوته، وفيهـا أيضا أطراف من هـذه الأخلاق، وهى تختلف عما هى فى القرآن فى بعض جـوانبها ولكنها تسلم إلى مرحلة جديدة من تاريخ اسرائيل.

أطراف مما لم يذكر فى القرآن

تـزوج يوسف مـن بنت كاهن مصرى كـانت تـدعى أسنـات، فأولدهـا منسى و افـرايم، وكان لأخيـه بنيامين عشرة أولاد، وكـان الذين جـاءوا مع يعقوب إلى مصر ستا وستين نفسـا، وقد رحب بهم فرعون، وقـال ليوسف: اسكنهم فى أفضل بقاع مصر جاشان. وطلب يعقـوب أن يدفن حين موته فى بلاده، فنقله يوسف إليها وعـاش يوسف مائة عام وعشرة، حتى رأى الجيل الثالث من أولاد منسى وافـرايم، وأوصى أيضا أن تصعد عظـامه من مصر فحنطوه ووضع فى تابوت فى مصر. ونقل إلى المكفيلة.

دفن يعقوب فى المكفيلة فى بيت إيل الذى اشتراه ابراهيم ـ فى المغارة التى فى حقل عِفْرون الحثى، وهى المغارة التى فى حقل المكفيلة.

جاء يعقـوب إلى مصر ومعه أبنـاؤه وبيته ومـاشيته، كـان عدد الـذين جاءوا إلى مصر من صلب يعقـوب ستا وستين وينضم إليهم أبنـاء يوسف، ويـوسف ويعقوب جـاءا فى سفر التكـوين جميع نفوس بيت يعقـوب التى جاءت إلى مصر سبعون.

وتكـاثر بنـو اسرائيل فى مصر وامتلأت الأرض منهم، ثم جـاء فرعـون جديد لايعرف يوسف، وكان يخشى الاسرائيليين، فعمل على إذلالهم، وظلوا يعانون سوء العذاب حتى أنقذهم موسى.

الباب الثانى

الاسرائيليون فى مصر..
دخول فلسطين..
استيطان فلسطين

الاسرائيليون فى مصر

جاء فى سفر التكوين وسفر الخروج أن جميع أبناء يعقوب وحفدته الذين كانوا بمصر كانوا سبعين نفسا بمن فيهم يوسف ووالداه اللذان ولدا فى مصر.. وقد سأل فرعون اخوة يوسف: ما صناعتكم؟، فقالوا: عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعا، وقد اشتد بنا الجوع فى أرض كنعان. فعنى بهم فرعون واسكنهم جا شان (جوشن) ـ وعاش يعقوب بعد ذلك سبع عشرة سنة. (١) وظل الاسرائيليون من بعده يتكاثرون، وكانت مدة اقامتهم فى مصر مائتين وعشرين عاما، ولما خرجوا من مصر بعد هذه المدة بقيادة موسى كان عددهم ما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف. وجاء فى سفر العدد أن موسى أحصى قومه عند خروجهم من مصر فكان عدد من يستطيعون الخروج للحرب من ابن عشرين سنة فصاعدا ٦٠٣,٥٥٠ ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين .(٢) وهو عدد لا يعقل. وليس من المستساغ عقلا أن يتكاثر سبعون نفسا ـ بمن فيهم النساء والأطفال إلى هذا الحد، وبين يعقوب وموسى أربعة آباء فقط. (٣) وربما وفد على مصر

(١) انظر سفر التكوين ص ١٦ / ٢٧ ، وسفر الخروج من ١ / ٥ (٢) تكوين ٤٦ / ٢٧

(٢) انظر سفر التكوين العدد ص ١ / ١ ـ ٦

(٣) انظر مقدمة المقدمة لابن خلدون

بعد قدوم يعقوب وبنيه عبرانيون آخرون، ولكنهم ليسوا إسرائيليين.

كـان الاسرائيليـــون رعـاة، وقـــد تخوفـوا فى بـادىء الأمـــر خلطتهم بـالمصريين، وهم لم يألفوا حيـاة المدنية والـزراعـة. فقالـوا: كل راعى غنم رجس للمصريين (١) ووجدوا فى جوشان مـرعى خصبا لماشيتهم التى جاءوا بها، وقد كثـروا واثروا ولكنهم ظلـوا اتباعـا وينسب العهد القديـم ليوسف الصديق عـددا من الحيل للاستيـلاء على أموال المصريين وهى وإن لم تكن صحيحة إلا أنها تعطى صورة لأخلاق اليهود .

اشتدت المجاعة فى مصر وفى كنعان، فجمع يوسف كل الفضة التى بهما وباع ــ الناس بها قمحا، وجاء بـالفضة إلى بيت فرعون، ولما نفـدت الفضة أخـذ مواشيهم. ثم اضطـر الكنعـانيـون الجياع إلى بيع انفسـهم، وصـاروا عبيدا لفرعون، وباع المصريون ـ عـدا الكهنة ـ حقولهم، وكان للكهنة رواتب من فرعون يعيشون عليها ، ووجه يـوسف أبناء الشعب إلى الزراعة فزرعوا الأرض من أقصى حد مصر إلى اقصـاه، على أن يعطوا فرعـون خمس الغلة التى تنتج لهم (٢) وبذا نال يوسف حظوة عند فرعون .

وعاش يوسف مائة سنة وعشرا، وأوصى أن يدفن مع ابيه (٣)

ثم جاء على مصر ملك لم يكن يعـرف يوسف، فـرأى أن بنى اسرائيل قد صـاروا شعبـا كبيرا، وليسـوا على انسجـــام مع المصريين، فتخـوف منهم وخشى إذا حدثت حـرب أن ينضموا إلى اعـداء مصر، وكانت الحروب كثيرة فى هـذه الأيـام، ويقال ان الاسرائيليين تجسسـوا أو عملـوا جـواسيس على المصريين لأعدائهم، وهـذا خلق لايستبعد على اليهود وخشى فرعـون أيضا خروجهم من مصر لأنهم لو خرجـوا سيدلون الاعداء على عورات المصريين وهم بها خبراء بعـد طول اقـامتهم بمصر. لـذلك عمل فرعـون على إذلالهم وتسخيرهم فى الاعمال الحقيرة الشـاقة فكـانـوا يعدون الآجـر ويقومـون ببنائه .

(١) تكوين ٤٦ / ٣٤ ـ ٦
(٢) نفسه ٤٧ / ١٣ ـ ٢٦
(٣) نفسه ص ٥ / ٢٢ ـ ٢٦

وجاء فى سفــر الخروج انه كــان هناك قــابلتان لــلاسرائيليين، فأمرهما فــرعون ان تميتــا كل ولد ذكــر لــلاسرائيليين، وان تستحييا البنــات، ولكن القابلتين خشيتا الله وخافتا عقابه فلم تقتلا الذكور، ولما سألهما فرعون عن مخالفته قالتا : إن نساء العبرانيات اشداء ولسن كالمصريات، فهن يلدن قبل أن تأتيهن القابلة .

ثم كان حديث موسى عليه السلام وخروجه بهم من مصر .

النبى موسى ـ عليه السلام ـ

قدر بعــض المؤرخين ميلاد هذا النبــى فى سنة ١٥٠٠ق م أو مــا حولها، وقد اشتهــر هذا القــول وشاع [1] ولكن لا يبدو انه تقــدير صحيح، ذلك أن دخول يوشع بالاسرائيليين أرض كنعان كان فى سنة ١٢٠٠ ق م، ولا يتسع مــا بين موسى ويــوشع إلى ثــلاثمائة سنة، ثم أن الاسرائيليين الفــارين من مصر مع موسى مكثوا فى سيناء أربعين سنة فقط.

وكثيرون خصوصــا فى عهد الشك أنكروا حيــاة موسى أصلا وقالوا إنها اسطورة صورتها العقلية الشرقية، وأن اليهود اختلقوا هذه القصة لأسباب تخصهم، بل إن الشك طغى أيضا على الأحداث التى عــاصرته والآيات التى جــاء بها والمعجزات التى جــرت على يديــه، قال عنــه بعض مؤرخى حيــاة الاسرائيليين انه كان داهيــة ماكرا، وانه كان أمهــر وأمكر قواد بنى اسرائيل استطــاع أن يخلصهم من ظلم فـــرعــون وعــذاب المصريين، واختلق فكــرة أسباط يعقــوب الاثنى عشر ـ وهم ابنــاء يعقوب واسبــاط إبراهيم لينشــئ رابطة بين بنى اسرائيل تربطهم عرقيا برباط واحد ، وانه تغيب عن جماعته فى الصحراء اربعين يــوما ثم عــاد مدعيا انــه تلقى وحيا بــالوصــايا العشر، وفكــرة التوحيــد التى جــاء بها منقــولــة من عدد من المصــادر، من دعــوة اخناتون فى مصر، ومن حمية فى يثرون، لشعيب أوراعوئيلReuel، فى سيناء ومن تعــاليم حمورابى، وكل هــذه آراء غير مسددة. ونحن المسلمين نــؤمن بشخصية موسى وبمعجزاته المذكورة فى القــرآن، وجاء عنه فى العهد القديم

---

(١) انظر ترجمة له فى كتاب « عظماء قادة الأديان »

احداث وتفـاصيل أوسـع، ومـا ذكر فى القـرآن ليس مطابقا لما جـاء ، فى سفر التكوين مع اتفاقهما فى كثير من المواقف[1] ؟

ومما دعـا إلى الشك ما فى قصته من تشـابه أو محاكاة لقصـة سرجون الأول الملك السومرى الأكادى، وقـد جاءت فى كتاب ويلز H . s'.wells ـ نقلا عن كتابة بابلية من حديث سرجون عن نفسه، جاء فيها :ـ[2]

«كـانت أمى فقيرة، ولا أعـرف شيئـا عـن أبى، وكـان عمى من سكـان الجبـال، وقد ولـدتنى أمى الفقيرة سرا، فـوضعتنى فى صـفط مصنـوع من البوص، وسـدت فروجه بـالقطران، ثم ألقت بى فى النهـر، ولذا لم يبتلعنى، بل حملنى بعيـدا إلى القائم باعمال الـرى لعمى، وكان هـذا الرجل ــ القائم باعمال الـرى ـ رفيقا بى رحيما، ربانى حتى بلغت سن المراهقـة، وخرجنى جنان[3] ــ وكان عملى فى الحديقـة مما أعجب الالـه اشتر، ولذا فقـد صرت ملكا» .

وجاء فى كتـاب «عظماء قادة الاديـان» عن موسـى انه عين قـائدا لحملة حربية ضد الاحبـاش ونجحت حملته وأنه دخل الكلية اللاهـوتية فى جامعة عين شمس «هليـوبوليس» وانـه قطع شوطـا بعيدا فى الـرياضـات، وهكذا تضطرب الاقوال حول شخصية موسى وحول ثقافته .

ولايبدو انـه استقى فكـرة التوحيد مـن دعوة اخنـاتون، ولا تلقـاها فى جامعة هليـوبوليس فلم تكن فى هذه الجامعة دعوة إلى عبادة الـه واحد، ولو كانت دعوة مـوسى مستقاة من فكر مصرى لجهر بها قبـل هربه من مصر، أو على الاقل لقنها ذويه من الاسرائيليين وليس فى الآثار والمصادر اليهودية وصف لرحلته هاربا من مصر، ولم يرد فى الآثار المصرية شىء عنه، غير انه وجد فى طيبة نصب يرجع تاريخه إلى سنة ١٢٣٠ ق م فيه ذكر لإسرائيل .

وقتل مـوسى رجـلا مصريا انتصـارا لـرجل عبرى مـذكور فى القـرآن

(١) انظر ترجمة له فى كتاب عظماء قادة الأديان .

(٢) محاضرات تيرنر عـن موسى ، وانظـر كتاب **The Faith of the Bileel** ـ وانظر كتاب **The outline of histary** لويلز ص ٢٠٦ ــ ٧

(٣) « جنان » كنجار ـ يقوم بأعمال الحدائق والأشجار ـ المصدر نفسه

الكريم. وكذا وروده ماء مدين، وفى التوراة انه قتل المصرى خفية وطمره فى الأرض، وفى اليوم التالى وجد عبريين يقتتلان، ليس عبريا ومصريا .

وعند وروده ماء مدين جاء أن يثرون «راعوئيل» كان له سبع بنات، وان الرعاة طردوهن من عند البئر فسقى لهن موسى، وجاء أيضا أن موسى كان يرعى الغنم عند حمية شعيب، وأنه تزوج ابنته «صفورة» وانها ولدت له ولدا اسمه جرشوم وقصة وروده ماء مدين ووجوده امرأتين تذودان اغنامهما مذكورة فى القرآن الكريم، ولم يذكر أن شعيبا كان له سبع بنات .

استيطان فلسطين

آلت قيادة الشعب الاسرائيلى بعد موت هارون وموسى فى سيناء إلى يوشع بن نون، وهو خادم موسى منذ صغره وكان يصحبه فى مختلف مواقفه، وقد خرج ببنى اسرائيل من سيناء إلى أرض فلسطين، وثبت بها أقدامهم .

يقص سفر يوشع دخوله بقومه أرض الكنعانيين فيسرف فى ذكر المعجزات والخوارق التى حدثت له، لأن الرب كاد يحارب مع بنى اسرائيل، ومع ما أضفاه كاتب السفر على اعمالهم من قداسة ذكر أن يوشع بعث رسولين أو جاسوسين له ليبيتا عند امرأة زانية تدعى راحاب، فاخفتهما عن جنود الملك، ولما انتصر يوشع كافأها وكافأ ذويها [١]

وعندما علم ملوك فلسطين بدخول يشوع بقومه تحالفوا على مقاومته وكانوا جموعا شتى، الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون.. تحالفوا جميعا بصوت واحد على حربه ومقاومته، ولكن المعجزات اعانته فجف النهر الذى يريد عبوره وانقطع تدفق مائه حتى عبرت جنوده ثم تدفق ثانيا [٢] كذلك وقفت الشمس فى الأفق ووقف القمر يوما كاملا، وبذا طال الزمن حتى يجهز على أعدائه[٣] ..

---

(١) يوشع ص ١ / ص ٦ / ٢٣ (٢) ١٠ / ١٣
(٣) ١٠ / ١٣

ومع هذه المعونـات السماوية تبدو شخصية يوشع فى سفره قـوية عنيفة ، شخصية رجل محارب محب لسفك الدماء ، والانتقام من أعدائه ، كما يبدو أيضا محتالا واسع الدهاء ، وقد فتح عددا من المدن ووطن بها بنى اسرائيل ، وظل يحارب منذ دخـوله أرض كنعـان حتى شاخ واقعـده الكبر ، ثم مات عن مائة وعشرين عـاما ، ولكن حتى حين موته لم تكن الأمـة الاسرائيلية قد استقرت استقـرارا كافيا فى فلسطين ولا أمنت سطـو جيرانها ، وتلقى وحيا ان يقسم الأرض التى استـولى عليها بين أسبـاط تسعـة من بنى اسرائيل ، واعتبر منسى بن يوسف نصف سبط ، لأن له أخـا فهما معا وريثا يوسف ، ولم يأخـذ اللاويـون شيئا ، لأنهم خصصوا لـرعايـة الديـن بين الأسباط جميعا ، ولكن أبناء يوسف احتجا ، فمنحهم أرضا من ممتلكات الكنعانيين ، وقال لهم : أنتم شعب عظيم ، لا تكون لكم قرعة واحدة .

وأقام يشـوع قبل مـوته خيمة الاجتماع ، وبنـى مذبحـا للرب ، وبهذا ، أدى هـذا القائد لشعبـه أعظم مـا أداه قـائد لأمته ، وهـذا مـا سوغ نسبـة المعجزات العديدة اليه (١).

إذا نحن أغضينا عن هـذه المعجزات نجـد ان الظروف السياسيـة كانت مسـاعدة ليشـوع فى خروجـه من التيه وفى استقـراره فى فلسطين فقد بـدا ظهـوره مع قومـه من الصحـراء فيما حول سنـة ١٢٥٠ ق م . وقد كـانت مصر منذ أوائل القـرن الثالث تعانى ضعفـا ، وفى عهد امنحـوتب الثالث فى الحقبة التى تعرف بـاسم تل العمارنة كان الاضطراب يسـود البلاد كلها . وظل كذلك مدة طويلة ، وكان الكنعانيـون يعانون أيضا اضطرابا وانقساما واضطرهم ضعفهم أن يتحـالفوا مع الملوك المجاورين ، ولكنهم لم يكـونوا ملوكا أقوياء .

كان الاسرائيليـون حين خروجهم من الصحراء قلة . لا يتجـاوز عددهم ستة آلاف فيما يذكر المؤرخون ولم يكـونوا ذوى بأس ، ولكنهم كانوا ذوى خشـونة ، فكـانـوا يقتطعون من هـذا الاقليم الممـزق بلـدا بعد آخـر حتى

(١) فى ص ٤ / ٢٢ ــ ٢٤ ــ ان ميـاه نهر الأردن ونهر سـوف يبست تحت أقـدام الإسرائيليين حتى عبروا، ونـزل رئيس جنود الـرب ليحارب معـه ، وفى ص ٣ / ١٦ أن النهر انغلق حتى عبروا

استولوا على فلسطين الجنوبية ، والجنوبية الوسطى ، ثم فلسطين الشمالية ما عدا وسطها الشمالى . وهو البقعة التى كان أبناء يعقوب قد استولوا عليها انتقاما لأختهم [1].. وهذا الموقف كما يقول جون برايت غامض جدا ولا سبيل الى تقريبه الى الفهم إلا الدرس التاريخى لجميع الأمم التى كانت فى هذه البقعة .

والسفر كما سبق يسم يشوع . بالقسوة البالغة والاحتيال ، فقد أشعل النار فى قرية اريحا حتى اتت عليها ، ولم يستثن من أبنائها وبناتها إلا راحاب الزانية التى آوت جواسيسه وقتل الكثيرين ، وأحرق حاصور [2].. وكانت له جواسيس ودسائس شأن كل المحاربين ، كما ان الاسرائيليين والعبرانيين الذين لم يكونوا قد غادروا فلسطين كانوا له أعوانا وعيونا ، ولم يكن فتحه فلسطين فتحا كاملا ولا البلاد التى فتحها خضعت له خضوعا كاملا ، بل كان ثمة قلاع لم يستطع اقتحامها ومدن استعصت عليه وأخرى تمردت وظلت متمردة .

ومن غير الناحية الحربية تبدو له سياسة ناجحة فى تقسيم البلاد بين الأسباط حسب عددهم ، ومن الناحية الدينية والسياسية معا انه انشأ لهم معبدا عاما فى شيلوه [3]. ووضع فيه خيمة الاجتماع . فأنشأ به مركزا يحفظ وحدتهم .

وفى نهاية عهده كان العهد قد طال بينه وبين الأسباط ، فتفككت وحدتهم ولم يعودوا يشعرون شعورا قويا بهذه الرابطة التى تربطهم بإسرائيل ، بل ان أبناء السبط الواحد كانوا مفككين أيضا ، وكانت شخصية يشوع القوية هى التى تقيم بينهم شيئا من الترابط ، فلما مات سادت الجماعة كلها فوضى الانحلال .

كان الاسرائيليون بدوا صحراويين شديدى التأخر الحضارى بجانب

---

(١) انظر سفر التكوين ٣٤ / ٢٥
(٢) يشوع ٦ / ٢٤
(٣) ص ٨ / ٣٠

جيرانهم المـدنين ، فلما اختلطـوا بهم أخذوا يحاكـونهم حتى أنهم عبـدوا آلهتهم وأوثـانهم وتركـوا عبادة يهوه الههم الـذى قالـوا انه حـارب معهم ونصرهم ، وسفـر يشوع يغص بمؤاخـذاتهم والنعى عليهم ، ويـذكر انهم عبدوا بلعيم وعشتروت وآلهة الزراعة التى كانت تعبد فى فلسطين وماحولها[1]. وقد صنعوا لهم تماثيل من الفضة والذهب ووضعوها فى بيوتهم .

حيث لم يكن لهم ملك ولا قـائد بعد يشـوع صنع كل واحـد منهم وكل قبيلة ما كان يحسن فى أعينهم ، وتخلى يهوه عنهم فنهبهم أعداؤهم ولم يقو الاسرائيليون عليهم ، فأقام الرب لهم قضـاة خلصوهم من يد ناهبيهم [2]. لكنهم كانوا كلما ذهب قاض عادوا الى عبادة الآلهة الأخرى .

ومن قضـاتهم المشهـورين «دبـورة» فقـد انتصرت على ملك كنعـان ورئيس جيشه ، وكـان له تسعمائة مركبة من حـديد [3]. ويحفظ لها نشيد تـرنمت بـه ابتهـاجـا بنصرهـا ، ومنهم شمشـون الجبـار الـذى حـارب الفلسطينيين وقصة زواجه من فتاة فلسطينية معـروفة مشهورة وقد خلع الرواة عليـه صفات خيـالية واسعـة ، ويبدو فيهـا انها وضعت للتنفير من الزواج من غير الاسرائيليات .

وبـوجه عـام انحـرف الاسرائيليون عـن عبادة يهوه وعبـدوا آلهة الأمم ولكنهم اعتبروا « يهوه » راعى الأمـــة الاسرائيليـــة وراعى الآلهة واتخذوا الآلهة المحلية لـلأرض والزراعـة ، ووجد بينهم متفقهـون حاولـوا التوفيق بوجه مـا بين عبادة يهوه ، وعبادة الأمم الأخـرى ، مما أدى الى اضطراب فى الـدين والسيـاسـة والعـادات وازاء هـذا الاضطـراب انتـدب جماعـة من المصلحين للم هـذا الشتات وهم القضـاة لأنهم لم يكونـوا ملوكـا ، ولكنهم كـانوا قـــوادا نـاجحين ، وقد حـاربوا وأحـــرزوا نصرا ولـذا قالـوا ان الله اختارك.

---

(١) انظر سفر القضاة ص ٢ / ١٠ ـ ١٤ ص ٣ / ٦ ،
(٢) نفسه / ١٦
(٣) قضاة ص ٤

وقد ذكـرنا منهم «دبـورة» وحربها للكنعـانيين ، ومنهم جدعـون وقد حارب المديانيين [1] ومن أعماله المجيدة انه دعا القضاة الى عبادة يهوه والى قداسـة المعبد الذى بنـاه يوشع فى شيلوة ، ولكنهم بنوا معـابد حاكـوا فيها الأمم الأخرى وأقاموا بها مثلهم عمدا مقدسة .

وآخـر هـؤلاء القضاة هـو صمـوئيل وهـو زعيم دينى ، وعلى عهـده تم اخضاع الكنعانيين وجيرانهم ، وفى عهده قدم الفلسطينيون .

بدأ ظهـور الفلسطينيين من الساحل الجنوبى فـاستولوا على مـرتفعات افرايم Ephaim وانـزلوا بـالاسرائيليين هزائم فـادحة . دمـروا كثيرا من مدنهم بما فيها شيلوة ذات المعبد وكان يوشع قد وضع فيه خيمة الاجتماع والتابوت الذى به عصا موسى ورصـاص الألواح ، ، فاستولوا على ذلك كله غير انهم مـالبثوا ان تشـاءمـوا من هـذه المقدسـات ، فـردوهـا بعد ستـة أشـهر [2].. وظل صموئيل يوالى انتصارات ضدهم كل أيام حياته .

كان صموئيل منذورا من أمه لمعبد شيلوة وهو أحد ابناء بنيامين ، وبعد تحطم المعبد كان ينظر اليه على انه شخصية مقدسة وكان قاضيا أو نبيا فى قرية رام الله ، وهى فى صقع جبلى وكانت قيادته نـاجحة ولكنه كان قد شاخ قبل هجوم الفلسطينيين ولذا ولى ولديه القضاء فلم يسيرا سيرة حسنة مما استحث الاسرائيليين اكثـر ان يتخذوا لهم ملكـا مثل جيرانهم ، فمشـوا الى صمـوئيل بهذه الرغبـة ، وقد حـذرهم كثيرا وخوفهم استبـداد الملك عليهم وإزاء اصرارهم اختـار لهم شـاءول لما حبـاه الله بـه مـن بسطـة فى العلم والجسم ، وكتب أمام الشعب وثيقـة تضمن عدم استبـداده ، وهى دستور يضمن ديمقـراطيـة حقا ، ولكنـه أوصى شـاءول ألا يـرجم العماليق ، وان يقتل نساءهم وأطفالهم وماشيتهم .

كان شـاءول اذن أول ملك على اسرائيل وهو فى العـربية طالـوت . وكان عليـه ان يحارب الفلسطينيين وكـانوا أمـة تتميـز بين جيرانها ببراعتهـا فى صهر الحديـد واستخدامه وصنع الآلات الحديثـة منه حربية وغير حربية

---

(١) سفر القضاة ٧ / ١٥ (٢) انظر صموئيل ١ / ٦

ويه تغلبوا . وكان ظهورهم فى نحو منتصف القرن الحادى عشر حول سنة ١٠٥٠ق م . وفى سفر صموئيل وصف لامتداد ملكهم من الساحل الى الداخل ، فهزموا شاءول وقتلوا ولديه فلم يحتمل ثكلهما ومات منتحرا بعد حكم سنتين [١] .

وفى معركة شاءول مع الفلسطينيين برز رجل منهم فارع الطول على رأسه خوذة من نحاس وعليه درع يزن خمسة آلاف شاقل من نحاس . وكان قد أضفى النحاس على ساقيه ، وقناة رمحه كنول النساجين وسنانه ستمائة شاقل من حديد [٢] . فخافه الاسرائيليون وجبنوا أن ينازلوه ثم قتله داود .

من هذا نتبين ان العصر كان عصر النحاس ، وان الفلسطينيين كانوا أول من عرف الحديد وأشاع صناعته ، وانهم هم الذين نقلوا الحضارة البشرية الى عصر الحديد ولذا رهبهم الاسرائيليون حتى ان هذا الفلسطينى ظل يتحداهم أربعين يوما[٣] ، وضعف الاسرائيليين أمام جيرانهم فى هذا العهد يرجع الى عدم معرفتهم الحديد ، وكان الحثيون قد استخدموه على نطاق ضيق قبل ظهور الفلسطينيين ، ولكن الفلسطينيين تفوقوا فى صناعته وأشاعوا استعماله وتعلمه منهم الكنعانيون وغلبوا به الاسرائيليين أيضا ، وجاء فى سفر القضاة ان يهوذا لم يستطع طرد الأعداء لأن لهم مركبات حديد[٤] ، كذلك كان الفينيقيون يعرفون صناعة الحديد واستخدموه فى صنع السفن . وفشل شاءول على أى حال . وهو لم يكن على وفاق مع رجال الدين ولم يخضع لرأيهم وفتك بعدد كبير منهم ، وهذا ما دعا رجال الدين ان يساعدوا داود على تولى الحكم [٥]. وقد كان على عداء معه ودبر شاءول قتله فلم ينجح فيما أراد .

---

(١) صموئيل الأول ١٣ / ١ (٢) نفسه

(٣) نفسه ١٦ (٤) القضاة ١٥ / ٩

(٥) التاريخ القديم ٦٧ ، وفى سفر صموئيل الأول ٣١ / ١ ـ ١٠، أن الفلسطينيين قطعوا رأسه ورءوس أولاده الثلاثة وسمروا أجسادهم على سور بيت شان، وقدمت أسلحة هدية لبيت عشتاروت.

مملكة داود (١٠١٢ — ٩٧٢) ق. م

كان داود وهـو شاب ناشىء يحضر المعـارك مع شاءول . وبـدأ حكمه بعـــده والفلسطينيـــون ذوو السيـــادة على البـــلاد . وفى عهـــده عـــرف الاسرائيليـون صنـاعـة الحديد ، ثم استـولـوا على بـلاد آدوم وهـى غنيـة بالحديـد ، فتوافرت لـديهم الصناعـة والمادة فاستطاعـوا ان يخرجوا آلات حـربية منـوعة ، على أن سلطـان الفلسطينيين كـان قد ضـعف ، وبـذا تهيأ لـداود الانتصـار عليهم ، وجـاء فى القرآن الكـريم إشارة الى تقـدم صناعـة الحديد فى قـول الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود منـا فضـلا يا جبـال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ان أعمـل سابغات وقدر فى السرد ﴾[١] وانتصر داود أيضـــا على الملك الآرامى ـ ختـى وعزر ـــ واستـولى على مناجم النحـاس فى أرضـه فتوافرت له مـواد صـالحة ، واستفاد سليمان بكل ذلك من بعده[٢] ـ وجاء فى القـرآن الكريم عن سليمان ﴿وأسلنا لـه عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديـه بإذن ربه .. يعملـون له ما يشـاءون من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ [٣] .

ولا ينبغى ان يجرد شاءول من كل فضل فقد مهـد لنجاح داود بما أقام بين الاسرائيليين من وحـدة جمعت قبـائلهم ، وكـان بينـه وبين داود عـداء ولكن رجـال الدين كـانوا ـــ كما سبق بجانب داود وقـد حقق الآمال فيـه . ووثق داود وحدة القبـائل الاسرائيلية المتنـافرة لأنـه هو الـذى قتل جليات (جالوت)[٤] فبث هيبته فى نفوس الناس وخضعوا له .

وتبـدو له أيضـا مقدرة سيـاسية فقـد ضم الى حـاشيته يـوناثـان بن شاءول رغم العداء المرير الذى كان بينـه وبين شاءول وآله ، ولكن يوناثان هذا كان يحب داود ، ولما عزم أبـوه على اغتياله ذهب هو فأختبر داود ونهى أباه عن تنفيذ قتله[٥] .

---

(١) سورة سبأ ٣٤ الآية ١١ (٢)أخبار الأيام ١٨ / ٨

(٣) سورة سبأ آية ١٣ .

(٤) أحيط قتله باسطورة أنه رماه بحجر ففات ويعزى إلى داود وسليمان أساطير كثيرة . (٥) صموئيل الأول ١٩ / ١ ـ ٨

وعمدة داود فى نجاحه السياسى والحربى هو نزعته الدينية ، فهى التى جمعت حـولـه بنى اسرائيل وانجحتـه فى القضــاء على آلهة الأمم الـوثنيـة المجاورة فأزالها من مملكتــه وأخلص العبادة فيهــا ليهوه وحـده ، ثم أحرز انتصارات عـديدة على أعدائه زادت فى رخــاء شعبه ، ووسع حـدود مملكته فشملت ما بين أراضى فينيقية غربا والصحـراء العربية شرقا ، وامتدت الى رأس خليج العَقَبة ، وهـذا أقصى ما وصلت اليـه دولة اسرائيل ، وكــان هذا التـوسع على حساب الكنعـانيين ، كأكبر مجمـوعـة معاصرة لـداود ، وعلى حســاب الفلسطينيين الـذين كانـوا يملكـون الشريط الخصب على ســاحل البحر المتـوسط ، وكان اليبـوسيون الى الشمال من مملكـة داود قد اتخذوا من بيت المقدس (أورشليم ، عاصمة لهم ، عـاصمة مقدسة بها معبدهم أو أكبر معابدهم ، فأزاحهم داود وجعلها عاصمة ملكه وبنى بها ــ لأول مرة فى تـاريخ الاسرائيليين معبــدا لـهم ، وكــانــوا قبل ذلك يجمعـــون فى خيمــة ، يحضرون بها عهـد الله لموسى والتـابـوت الذى يعتبرون حضـوره ممثـلا لحضور يهـوه ، وفى هــذا المعبد حفظ التابوت والخيمــة وما تبقى من ألواح موسى .

وابتهج الاسرائيليـون بالعــاصمة والمعبـد ، وكــان موقع أورشليم ممــا جذب الأسبــاط ويلور حولها عــاطفتهم الدينيــة ووحدتهم الوطنيــة وقوى تماسكهم .

وكان حول داود عدد من المستشارين الدينيين ــ من القسس واللاويين ــ وقد أدخـل على نظام العبادة بمعاونة مستشــاريه شيئا جديـدا ، ذلك أنه جعل لها مقدمة موسيقية تـؤديها مجموعة مدربة ، وبها ينشط الحاضرون ويثور حماسهم للعبادة ، وأضـاف الى الأناشيد الدينية اناشيد حماسية من تأليفه ، أطلق عليها اسم المزامير وهى من الأناشيد المقدسة وقد توسع فيها الــذين جــاءوا بعده اذ أضــافـوا اليهــا كثيرا ، وهى مجموعـة الآن فى سفـر المزامير ، وبعضها منقول بنصه من تسابيح اخناتون التى كان يتوسل بها الى الشمس[1] .

---

(١) انظرفجر الضمير لبريستد ، وفيه مقابلات بين النصين

كان من مستشاري داود بعض من آل شاءول وكان مستشاروه يراجعونه ويردونه بعنف فى بعض المواقف ، وهذا مدى ما بلغته ديمقراطيته.

وينسب الكتاب المقدس اليه أشياء سيئة ، وتدل مقدسات اليهود ان التراقيم والأوثان لم تنقطع من بينهم رغم ما بذله داود من جهد لإخلاص العبادة ليهوه.

مملكة سليمان (٩٧١ - ٩٣١) ق. م

ورث سليمان داود ، وكانت توليته الملك ميسرة لما بذله أبوه من جهود فى انهاض الدولة ، ولم يتكلف مشقات حربية كأبيه . وقد حكم نحو أربعين عاما . ولكنه اجهد الدولة بنفقات كثيرة حتى إنها فى نهاية مدته كانت على شفا الافلاس ، وليس من السهل ان يوفق الباحث بين ما جاء عنه فى المقدسات من حكمة وما وصفه به التاريخ من تبذير وخرق . وتقول التوراة أيضا إنه سمح بعبادة الآلهة الأخرى ، وهذا مالا يقبله المسلمون وان قبله مؤرخو اليهود فهو عند المسلمين نبى معصوم بينما هو عند اليهود ملك فقط.

بنى سليمان فى أورشليم معبدا أو هيكلا فخما صار هو المعبد الرئيسى وألغى ما عداه من المعابد ، وكان بناة هذا المعبد من الفينيقيين ، مما يدل على ان الدولة كانت لا تزال متخلفة ، فلم يكن بين الاسرائيليين مصممون ولا بناءون ، وقد استكثر فى هذا المعبد من أعمدة الأرز الفينيقى حتى سمى بيت الأرز وغابة الأرز . وبنى لنفسه قصرا على نسق المعبد ، وتزوج بنت أحد الفراعنة وقدم مهرا لها قلعة ، وكانت مصر فى حالة ركود ، وكان زواج اسرائيلى من الفراعنة شرفا لم تحلم به اسرائيل من قبل ، على ان الاسرائيليين يبغضون التزوج من غير اليهود .

واتجه سليمان إلى التجارة فعقد صلات مع حيرام الصورى ، وهو الذى أشرف على بناء المعبد وكان له أسطول فى البحرين الأبيض والأحمر إذ كان على صلة بالسبئيين، وجاء فى القرآن الكريم ذكر صلته بملكة سبأ - بلقيس - وأنها بسببه تركت عبادة الشمس وعبدت الله الخالق ، وجلب إلى إسرائيل كثيرا من ثروات الأمم الأخرى وثقافتهم، وقرب بين إسرائيل وبين

الدول المجاورة، وبذا فتح أبوابها لتقليدهم وعبادة آلهتهم وطقوسهم، فكان فى هـذا على عكس ماعمـل أبوه.. وكـانت نفقـاته أكثـر من وارداتـه فأرهق الشعب بالضرائب، وافقر الدولة، ووصف معبده فى سفر الملوك يوضح هذا الاجهاد.

ويذكـر سفر الملوك انه أسرف فى الـزواج من الأميرات الأجنبيات ، وبنى لهن معابد وثنية[1] مما زعزع عبادة يهوه حتى صار مجرد إله قومى ، ولا يمنع ذلك عبادة الاسرائيليين غيره ، ولا نستطيع ان نصـدق ما جـاء عنه فى التوراة من أنـه كان زوجا لسبعمائة ، وله ثلثمائة جاريـة ، وان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب كقلب أبيه داود .

ولم يكن اتصـالـه بـالأمم الأخـرى شرا كلـه ، فإن الاسرائيليين نتيجـة اتصالهم بالفينيقيين تركوا الخط المسمارى والكتابة على الفخار واستعملوا الورق والمداد وحروف الهجاء الفينيقية .

وفى هذا العهد كتب أول تاريخ لبنى اسرائيل كتبه مؤرخ مجهول ضمنه تاريخ آبـائهم بدءا من ابـراهيم[2] ـــ ثم أضيف اليه بعـد ذلك تاريخ بـدء الخليقة . ولا يحسن ان ننسى طبيعة الشعب الاسرائيلى المتعلقـة بالوثنية ، وقد أخـذوا عن المصريين عبادة الأبقـار ـ وهى عبادة كـانت معروفـة لدى الأمم الـزراعية ، ورأينـاهم عقب عبورهم البحـر من مصر ينتهزون غيـاب موسى فيصنعـون لهم عجلا من الـذهب ليعبدوه ، والتوراة تعـزو هذا الى هارون ، وبعض الملـوك الاسرائيليين صنعوا تماثيل لـلأبقار وحفظـوها فى بيـوتهم ورغـم عظـات الأنبيـــاء ونهيهم عن عبـادة الأوثـــان ظل الشعب الاسرائيلى يميل الى الـوثنيـة فليس اتصـالهم بـالأمم الأخـرى هـو السبب الـوحيد فى تـركهم يهوه واتخاذهم آلهة أخـرى معـه ، وقد وصفت التـوراة يعقوب بأنه كان له أوثان .

وفى عهد سليمان شاع السحـر واشتدت العناية بـالأرواح والجن ، وجاء

(١) انظـرسفر الملـوك الأول ص ٦ / ص ٧ كانت أرض المعبـد من خشب السرو ، وغشيت جـدرانه بأخشـاب منقـوشة بتماثيل فـاكهـة وخضر ونخيل وبراعم زهـور، وغشى المحراب بالذهب وتوج أعمدة بيتـة بالنحاس وقام له بكل ذلك حيرام ، وهو ابن إمرأة من نفتالة ، وأبوه كان نحاسا فنانا ذا حكمة وفن رائع.

(٢) نفسه ص ١١ / ٢١ ـــ ٢٥ . وكان لـه مع بنت فـرعون مـوآبيات وعمـونيات وآدوميات وصيدونيـات، وحثيات من الأمم التى نهى الله عن الزواج منها

ذكر ذلك فى القرآن أيضا [1]، كـذلك كثر استيراد الـذهب ونسجت حـول الأشياء كلها أساطير وقصص .

وعلى أى حال انكسرت فى عهـده وحدة الـدولة ووحـدة الدين ، والـدولة أساسا قامت على وحدة الدين ، فانكسرت وحدتها بانكساره .

قسم سليمان دولتـه الى اثنى عشر قسما رغبــة فى ضم شملهم وربطهم جميعـا بســلالة يعقـوب . وكـانت قبيلتـا يهوذا وبنيامين فى الجنـوب فكـان اختلاطهما بالأمم الأخرى والتأثر بعاداتها قليلا ، فثبتتا على عبادة يهوه بينما مـالت الأسبـاط الأخـــرى فى الشمال الى آلهة الأمم التى جـاورتها ، ولم تكن الوحـدة التى تجمع كل هذه الأسباط قـوية ، بل كـانت شـخصية الحاكم هى الجامع لهم كما كـان الحال فى عهد يـوشع وداود اذ خفيت ظواهـر التفكك فى أيامهما ، ولكنها نجحت فى عهد سليمان بسبب تذمر الشعب من أعماله وعداء رجال الـدين له ، وكـان قد عـزل الكاهن ابيتـارا ، وقتل يؤاب رئيـس جيشه . وأخاه الأكبر دونيا[3] وذلك ما نفر منه ، وأظهر الانشقاق عليه.

وهنـاك اسمان متشبهـان هما يـربعـــام ورحبعـام . والأول من سبط افرايم، وأمـه كانت أرملـة تدعى « صروعـة » ـ وكـان من خصوم سليمان الذيـن انكروا عليـه أعماله وعـارضوه وقـد توعـده سليمان ففر الى مصر . وبقى بها حتى مات سليمان فرجع .

والثانى ـ وهو رحبعام ـ كان ابن سليمان وولى عهده فخلفه واتجه اليه يربعام هـو وجمع من الاسرائيليين راجين ان يخفف عنهم أثقال أبيه ، فخيب رجاءهم وقـال : ابى ثقل نيركم وأنا ازيدكم عليـه ، هو أدبكم بالسيـاط وأنا أؤدبكم بـالعقـارب[4] ولهذا رفضت عشر قبـائل ان تعترف بـه ملكـا، وهى القبائل التى فى الشمال ، فاختاروا يربعام ملكا عليهم وكونوا مملكة اسرائيل فى الشمال واتخذوا شكيم عـاصمـة لهم ، ثم بنـــوا الســامـرة وجعلـوهـا عاصمتهم ، أمـا سبطا يهوذا وبنيـامين فبقوا على ولائهم لـرحبعام وكـونوا مملكة يهوذا فى الجنوب ، وبقيت أورشليم عاصمـة لهم ، وبذا صارت الدولة الواحدة دولتين متنافستين ، بل كانتا عدوتين فى غير موقف .

ونعرض لكل من المملكتين عرضا موجزا .

(١) كتاب التاريخ القديم ص ٦٩ (٢) سورة البقرة الآية ١٠٢

(٣) الملوك الأول ٢ / ١٢ ، وانظر عن تقسيم المملكة ص ١١ ـ ١٢

(٤) أخبار الأيام الثانى ١٠ / ١٤

مملكة إسرائيل

شملت هذه المملكة شمال فلسطين ووسطها، وهى الأراضى الخصبة ذات الأشجار والمزارع، بينما شملت يهودية الجزء الصغير الجنوبى الأقل خصوبة، ولذا كان أهلها رعاة، واتخذت إسرائيل عاصمة لها ثم استقرت أخيراً فى السامرة ـ سامريا ـ أما يهودية فظلت على عاصمتها أورشليم ذات القداسة والمكانة فى نفوس الناس ..

وعمل يربعام yer obeam ـ بكل ما استطاع على توسيع الفجوة وتعميقها بين الدولتين، وعلى قطع إسرائيل نهائياً عن يهودية، ولذا جاء بأعمال غريبة تنافى الديانة اليهودية ، فحرم على شعبه الحج إلى أورشليم وبنى معبدا جديدا فى دولته يحجون إليه، وربما تقبل الشعب هذا لأن الإسرائيليين لم يكن لهم بلد مقدس، وكان داود قد بنى معبده فى أورشليم لأنها بلد مقدس من قبل وكان بها معبد اليبوسيين، وكان ليوشع ـ كما سبق معبد آخر . وغير يربعام الطقوس اللاوية الموروثة التى كانت تتركز حول «يهوه» وجعلها تعنى بالملك، وهذا فيما يبدو من أثر محاكاته الأمميين وتأثره بعبادتهم وطقوسهم، ثم تحالف مع بعض جيرانه الوثنيين، وحاول ان يستميل اليهود بما أشربوه فى قلوبهم من عبادة العجول، فصنع تمثالين من الذهب لعجلين جعل واحداً منهما فى بيت إيل على الحدود الشمالية للدولة، وجعل الآخر فى «دان» على الحدود الجنوبية، كأنهما حراس للدولة من جانبيها، كذلك غير مواسم الأعياد وجعل احتفاله السنوى فى اليوم الخامس عشر من الشهر الثامن العبرى، بدلا مما كان فى الشهر السابع المألوف لديهم من قبل، واتخذ كهنة من غير بيت لامرى، وكان يقدم قرابينه أمام العجلين اللذين صنعهما (١) .

وهو فى الواقع لم ينكر عبادة يهوه ولم يتخذ العجلين آلهة، بل اعتبرهما رمزاً ومجرد تمثال وصور للإله الذى لايرى ، لكن هذا العمل فتح الباب لعبادة بعل أو وسعه، وكانت قد قضى عليها من قبل على أيدى الأنبياء والقواد السابقين .

---

(١) انظر سفر الملوك ص ١٢ / ٢٨ ـ ٣٣

نشأ عن أعمال يـربعـام تفكك الـوحدة بين أسبــاط بنى إسرائيل ، وقـد خضعـوا وقتيا لسطـوته، لكن بـذور الفوضى التى وضعهـا ونذر التفـرق كـانت أكبر من ان تخفى ، فما لبثت أن انفجـرت عقب موتـه بعنف وشـدة، وكـان مما زاد الحال سـوءا أنه تـزوج من أجنبية أمـالت قلبه إلى دينهـا ثم جعله الدين الاســاسى للدولة، وبنى معبدا لبعـل فى السامرة(١)، وبذا ترك وراءه دولة مهلهلة على شفا الانهيار .

وتولى عمرى حكم إسرائيل بين سنتى ٨٨٦ و ٨٧٤ ق م(٢) فبذل جهدا فى رتق مـا تخرق منها، إذ عمل على تـوحيد القبـائل المتنافـرة فيها، وقـرب مسافة الخلف بين إسرائيل و«يهودية» فعقد معهـا عقد صداقة، وحقا نالت الدولة فى عهده تقدما، وبدا عليها الرخاء والقوة الحربية، ولكن الدولة كانت مهددة بقـوتين زاحفتين نحوها، هما الآراميـون فى سـوريا والآشـوريون فى العراق، وحـاول عمرى أن يحصن نفســه من زحفهما نحوه، فعقـد محالفة مع الفينيقيين.

وعقد صلــة أخرى بينه وبين ملك صـور وصيدا، فزوج ابنــه أخاب من ابنته ايزابيل وتولى أخاب الملك بعد أبيه من سنة ٨٧٤ حتى سنة ٨٥٣ق م، وقد حاول أن يقفـوا أثر أبيه فى سياسة التقريب بين الـدولتين فزوج ابنتيه أثاليـا ـ Athalia (٣)من يـورام ابن ملك يهودية، ونعمت الـدولة فى عهـده برخاء وسلام، ولكنه من الناحية الـدينية كان عهدا سيئا، فقد خضـع أخاب لزوجتـه. وكانت ذات شخصية قـوية ونفوذ، فأمـالته إلى ديانتهـا وجعلته يفرضهـا على شعبه، وفى هـذا العهد تفشى فى الـدولة وبـاء وأصابها قحط فتلفت الزروع وقلت الثمار، وتبعا لضعف عبـادة يهوه غزت الشعب تقاليد طرواده .

(١) the big book of the bilile

(٢) فى Bright من سنة ٨٧٦ ـ ٦٩

(٣) تنطق أيضا أتحاليا ، وأتهاليا .

وأنظر يربعان سفر الملوك الأول ص ١٢ ـ ١٥ وما بعدها ، وأيضا ص ١٣، ١٤

وبدأت الأزمـات تتوالى بمعـارضـة النبـى إليجا ylijel ـ الـذى انقاد لـه الشعب ضد الملك.

معارضة اليجا

النبى اليجـا (إليّا) من أوائل أنبيـاء بنى إسرائيل، وكان معـاصرا لهذه الحركـة ، فهالـه ما يفعلـه أخاب وزوجـه إيـزابيل ، إذ كانت فى الـواقع هى المسيطرة، وكـانت جادة فى فـرض عبادة بعل بما فيهـا من الشرور والآثام، وبما فيهـا من فرض الضحـايـا البشرية، وكـانت هـذه العـادة السيئة قـد انقرضت بين العبرانيين منـذ عهد إبراهيم عليـه السلام وفداء ابنـه بضحية من الاغنام، بينما كانت تزاول فى الأمم الأخرى التى كانت تجاورهم.

وكاد أخاب ينجح فى فرض تعاليمه، وكانت عبادة يهوه فى هذا الوقت قد ضعفت بين الإسرائيليين، غير أن النبى إيليا قد انـدفع بحماس بالغ يعارض الملك وزوجته، وأخـذ يجول كالصاعقـة فى أنحاء القطر يحذر وينـذر بسوء المصير، ويـذكـر الإسرائيليين بفضل يهوه عليهم، إذا أخـــرجهم من مصر ونجاهم من اضطهاد فرعون، وعزا إليا ما أصاب البلاد من قحط وأوبئة إلى ترك الإسرائيليين عبـادة يهوه ومخالفتهم أوامـره، وسما فى دعوتـه فتحدى عباد بعل والـدعاة إليه، وإزدراهم، وسخر من عبـادتهم ومن آلهتهم... مما اثار غيظ الملكة ايزابيل فأهـدرت دمه وعملت على التخلص منه بقتله، فهرب إلى حـوريب مهبط عهدهم.. وتتلخص دعـوة النبى إليـا وأعماله فى خطـوط رئيسية أهمها مايلى:

١ ــ انـه نـادى بأن يهوه الـه الشعـوب كلهـا وليس الـه الإسرائيليين وحدهم، كما كـان القوم يعتقـدون، وهذه الـدعوة لم تظهـر على لسان نبى إسرائيلى قبله، ولكنها لم تستمـر بعده، وكان مغزى هـذه الدعوة أن يخضـع عبـاد بعل والأمم الأخـرى لعبـادة يهوه، وذلك من أهم مـا أكسب الديـانـة اليهودية سعة وأكسب اليهود نفوذا.

٢ ــ دعـا إلى اخلاص العبـادة ليهـوه وحـده، وكان الإسرائيليـون مع عبادتهم يهوه يعبدون الآلهة الأخرى، ولايرون تنـافيا بين العبادتين، وكان إيليا يصرخ فيهم بعبارات مروعـة: إلى متى أنتم فى هذا التردد والتخبط؟ إما

أن تؤمنوا بيهوه الـها واحدا، وإذن فاعبدوه وحده ودعوا عبادة بعل، وإما أن تؤمنوا ببعل إلها فاعبدوه ودعوا عبادة يهوه ، لأن يهوه إما أن يكون كل شيء أو يكون لاشيء(١)، وبهذه الدعوة لم يعد يهوه لدى الإسرائيليين رئيس آلهة، بل هـو الالــه الوحيـد، واستجـابت جماهير الشعب لـدعـوته، فخـرجـوا فى مظاهـرات صـاخبة يصيحـون: يهوه هو الاله، وغـلابهم الحماس فقررا قتل الأنبياء الـذين يدعون لعبـادة بعل، وكان ذلك من أهم ما جعل الملكـة إيزابيل تهدر دم إيليا، ولكن مع كل هذا الحماس لم تنقطع عبادة بعل(٢).

٣ — أثناء عزلـة إيليا وهربه على جبل حوريب، انقـدحت فى ذهنه أفكار اعتبرها وحياً من يهوه، وبذا غير الفكرة التى كـانت سائدة لديه من أن الإله لايتجلى ويوحـى إلى أنبيائه إلا فى نار أو عـاصفة أو زلـزال، وقرر انـه يأتى بعيدا عن الظـواهر الطبيعية العنيفـة، وكان ذلك نتيجـة تفكير طويل ويأس تملكه وأظهر حزنه وأسفـه لأن الشعب الإسرائيلى لم يف بالعهد الذى أخذه يهوه على إبراهيم وإسرائيل وموسى.

وإزاء إخلاصــه وتصميمه انفتح له بـاب الأمل فى نجاح دعـوته فمضى يبشر وينذر، وكـان يحس دائماً صحة فى كيـانه وداخله تـؤكد لـه ان دعوة يهوه لابد أن تتم، ووعده لابد أن يتحقق، وأن دعاته لابد أن ينتصروا.

٤ — أن يهوه حين يغضب على بنى إسرائيل يسلط عليهـم من الأمم من يذلهم ويقهرهم. كـانت الفكرة التى انقدحت فى ذهنـه واعتبرها وحيا هى أن يجمع الأطهار الذين لم يركعـوا لبعل وأن يكون منهم نواة لشعب صالح لم يعبد غير يهوه، وكان من هؤلاء عدد يبلغ نحو سبعة آلاف شخص فانضموا إليه وعظمت بهم ثورته.

وقد كان «حزائيل» ملك الآراميين قـد احتك بالمملكة الشمالية وأنزل بها هزائم، فاعتبرت هـزائمه طبقا لتعاليم إيليا ـ عقـوبة من يهوه، وقبل أن يفر إلى حوريب استدعى تلميذه اليشع فمسحه بـالزيت المقدس، ورسمه داعية بعده ليستأصل عبادة بعل نهائيا.

---

(١) انظر سفر الملوك الأول ص ١٨ / ٢١ ـ ٢٢

(٢) الملوك الأول ١٩ / ٢ ـ ١٥

من هذا كله نرى أن دعوة إيليا أحدثت تطورا واسعا فى الديانة اليهودية، وهى لم تراع كلها بعده ولكنها مهدت الطريق للأنبياء الذين جاءوا من بعد .

ويحفل سفر الملـوك الأول بمعجزات إيليا، ورغم ماتحويه مـن مبالغات واختلاقات فإنها تعكـس صـورة من نضـال عنيف لمقاومـة آثام كثيرة كانت متفشية فى الشعب الإسرائيلى، وفى هـذا السفر أنه نـاظر أربعمائة وخمسين من كهان بعل وكانت له الغلبة عليهم بمعجـزة باهرة وقد أمر بقتلهم فقتلوا جميعا(١).

ومن الأحـــداث التى أذكت الثـورة ضـــد أخاب أن كان بجـانب قصره كرم لأحـد الرعاة، فأراد ان يستبـد له منه بـآخر بعيد عنــه، ورفض الرجل لأنــه كرمــه من تـراث أبيه ، فـدبرت لـه الملكة إيـزابيل مكيدة قتل بسببهـا رجما، واســتولى أخـاب على الكـرم. واتخذ إيليــا من هـذا الحادث مثـاراً للتشنيع عليــه، وأنذره بغضبة يهوه عليــه وأن الكلاب ستلعق دمــه، وتأكل جسده هو وزوجتــه، ومن مات من ذويه بالمدينة تأكلـه الكلاب أيضاً، ومن مات بالحقل تأكله الطيور(٢) فكان لهذا الانذار أثر بالغ فى نفسه وفى نفس الشعب.

وصــدقت المقـاديـر نبـوءات إيليـا بسرعـة، فإن أخـاب بعـد أن أحـرز انتصارات على الآراميين لاقــى هزيمة منكـرة منهم وفيها لقى حتفـه. ونقل إلى عاصمته السامرة ينزف دما فلعقت الكلاب دمه ودفن بها(٣) سنة ٨٥٣.

وتولى آحـازيا بن أخـاب، فسقط من فوق منـزله فمات بعـد عامين من حكمه، وتلاه أخوه فحكم حتى سنة ٨٤٢، وكانت الثورة ضد بيت أخاب قد اختمرت، وكـره الناس بيت عمرى كله فـاغتالوا الملك وباغتيـاله ذهب ملك الأسرة كلها.

وكانــت هذه الثورة بقيـادة محارب يدعى يـاهو، وكـان النبى اليشع ـ تلميذ إليا ـ قد باركه ملكا على دولة إسرائيل، وعاهده أن يعمل على قطع دابر

(١) انظر سفر الملوك الأول ص١٨ / ٢٢ ـ ٤٠

(٢) الاصحاح ٢١

(٣) نفسه ص٢٢ / ٣٢ ـ ٤٠ ، وانظر الأيام الثانى ١٨ / ٢٣ ، ٢٤

بعل وعبادته من بلادهم، ولم تقف الثورة عند هذا الحد، بل امتدت إلى بقايا البيت العمرى، فطرح الثوار إيزابيل المسنة من نافذة القصر فاندق جسمها وداسته الخيول ونهشتـه الكلاب، ولم يبق منها سـوى الجمجمة والرجلين وكفيها، وقتل أبنـاء الملك أيضاً وكانوا سبعين، وقتل كـذلك كل أفراد البيت. ومن كان من أبناء فى مملكة إسرائيل.

تحـول عجيب

لم يكن ياهو مخلصا فيما دعا إليـه من عبادة يهوه بل كانت أعماله كلها حركـة سياسية أراد بها إزالة آحـاب وبنيه ليحل هو محله، فلما استقـر له الأمر تحول ثانيا إلى الوثنية ودعا إلى عبـادة عجل يربعام، فانتكست الدولة إلى حال من السـوء، وانتاب الشعب ذعر واكتئاب ، ثم انقطعت العـلاقة بين المملكة وبين أختها يهوديـة وانحلت معاهدة الفينيقيين التى أبـرمها عمرى من قبل، وكانت هذه فى الواقع بداية لنهاية الدولة، فإن الآراميين هجموا على الدولة فى هذا الوقت فى غارات عنيفة، وفى عهـد ابنه الذى تلاه انحطت الدولة إلى مجرد تابع للدولـة الآرامية، وظلت الدولة على هـذا الانحطاط حتى عهد يربعام الثانى، وهو الملك الثالث من هذه السـلالة فانتعشت الدولة انتعاشاً كبيراً ساعدها عليه تدهور الدولة الآرامية نتيجة حروب داخلية.

وفى عهد هـذا الملك الذى حكم من (٧٨٥ ــ ٧٤٥) أى نحو أربعين عـاما سادت عبـادة يهوه من جديد وبنى عـدداً من المعابد لـه، وروعيت مبادئ الدين والأخلاق، وقويت الدولة عسكريـا وحربيا فمدت حدودها إلى ما كان عليه فى عهد داود، ولكن قوةالدولة فى الـواقع لم تكن ذاتية بقدر ما ساعدتها الـظروف الخارجية، كما أن نهضتهـا الـدينية والأخـلاقيـة كانت غشـاء ظاهريا، فقد كانت عبادة عجل الذهب تمشى جنباً إلى جنب مع عبادة يهوه، لأن هذا الشعب الصلب الجامـد ظل طوال ماعـاش يجنح إلى عبادة العجل، والـدول عنـدمـا تشيـخ وتأخـذ فى الانهيـار لايسهل أن تستقيم على الـدين والأخلاق.

النبى عاموس

فى هذا الوقت ظهـر النبى عاموس، حول سنـة ٧٥٠ ق م. ظهر فى الوقت

المناسب كـرد فعل للحياة الاجتماعيـة العامة، وكـان ظهوره كظهـور إيليا. حاضـا منذرا مبشراً. ولم تكن مملكة إسرائيل هـى البلد الذى أنبتـه، بل هو من أبناء يهودية، وهو أول الأنبياء الأدبيين الـذين ورثوا العهد القديم حكماً خالدة وأقـوالاً وأفكاراً لم يمحها مرور الأيام. كـانت حملاته قبل كل شئ موجهة إلى مظاهر الترف التى انغمس الناس فيهـا حكومة وشعباً وكان هذا الترف قـد جر عليهم كثيرا من أنـواع الفسـاد الأخلاقى والاجتماعى ففشـا فيهم السكـر والغش والمحابـاة والفسق وفساد القضـاء ،وهذه فى الـواقع صفات تنـذر بالفناء، وهى كثيرا مـاتفشو فى الأمم التى يحين زوالها ونعى عاموس عليهم كل هـذه الصفات وأنذرهم بسوء عاقبتها. وكـان لنشأته أثر فى هـذا الاتجاه، فهو راع بـدوى خشن، وكـان يجنى الجميز من أشجـاره، ولعله كان أميـا بحتاً، فقد اعتمد فى دعـوته على الخطابة ولم يترك أى كتـابة مدونة. أعلـن أن يهوه إله الناس جميعا وليس إله إسرائيـل وحدها(١)، وانه إله مبـادئ وتعاليم، فهو يحب الـرحمة والعدل ومساعدة الضعـاف، وهو مع كل من يعتنق تعاليمه ومبادئه، وعاموس أول من أعلن أن الله محبة ذلك المبـدأ الذى تبنتـه المسيحيـة فيما بعد، كما أعلن أن المظـاهـر الدينيـة من الأناشيد والمحـرقات ومسنمات المعابد كلها لاقيمـة لها عند الله، وإنما قوام الـديانـة هو الاخـلاص، وحـذر بنى إسرائيل أن يعتبروا أنفسهم شعب الله المختار وهم منغمسون فى المعـاصى، إن الله قد اختارهـم لرسالتـه وعبادته. فإذا تخلـوا عنها فليسـوا شعبـا مختارا. كـذلك أنـذر دمشق بما فعلت من سوء. وسفـر عاموس ملئ بالأمثـال البليغة والتشبيهات، ولكن كلامـه كله كان يـذهب هبـاء، فقد كـان الإسرائيليون فى غمـرة ضلالهم لايلقـون بالا ولايزدجرون بهذه العظات. ومن توجيهـاته التى كان ينبغى أن تثمر أنه لم يتجه إلى الانقسامات والمذهبيات بل كان اتجاهه إلى الله رأسا.

وإزاء الانحلال الخلقى والدينى فى الدولة كـانت مهيأة تلقائياً لأن تكون غنيمة باردة للاشوريين الذين استولوا عليها بعد عامين من دعوة عاموس.

(١) عـاموس ١٩ / ٢٥ ــ ٧ ـ وفيـه يذكـر ان الله كما أنجى بنى إسرائيل من مصر اتخذ الفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير.

الغزو الاشورى ونهاية مملكة إسرائيل

فيما بين عامى ٧٤٥، ٧٢٧ ق م ـــ ظهر تجلاث فلاسر **tiglath Pilesser** ـــ أمبراطورا على دولـة آشـور الجديدة، وكـان محاربـا قويـا، فأخضع فى سلسلـة من حملاتـه دمشق وجلعاد والجليـل وولايات أخـرى جعلهـا من ممتلكات آشور وعين عليهـا من قبل حكاما وفرض عليها كلها جـزية ثقيلة. واضطـرت إسرائيل أن تـدفع جزيـة أيضـاً، وحـدث فى نحو سنـة ٧٢٢ أن رفض هـوشع ـــ ملك إسرائيل إذ ذاك ـــ أن يـدفع الجزية وكـان امبراطـور آشور هو سرجون الثانى، فحاصر السامرة ذات الحصون القوية الضخمة ثلاث سنوات، ثم اضطرت أن تستسلم وكانت هذه نهاية مملكة إسرائيل.

كـانت مصر فى هذا الـوقت تخشى غـارة الآشوريين أيضـاً، وأرادت أن تعقـد حلفا مع جيرانها لتصـدهم بـه، ولعل هـذا ما وجـه هـوشع أن يقطع الجزية.

ولم يكتف سرجون بهذا الفتح، بل أخذ جمهـورا من الإسرائيليين سبايا إلى أقصى جزء فى امبراطوريته الكبيرة[١]، ثم غمر البـلاد بسكان مجلوبين من القـرى الآشوريـة والعيـلامية والبـابليـة فأقامـوا على أرض فلسطين وامتزجـوا ببقايـا الإسرائيليين بها، ولكن الشعب الجديد النـاشىء، عن هذا الامتزاج كـان وثنياً، وقد امتزجـوا بالإسرائيليين وتكون منهم السامـريون، لأنهم أسكنـوا فى مدن السـامـرة[٢] واتحدت معتقـداتهم الدينيـة بعبـادة يهوه[٣]، وظل هذا المزاج قـائماً حتى عاد عزرا ونحميا من السبى فـدعيا إلى تنقيـة الإسرائيليين من الدمـاء الأجنبية وطـردا من أورشليم حفيد الكـاهن الأعلى لأنـه تزوج من ابنـة الحاكم السـامـرى، ولكن السامـرى[٤]، ولكن السامريين ظلوا يهودا وبنوا لهم هيكلا على جبل جريزيم، ومع الزمن ازداد العـداء بينهم وبين الإسرائيليين وخصص السـامـريـون معبـدهم لـلالـه زفس[٥] وظلوا بعد ذلك طائفة مستقلة.

(١) نقلهم إلى ميديا الملوك الثانى ١٧ / ٦
(٢) الملوك الثانى ق ١٧ / ٢٥
(٣) نفسه ٣٤
(٤) انظر نحميا ١٣ / ٢٩
(٥) انظر المكابين الثانى ٦ / ٢

المملكة الجنوبية (يهوذا)

امتازت هــذه المملكة ـ مع أنها أقل عــدداً وأضيق رقعة وأقل خصــوبة ـ بأنها كانت شديدة الصلة بميراث داود ـــ فعاصمتها أورشليم هى عاصمة داود، وبها المعبد الذى بناه ودان لــه اليهود، وملكها رجعام بن سليمان من سلالــة داود. وقد حكمها تسعــة عشر ملكا وامتــد عهدها نحــو قرن وثلث زيادة على المملكة الشمالية، وأمضت كذلك نحــو قرن فى هدوء شامل سالمة من الانحــرافات التى تــورطت فيهــا أختهــا الشمالية (إسرائيل) ولكنهــا لم تسلم نهائيا من أخطائها ولا من عبادة آلهة الأمم الأخرى.

كان أول ملــوكها، رحبعــام بن سليمان، وبحكم العداء الــذى بينه وبين يربعام ملك إسرائيل عمل من قبل كما عمل منــافسه على توسيع الفجوة بين الدولتين، وفى السنة الخامسة من حكمه غزا الملك المصرى شيشــق «شيشنق Shashoh » أورشليم وأخـــذ خـــزائن البيت وكنـــوزه، ممــا اضطــره أن يستعيض عنها بــالنحاس[1] وقضــى مــدته فى حرب يــربعام وملــك سبعة عشر عاما[2] وأشهر الذين حكموا بها وتمتعت فى عهدهم بالهدوء واستقامة العبادة الملك عــزيا Asa (٩١٣ ـ ٨٧٣) ق م ثم يــوشافاط yhashaphat ـ (٨٧٣ ـ ٤٩) ق م ـ وكلتا الحكومتين ، حافظتــا على تعاليم التوراة بقدر كبير وأضــافتــا إلى أسرة داود حظا من التماسك والثبــات فى أذهان الشــعب، ولكن الشعب نفســـه كــان قــد تــورط فى الانحــراف من قبل ، ولم يكن من السهل إعادتــه إلى الشريعة المثلى، فظل النــاس يقدمــون الضحايــا للآلــه الأجنبية ويتعبدون على المرتفعات وينحتون الأعمدة المقدسة طبقا لعبادة الصوريين الوثنية[3] (وعمل يهوذا وقومهاالشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ماعمل آباؤهم بخطاياهم.. وكانوا أيضاً ماجتون فى الأرض فعلوا حسب كل أرجــاس الأمم الذين ردهم الــرب من أمــام بنى إسرئيل[4]) ولكنهم مع كل

---

(١) الملوك الأول ص ١٤ / ٢٥ / ٢٨ (٢) نفسه ٢١ / ٣١
(٣) كان القدامى إذا لم يستطيعوا عمل تمثال نصبوا خشبة أو حجرا رمزا لمعبودهم
(٤) الملوك الأول ١٤ / ٢٢ / ٢٤

ذلك ظلوا يـرعون عظمته، فكـان أشبه بكبير آلهة، ولم يستطع عـزيا مع كل مـابذل من جهـد أن يستأصل هذه الطقـوس، وكانت بطـول الممارسة قـد رسخت وصار لها قوم يتمسكون بها، ومن جهود يثاشافاط أنه عين قضاة فى الأقاليم لاقامة الشريعة، وجاء بشىء جديد هو فصل القانون الدينى عن القـانـون المدنى، وجعل القسس هم المشرفـون على القـانون الـدينى أمـا القانون المدنى فكان هو المشرف عليه، وبـذا لم يكن - كما كان السابقون - قاضيا، بل كان مشرفـا على تنفيذ القانون[1]، كما عمل على نشر المعلومات الدينية فى كل أنحاء المملكة[2].

ونقطة التحول فى أعمالـه أنه زوج انبه يهورام **yhaoram** من اتحليا (آسيليا **Athalia**) بنت أخـاب - التى سبق ذكـرها وهى بنت إيـزابيل - وكان يـرمى من وراء هذه المصاهرة إلى مـاكان يرمى إليه أخـاب - من ربط الدولتين وتقويتهما أمـام الأعداء، ولكن نتج عن هذا الزواج أثـر سيىء، فقد كانـت اسيليا كأمهـا قوية التـأثير على زوجها كما كـانت أمها، وطـوعا لها. جنح زوجهـا إلى عبـادة بعل (بعليم) وعمل على تثبيتهـا فى مملكتـه ففشت بطريقة صريحة كذلك أعادت أسيليا سنـة القتل وإراقة الدماء للوصول إلى كرسى الحكم، أو البقـاء عليه، وقـد لقيت هذه الردة معـارضة شـديدة من بعض الشعب ورجال الـدين، ولكن يهورام تفاجـر وأصر على تثبيتها فقتل ستة من إخوته وعددا من آل بيته، فـألقى الـرعب فى قلوب الرعية، ومات بعد ثمانية أعوام من حكمه، وترك الدولة تعـانى متاعب الفاقة البالغة والضـعف الدينى والعسكـرى، وقد فقد بسياستـه الخرقاء مساعـدة الأدوميين - بنى عمومتهم، لأنهم نفروا من عبادة الدولـة الملحدة وأقاموا لهم دولة مستقلة، كما فقد روافد مالية أخرى.

ووجـه النبى إيليا نصـائحه وعظـاتـه إلى هذا الملك كما وجههـا إلى ملك إسرائيل، وقـد كان فى إسرائيل ولكنـه انتقل إلى يهوديـة ليبث فيهـا عظاتـه، وأنـذر يهورام بســوء المصير ولكنـه لم يلتفت إليـه. وتـلا ذلـك هجـوم

---

(١) انظر أخبار الأيام الثانى ٣٩/ ٥ - ١١ (٢) نفسه

الفلسطينيين والآراميين على المملكة، فنهبوها وسبـوا نساء الملك وبنيه، ولم ينج من أسرته غير طفل كان يدعى يهو آحاز، وهو من أصغر أولاد يهورام. ثم ضرب المرض هذا الملك الأخـرق فتناثـرت أحشاؤه، ومـات غير مأسوف عليه فلم يدفن فى مقبرة الملوك(١) .

بذا أثبت يهوه انه ينتقم لنفسه ممن يخرجون عليه فى أى من المملكتين.

أما إرجاع ذلك كلـه إلى «أتحيا» فإنه يؤخـذ بشىء من التحفظ، لأن عادة الكتاب اليهود أن يغزوا كل شر ينالهم إلى النساء الأجنبيات، ويذكرون ذلك حتى مع الكبار من الملوك والأنبياء والمحاربين.

وولى الشعب أخزيا بن يهورام، وأمه إسرائيليـة بنت عمرى لكنها قادته إلى الشر أيضا كبنت أحاب، فلما كانت ثورة يـاهو ومذبحته فى إسرائيل، قتل أيضا رؤساء يهوذا واخوة أخزيا، كما قتل أخزيا أيضا(٢) وأنفتحت إذ ذاك أبواب فتنـة كبيرة، فإن أم أخزيا ــ وهى عثليا ــ أبادت جميع النسل الملكى من بيت يهوذا، غير أن أختا لـه كـانت زوجـة لكـاهن يـدعى «يهويـا داع» استطاعت أن تهرب طفـلا من أولاد أخزيا مع مـرضعته فى الهيكل لمدة ست سنـوات، وهذا الطفل هـو يـؤاش، وكان فى السنـة الأولى من عمـره عندمـا أخفى، فلما بلغ السنة السادسـة أعلن الكاهن تنصيبه ملكا. كما حكم بقتل.. عثليا» ـ وأخذ من جديد على الشعب عهدا بإخلاص العبادة ليهوه.

ومن العجيب أن الملك الناشىء ـ بعد هـذا كله ـ أغضى عن ردة الأمراء، وتركهم يعبدون السوارى والأصنـام، ولم يحاول ردهم عن هذا الانحراف، وأكثر من هـذا أنه حين قـام كاهن يـدعى «زكريا بـن يهو داع» يعظ الناس ويزجرهم عن هذه الردة، أمر الملك المرتدين فرجموه بالحجارة فى بيت الرب الذى لايراق فيه دم.. ونسى المسكين صنيع أبيه..

وفى العام نفسه هجـم الآرميون على الدولة فنهبوا وقتلـوا، ومرض الملك وغضب الشعب فدخل الثائرون على الملك فقتلوه على سريره.

وهكـذا توالى ملـوك يهوديـة التسعة عشر وكـان آخـرهم الملك صدقيـا

(١) نفسه ٢١ / ١٣ ـ ٢٠ (٢) نفسه ٢٢ / ٨ ـ ٩

(٥٩٧ ـ ٥٨٦) وكان يدفع الجزية لنبوخذ ناصر عدة أعوام. ثم اضطربت به شئون السياسة إذ كان التنافس بين مصر وبابل على أشده، ورأى هو أن يقف بجانب مصر وأن يقطع الجزية التى يدفعها لبابل، وكان عمله كعمل هوشع فى إسرائيل، فأرسل نبوخذ ناصر جيشا خرب أورشليم، وحاول الملك الهرب فلم يستطع، وقبض عليه فقتل أبناؤه أمامه وسلمت عيناه ليكون مقتل أبنائه آخر مايرى. وكان البابليون قساة ذوى وحشية، فهدموا المدن الهامة، واقتادوا نحو خمسين ألفا سبايا جدداً إلى بابل، كما حمل الملك نفسه إليها. وبهذا انتهت مملكة يهوذا، وذهب ملك بني إسرائيل نهائيا.

وأخبار هذا العهد من تاريخ بنى إسرائيل مدونة فى أسفار الملوك والأيام، وتفاصيلها كثيرة واسعة. وكما رأينا تركزت أسباب الفساد فى الدولتين على التزوج من الأجنبيات وكأنها تعيد حياة شمشون ودليلة بصورة أخرى.

أحداث ذات مغزى

اكتفينا بنظرة الطائر إلى هذا التاريخ، وهناك أحداث هامة فى يهودية نوجز أهمها فيما يلى :

من هذه الأحداث هجوم أميزيا Amyziah ملك يهودية على يؤاش ملك إسرائيل، وكانت حربا خاسرة لم يجن اميزيا من ورائها إلا هزيمة فاضحة فى سنة ٧٩٠ ق م وظلت يهودية تعانى آثارها حتى موت يربعام الثانى.

وفى عهد عزيا (عزريا)، (٧٨٣ ـ ٤٢) وعهد ابنه يوثام (٧٤٢ ـ ٧٣٥) وصلت يهودية إلى أقصى مابلغت من القوة والرفاهية، ولكن فى عهد آحاذ بن يوثام (٧٣٥ ـ ٧٢٧) وهو يقابل عهد يهوشع فى إسرائيل بدأ تدخل الآشوريين فى سياسة يهودية، وقد اضطر آحاذ أن يقابل تجلاث بلاسر فى دمشق وأن يقدم له طاعة ذليلة، ولكنه عزا قوة الآشوريين إلى آلهتهم، وعاد يقيم فى الهيكل اليهودى مذبحا على نسق المذابح البابلية، ودعا إلى تقليدهم فى طقوسهم حتى فى تقديم الضحايا البشرية، من الأطفال للآلهة، وانفعالا بهذه العقيدة قدم ابنة ضحية إلى النار التى كانت تعبد عند الآشوريين.

وتقديم الضحايا البشرية كان عـادة شائعة فى بلاد الشرق، وكان حادث تضحية إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبـى العبرانيين بابنه لرؤيا رآهـا من هذا النوع، وقد فداه الله بـذبح عظيم، فانقطعت هذه العادة بين العبرانيين، وبين بعض مجاوريهم أو على الأقل قلت، ولكن الإسرائيليين كانـوا يعاودونها بين حين وحين تأثرا بذويها.

الباب الثالث

عصر النفى البابلى وما حوله ..

الاسرائيليون فى النفى

كان الامبراطور الآشورى تجلات بلاسر قد استكثر من المقاطعات الآشورية فى سورية وما حولها، وفرض على مملكة اسرائيل جزية، وظلت تدفعها له حتى جاء الملك هوشع، فرفض دفعها، وكان قد أنس فى دولته قوة، فهجم عليه شلما ناصر الخامس - وريث تجلاث بلاسر - فحاصر عاصمته «السامرة» ثلاثة أعوام ومات قبل أن يفتحها، ولكنها سقطت أخيرا فى يد خلفه سرجون الثانى سنة ٧٢١ق.م، فسبى من الاسرائيليين عددا يختلف المؤرخون فى تقديره، قيل كان ٢٧٠٨٠، وقيل كان ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف، وقيل ٥٨,٠٠٠ ثمانية وخمسون ألفا، ولكن من المتفق عليه بين المؤرخين أنه سبى وجوه القوم ولم يترك فيه إلا الحثالات التى لا غناء فيها، وأسكن المسبيين فى خلج وخابور نهر جوار وفى مدن مادى [1]، وكانت مملكة اسرائيل على ما سبق تتكون من عشرة أسباط، بقيت منهم قلة ضئيلة، وذابت الكثرة التى نقلت فى الأجناس الأخرى، وبذا محى كيان الدولة من التاريخ فلم يوقف لها على أثر بعد ذلك، وقد ادعت جماعات فى آيرلاندا وفى الولايات المتحدة أنهم من بقايا الاسرائيليين أو سبط منهم، وفى تاريخ جماعة المور مون شىء من هذا وكلها دعاوى ليست ذات سند يطمأن إليه . [2]

---

(١) سفر الملوك الثانى ١٧/٩ (٢) انظر تاريخ المورمون فى كتابنا الارساليات التبشيرية

أما مملكة يهوذا الجنـوبية فقد عمرت بعـد أختها حتى سنة ٥٨٦ق.م ثم سقطت فى يـد نبوخـذ ناصر، أى أنها ظلت بعـد أختها مـدة تقرب من قـرن ونصف القـرن، ونقـل هـؤلاء أيضـا مسبيين إلى بـابل، ولكن لم يبتلعهم التاريخ كما ابتلع أبناء اسرائيل، هذا مع ما هو معروف أن البابليين عوضوا بنى اسرائيل أرضا فى بـابل ولم يعوضوا أبنـاء يهودية ولعل هذا ما سـاعد على ذوبان الأولين.

كـانت إقامـة هؤلاء فى بـابل إنعـاشا للـديانـة اليهوديـة التى انهارت فى أورشليم، فقـد وجد هؤلاء المغتربـون أنفسهم بين الوثنيين من كل جـانب، وهم ليس لهم أرض ولا لـديهم معبـد، فعملـوا على تماسكهم، ورجعـوا إلى عبادة يهوه وشريعة التوراة والتعاليم الدينية بإخلاص ونشاط. وبذا أقاموا لهم هناك سياسة جديدة تقوم كلها على الدين.

ولم ينس اليهـود أنشطتهم التجـاريـة والـزراعية والسيـاسيـة، فكـان للكثيرين منهم مـزارع ومنـاجـم وثـروات كبيرة، كما كـان لهم أصـابع فى سياسة الدولـة، وكان للنبى دانيال ـ الذى كان من السبايـا ـ موقف قريب من مـوقف يـوسف الصـديق فى مصر، فكان يعبر الـرؤى، وقـد عبر للملك نبوخـذ ناصر رؤيـا عجز كهـانه عـن تعبيرها، فخـر سـاجـدا أمامـه وأمر بإجـازتـه وقـال لـه: «حقـا إن الهكم إلـه الآلهة، ورب الملـوك وكـاشف الأسرار»[(١)]. ثم عينه رئيسا على جميع حكماء بابل، فكـان ببابه، وطلب منه أن يـولى ثلاثـة آخـرين على أعمال مملكة بـابل فـولاهم[(٢)] وسمى دانيال «بلطشاصر»[(٣)].

وجـاء فى سفر دانيـال أنـه كان معـه من خـدام الملك حننيا، وميشـائيل، وعزريا، فسموا بأسماء بابلية على نحـو ما سمى دانيال، سمى حننيا باسم شدرخ، وميشائيل باسم ميشيخ وعزريا باسم عبدنبو[(٤)].

---

(١) دانيال ٢/٤٦
(٢) راجع سفر دانيال ص ١، ٢، ٣.
(٣) نفسه ص ١/٢٦، ص ٢٢/٢، ٥
(٤) نفسه

وقد ترقى دانيال بعد ذلك حتى صار المتصرف الثالث فى الدولة بعد الملك والوزير الأول، وتنسب له ولرفاقه عجائب وخوارق من المعجزات، مهما يكن من شأنها فهى تنبىء عن مكانتهم فى الدولة. (١)

فى السنة الثانية من ملك نبوخذ ناصر رأى أحلاما أزعجته وأطارت نومه، فاستدعى المجوس والسحرة والعرافين والكلدانيين ليعبروا أحلامه، وقال: إن لم تعبروا رؤياى تصيرون إربا إربا وتجعل بيوتكم مزبلة، وإن عبرتموها فلكم هدايا واكرامات... فقال إنه أمر عسر ولايلبيه إلا الآلهة، وغضب الملك وأمر بإبادة حكماء بابل جميعا، وطلب دانيال ورفاقه ليقتلوا ولكن دانيال دخل إلى الملك وطلب أن يعطيه زمنا، وذهب إلى بيته وأعلم أصحابه ليبتهلوا إلى السماء كى تنجيهم، ثم ذهب دانيال إلى رئيس الشرطة أريوخ الذى عينه الملك لإبادة حكماء بابل، وقال له لاتبيدهم وأدخلنى للملك، وأمام الملك قال: السر الذى تطلبه لايقدر عليه الحكماء ولا السحرة والمجوس ولا المنجمون، لكن يوجد إله فى السماء يكشف سره، ثم ذكر دانيال له ما رأى فى نومه وهو تمثال عظيم رهيب رأسه من ذهب، وصدره من فضة وبطنه من نحاس.. ثم قذف بحجر فسحقه... وتحول الحجر جبلا، وفسر له الرؤيا بأنه هو الرأس الذهبى والأجزاء الأخرى ممالك ستخضع له، فخر نبوخذ ناصر ساجدا لدانيال، وأعطاه منحا وسلطة على كل ولاية بابل وجعله الرئيس على جميع الحكماء.. وصنع الملك تمثالا من ذهب ستين ذراعا فى ست، وجمع المرازبة والحكماء.. وأمرهم حين يسمعون صيحة البوق والمزامير أن يسجدوا للتمثال، ومن لم يسجد سيلقى فى النار، فسجدوا جميعا، ولم يسجد الثلاثة اليهود رفاق دانيال، فأمر الملك بشد وثاقهم والقاهم فى نار أكبر مما وعد، ولكن الملك رأى فى وسط النار أربعة يمشون آمنين، فذهب إلى النار ودعاهم، ورابعهم فيما قدر أنه آلهة، فخرجوا لم تحرق منهم شعرة واحدة، فأمر باحترام إلههم وولاهم كما كانوا ولما زالت دولة الكلدانيين وجاءت دولة الفرس ظل لليهود نفوذهم السياسى والمادى، وكان كورش الملك الفارسى (٥٣٩ -

(١) لكى نزيد المسألة وضوحا نذكر خلاصة مما فى سفر دانيال

٥٣٨ ق.م) هو الذى قاد الجيش الفارسى لتحطيم بابل، ولكن دارا (داريوس ٥٢٢ ــ ٤٨٦) هو الذى نظم الامبراطورية، وكان للنبى دانيال مكانة لديهما، وكان قد تنبأ من قبل بزوال بابل واستيلاء مادى وفارس عليها (١) وظفر أيضا بمكانة عند الملك كورش، وبوجه عام كان القصر الملكى فى سوس عامرا باليهود.

ويقص علينا سفر استير قصة من أعجب القصص عن التدخل اليهودى فى سياسة الدولة، وكانت استير ذات جمال فائق توصلت به إلى قلب الملك وكرسى الملك، وقبل ذلك كانت خادمة، وكان كبير الوزراء هامان قد حقد على اليهود، وأراد إقصاءهم عن بلاط الملك. ولكن استير جعلته يبطش بهامان، ونجا اليهود مما دبر لهم. (٢)

وكما يقول جون برايت إن وصف حياة الأسرائيليين فى منفاهم أمر شاق لعدم توافر المراجع والدلالات. ولكن اليهود فى بابل أوتوا حظا من المال والجاه وعاش كبراؤهم عيشة هنيئة، وكل ذلك لم ينسهم أنهم مغتربون ولم ينسهم وطن الآباء، وظل لهم حنين إليه، وكان هذا الشعور أشد وأقوى لدى الذين لم يتخذوا لهم موارد مالية كبيرة فى الأرض الجديدة، وفى المزمور ١٣٧ مقطوعة شعرية مؤثرة ليست بطبيعة الحال معبرة عن شعور صاحبها وحده، جاء فيها:

١ ـ على أنهار بابل هناك جلسنا، بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون

٢ ـ على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا

٣ ـ لأنه هناك سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ومعذبونا سألونا فرحا قائلين. رنموا لنا من ترنيمات صهيون

٤ ـ كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة

٥ ـ ان نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى

---

(١) كان نبوخذ ناصر قد رأى رؤيا أخرى، شجرة ذات أغصان تسد الأفق وتأوى إليها الحيوانات والطيور ثم قطعت كلها عدا جذعها... ودعا دانيال ليعبرها فتنبأ بزوال مملكة بابل (دانيال ص ٤ / ١٠ ـ

(٢) انظر سفر استير

٦ ـ ليلتصق لسانى بحنكى إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى .

٧ ـ أذكر يارب لبنى أدوم يوم أورشليم القائلين هدوا هدوا حتى إلى أساسها .

٨ ـ يا بنت بابل المخربة ، طوبى لمن يجازيك جزاءك الذى جازيتنا

٩ ـ طوبى لمن يمسك أطفالك ويضرب بهم الصخرة .

وهذا ليس مجرد حنين، وإنما هو شكوى وأمنية أن يتاح لهم الانتقام، فهم لم ينقلوا إلى دار نعيم فى بابل، ولكنهم بذلوا جهودا ثبتوا بها أقدامهم هناك .

يقول برايت Bright [1] فى القرن الخامس ق.م كان اليهود قد أسسوا أنفسهم هنا وهناك فى أنحاء الإمبراطورية الفارسية، وظلت بابل مركزا لليهودية لعدة قرون بعد ذلك، وبينما ظفرت جماعة بالثراء، ظفر بعض من أمثال نحميا بمكانة مرموقة فى البلاط الملكى الفارسى، وتدل النقوش التى وجدت فى آسيا الصغرى على أنه كانت هناك جماعات منهم (أشعياء ١٩ / ١٦ـ٢٥) ثم قال : وقد يفهم من أشعياء أنه كان هناك قلة من اليهود فى مصر السفلى، كما دلت الآثار على أن طائفة منهم كانت عند الشلال .

ومن الناحية الدينية كان فى بابل معبد ليهوه، ومذبح تساق إليه القرابين والضحايا، كما كانت توجد بينهم عبادات لغير يهوه مثل اشم بيتل Eshem Bethel وحِريم بيتل، وأناث بيتل، وقد تكون هذه الآلهة عنوانا على ردة اليهود عن إلههم تأثرا بالوثنيين من حولهم، ولكنهم كانوا كالوثنيين العرب الذين اتخذوا من الأوثان وسائل تقربهم إلى الله، وربما كان هؤلاء الوثنيون من المواطنين الذين تهودوا وليسوا من يهود بنى إسرائيل فخلوا بين عبادة يهوه وعبادة الآلهة الأخرى، مثلهم فى ذلك مثل الآراميين الذين تهودوا .

وعلى أى حال هذا الجزم اليهودى ـ من أبناء اليهودية ـ كان له كيان وأثر فى حياة البابليين والفرس .

A.hestory of Israe- P. 359 (١)

تحـريف الديـانة

وصف الاستاذ العقاد اليهود بأنهم تلاميذ أبديون [١] ، لأنهم كانوا فى كل مكـان نزلـوه يأخـذون ولايعطـون، ويرجع هـذا أسـاسـا إلى أنهم كانـوا يختلطون بأقوام أرقى منهم، فيجـدون أنفسهم مضطرين إلى الأخذ، وليس لـديهم ما يـؤخذ منهم، وقـد قدم ابـراهيم ــ أبو الأنبيـاء ــ من أرض الرافـد بعادات قومه، وإن كـان حقا نفر من عاداتهم الدينيـة، والقرآن يذكر فى غير سورة من سوره أنـه حطم أصنام قومه وحاجهم فى شأن عبـادتها، وكانوا يعبـدون الأصنـام والكواكب والملـوك، وقـد حـاجهم فى كل ذلك بـا لمنطق، وحاورهم حوارا عقليا وهموا بإحراقه لولا أن نجاه الله من النار. ويفهم مما جاء فى سيرتـه القرآنيـة أنه غير بعض العـادات الكنعانيـة، ولعل أهمهـا ما قضى به على الضحـايا البشريـة، فقد أمـر أولا أن يذبح ابنه بيـده، فأذعن وأذعن ابنه أيضا لأن هـذا كان مألوفا فى أمم هذا العهـد، ثم افتداه الله بذبح عظيم، وبهذا الفداء استبـدل الناس بالضحـايا البشريـة ضحايا حيـوانية، ولكن من المقطوع بـه أن الضحايا البشريـة قديمة فى سقى النهـرين وبقاع الهلال الخصيب، وقد بقيت إلى مـا بعد أيـام موسى [٢]، واستبدلت بأشياء أخرى [٣] والشـائع فى حيـاة الاسرائيليين أنهم كانـوا ينفلتـون من عبـادة التوحيـد إلى الشرك وتجسيم الاله، وقـد أخذوا من المصريين عبـادة العجل فـاشربتها قلـوبهم ولم يستطيعـوا التخلص منهـا، فهم إذا جاوز اللـه بهم البحر ونجو من فـرعون وآله أتوا على قوم يعكفون على أصنـام لهم، فقالوا لموسى : اجعل لنا إلها كما لهم آلهة [٤] وحين تغيب موسى على طـور سيناء لمناجاة ربه صنـع لهم السامرى من حلاهم الذهبية عجـلا جسدا له خوار، فقال هذا إلهكم وإله موسى فنسى [٥]

ويقول سفـر القضاة : « وفعل بنـو اسرائيل الشر فى عينى الـرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء

---

(١) الثقافة العربية ٤٧ — (٢) ابراهيم أبو الأنبياء ١٧١ ـ ٢
(٣) نفسه — (٤) سورة الأعراف
(٥) سورة طه

آلهة أخرى من آلهة الشعوب التى حولهم، وعبدوا البعل وعشتاروت» [١]

العودة من السبى

كان من سياسة الامبراطور كورش حين دخل بابل سنة ٥٣٨ ق.م أن يعيد اليهود المسبيين إلى موطنهم، فلم يكن لديه أسباب تدعو إلى عقابهم، وهم أصدقاء الفرس ومنهم مستشاروه وأعوانه، ثم إن وجودهم فى فلسطين وهم على هذه المودة معه يؤمن طريقه إلى مصر ويهيىء له مساعدين ولو بالجاسوسية، وهكذا كانت الظروف مواتية لهم أن يعودوا، وهم قدروا هذا العمل واعتبروا كورش مخلصا أرسله الله لهم [٢]

ولم يعد المنفيون جميعا، فقد آثر أصحاب الثروات والمزارع أن يبقوا لممارسة أعمالهم، ووجد فى الوثائق التجارية التى كشف عنها حديثا أسماء عبرية بصورة متكررة، وبعض هذه الأسماء يدخلها أسماء آلهة بابلية [٣] مما يوضح جانبا من امتزاج العبريين بالبابليين وتأثرهم بهم .

وعادت أول مجموعة بقيادة زرو بابل، وهو من سلالة النبى داود ـ عليه السلام ـ وكان معه كاهن أو نبى يدعى «يوشع» وكانت هذه المجموعة تبلغ نحو ٤٢,٠٠٠، وقد ساعدهم إخوانهم وجيرانهم بماديات كثيرة من المال والماشية، وأعاد لهم كورش ما كان نبوخذ ناصر قد أخذه من كنوز سليمان وذخائر أورشليم، ويبدو أنه رجع معهم جماعات ليسوا إسرائيليين[٤] . وعين زرو بابل حاكما عليها .

وفى عهد الامبراطور ارتحشستا الأول (٤٦٥ ـ ٢٤٢) وهو Artexertes long imn us I عادت مجموعتان أخريان بقيادة نبيين كان لهما أثر كبير فى تطور حياة الاسرائيليين العائدين فى أورشليم، وإعطائهم وضعا سياسيا وهيئة إدارية[٥] وهما نحميا وعزرا وكان نحميا صاحب اليد الطولى فى هذا الجانب بينما غذى عزرا حياتهم بمدد روحى واسع [٦]

---

(١) ص ٢/١١/١٣، وعشتاروت محولة من عشتار رفيقة الإلـه إيل ونقلت إلى اليونانيين باسم استارت Astarte واندمجت بأفروديت، وصارت أشهر إلهة الخصب، واقترنت ببعليم (انظر تاريخ سورية (١/٢٨) وكشفت الحفريات فى بيت شان عن آلهة تسمى عنات «سيدة السماء» ومنحت لقب العذراء . (٢) انظر سفر أشعياء ٤٤/٢٨، وعزرا
(٣) تاريخ سورية (١/٢٢٢) (٤) عزرا ٢/٥٩ السفر إحصاء العائدين من كل سبط
(٥) انظر Bright p 363 (٦) I Bid

الباب الرابع

أنبياء ذوو مكانة وآثار

نذكر فى هذا الباب بعضا من كبار الأنبياء وصغارهم، وبعضهم عاصر أيام النفى وبعضهم عاش بعده، ولكن لكل منهم أثر فى حياة قومه، وقد كان أنبياء بنى إسرائيل وحكماؤهم والمتعبدون منهم يذكرون دائما أن مايحل ببنى إسرائيل من كوارث ليس إلا عقوبة لهم على تفريطهم فى قوانين التوراة، وأن انحرافهم عن الشريعة الموسوية يسبب لهم الكوارث وينزل عليهم العقوبات.

وقد كان للنبى أشعياء موقف خاص ورأى فى سياسة الدولة وهو كما نرى فى ترجمته عاصر النفى وحذر من الوقوع تحت أيدى الأعداء وتعريض أنفسهم للعقوبة وقد بدأنا هنا بذكره ثم ذكرنا أنبياء آخرين كانوا يعملون بعد العودة من النفى على إعادة بناء الهيكل، ونخص من هؤلاء زكريا، وملاخى، وحجى. وكان كل منهم يصر على إقامة معبد جامع لتدريس التوراة وللعبادة، وكان عملهم يرمى فى المقام الأول إلى خلق حوافز نفسية لفعل الخير، ولايجاد حصانة تمنع من الانقياد إلى همزات الشياطين، وبهذا الوازع يستقيم الناس على قانون التوراة، وكان يصحب هؤلاء الأنبياء كهنة ولاويون مبشرون وكتبة ووعاظ.. وكانت دعوتهم حملة لإعادة البناء الأخلاقى بقدر ماكانت دعوة لبناء الهيكل أو إعادة الدولة.

أشـــعياء

هـو أشعيـاء بن آمـوص صـاحـب الـرؤيـا التي رآهـا على اليهـوديـة وأورشليم، وقد ولد فى أورشليم، وعاصر عزيا ويـوثام وآحاز وحزقيا ملوك اليهـودية، كـانت دولة يهوديـة بعد مـوت الملك عوزيـا الأكبر ـ وهـو أعقل وأحكم سكان فلسطين بعـد سليمان قد عـانت أزمات سيـاسية فى المدة من سنة ٧٣٥ ـ ٧٠١ ق م، وأصبحت وهى دولة صغيرة محصورة بين دولتين كبيرتين مصر وآشـور، وكلتـاهما تتأهب لغـزوهـا، ولابـد لها أن تنضم إلى احداهما لتأمن هجوم الأخرى عليها، وكـان الملك أحاز المتولى الدولة فى ذلك الوقت حـائرا فى أمره لم يهتد إلى قرار، وكان أبنـاء الشعب منقسمين، فريق ينـادى بـالانضمام إلى آشـور. وآخر ينـادى بـالانضمام إلى مصر، وكـان أشعياء قـد تلقى نبوتـه وأعلنها منـذ سنة ٧٣٩ ق م، ورأى واجبـا عليه أن ينقذ الشعب ممـا تورط فيه من المعاصـى وقابل أحاز وقدم لـه نصيحة أن يقيم على حيـاد وألا ينضم إلى أى من الـدولتين وأظهـر الملك له استجـابـة ولكنه أضمر غير ما أظهر.

كانت نبوءة أشعياء تقوم على أن الله سيعاقب أورشليم على آثامها ولكنه سيرد عنها عـدوان أعدائهـا. وكان أكثر مـا تخافه سطـوة الملك سنحاريب عليها وقد كان ملكا فظا غليظ القلب يعـاهد الدويلات الصغيرة من حوله ثم يغدر بها ولما تولى حزقيال عرش يهودية تودد إليه سنحاريب أولا، ثم طلب منه أن يقدم لـه جزية، وقبل حزقيـال تقديمها، وحذره أشعيـاء من قبولها؛ ولكن على الـرغم من قبـول الجزية زحف الجيـش الآشورى على يهوديـة، وبات أبناؤهـا فى رعب وفزع من هـجومه عليهم، وقبل أن يقتربـوا منها كان أشعيـاء يجهر بـدعـوته وهى تقـوم على جـانبين، نعيه على أبنـاء أورشليم انغماسـهم فى الآثام حتى صارت القـرية الأمينة زانية، وبعـد أن كانت مقرا لعـدل صـارت مأوى القـاتلين، رؤسـاؤها متمـردون وقضـاتها يحبـون الرشوة، والغش فيما لديها [1] ولذا فإن الله سيعاقبها ليطهرها، وليس ملك آشور إلا قضيبا من غضب الله لتأديبهم.

---

(١) أنظر أشعياء ص١ / ١١ ـ ومابعدها

والشق الثـانى من دعـوتـــه هـو أن الله سيحفظ أورشليم من الأعـداء، واقترب جيش سنحـاريب فقتل كثيرا من النـاس واستـولى على عـديـد من البـلاد، وبـات النـــاس فى ذعـر ولكن أشعيـاء كـان يشجعهم، فـوصف سنحاريب بـالجهل والحمق والغرور، وقال ان الله يضحك من كلامـه، لأنه ليس إلا فأسا فى يد الله، وإزاء كبريائه وتهديداتـه كان أشعياء يقول لقومه : ستكـون وحشية هـذا الباغى مثل السـلاح الذى يـرتد إلى صـدر حاملـه، سينكسر الفاس قبل أن يضرب مدينة الله ضربة واحدة.

كان أشعياء يذيع هذه الكلمات فى قومه، وسنحاريب يواصل زحفه نحو أورشليم وقد ضرب ونهب المدن التى حـولها، ولكن أشعياء ومن معه كـانوا يعتقدون أن أورشليم مدينة الله وهو الذى سيحميها.

وجاء فى سفر الملوك الثانى : ص ١٩.

فلما سمع الملك حزقيال ـ (وهو ابن أحاز) ذلك ـ تهديدات آشور ـ مزق ثيابـه وأرسل إلى أشعياء يطلـب صلاتـه ودعاءه، وهدأ أشعيـاء روع الملك ومن معه وقـال لهم : إن الله لن يدع مدينتـه لهؤلاء الأوباش وكان امـور قد غلا فى تهديـده وقال لحزقيال : إنك قـد سمعت مافعله ملـوك آشور بجميع الأراضى، فهل تنجو أنت ؟ هل أنقذت الهه الأمم هؤلاء الذين أهلكهم آبائى؟

وقال أشعيـاء : لايدخل هذه المدينـة ولايرمى هنـاك سهما.. فى الطريق الذى جاء فيه يرجع .

ولم يخف أشعيـاء ولم يـزعجـه استيـلاء الجيش الآشـورى على ست وأربعين مدينـة، ونقله مائتى ألف شخـص من الرجال والنســاء والصبيان أسرى إلى بلده ووصل الجيش الآشورى إلى أبـواب أورشليم مزهوا فخورا، وكتب إلى حزقيال : حبستك فى عاصمتك كما يحبس الطائر فى قفصه.

وارتاع النـاس وأرادوا الاستسلام لهذا الجبـار، ولكن أشعياء حـذرهم، وأخيرا حدثت المعجزة التى لم تفسر بعد، أصبح (١٨٥٠٠٠) مائة وخمسة وثمانون ألفا من الجند الآشورى جثثا هامدة.

قـال الكتاب المقـدس : إن ملاك الـرب ضربهم، وقـال المؤرخ اليونـانى هيرودوت ان قطيعا مـن الفيران سطا على أوتار أقـواسهم التى يـرمون بها

فقرضهـا ـ وربما كان ذلك طـاعونـا تفشى فى الجند لفساد البيئـة حولهم وللمجهود الذى أرهقـوا به [١] وهو على أى حال حادث شـاذ، ولكنه وجد فى آثار مصرية ونصوص بابلية.

ورجع الملك الآشـورى مهزومـا إلى عاصمتـه ، ولكن ولديـه أدراميليك Adra milick وشـراصر Såreger عدوا عليه فقتلاه، وهـربا فتولى الملك بعده آسر حدون [٢].

واستمر أشعيـاء فى عظاتـه ونصائحـه وحكمه وهى ثمينـة حقا، ولكن نهايته كانت سيئة جدا، فقد غضب عليه قومه فقسموه قسمين با لمنشار.

زكريا بن برخيا

أعلن نبـوته فى السنـة الثـانية من حكم داريـوس (دارا) الأول (٥٢٦ ـ ٤٨٦) وسفـره يبدأ بـدعـوة بنى إسرائيل أن يـرجعوا إلى الله كى يـرجع الله إليهم، وألا يسيروا سيرة آبائهم المنحرفة فقد أعرضوا عن ذكر الله، ثم يذكر عنايـة الله بزر بـابل الذى قـاد اليهود عـائدين إلى وطنهم فلسطين، وفى غير موضع منـه يحمل البشرى إلى أورشليـم، وان الله يـرضى عن اليهـود بها ويكونـون له شعبـا كما يحمل الوعيـد للأمم الأخـرى، فهو يجدد الـدعوة للجهاد، ويشجع الدولـة الجديدة الناشئة، ويبث الآمـال فى نفوس العائدين بتشجيعهم على عدم الاكترات بتهديد الأمم الأخرى. والنـزعة الغالبة فى هذا السفر هى الدعوة الأخلاقية، وهى تعكس انطباعا عن انحلال الشعب، وعن ادراك زكريا مدى أثر الأخلاق فى بناء الـدول وانهاضهـا، وتتكرر فيه الدعوة إلى حب الحق والعدل والرحمة، وقطع الأحقاد، ويندد بعصيان الآباء.

يذكر قول الله : «اقضوا قضـاء الحق واعملوا احسانا ورحمة.. لاتظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير ولايفكر أحد منكم شرا على أخيه [٣].. ليكلم كل انسـان قريبه بـالحق اقضوا بـالحق.. لايفكر أحـد فى السوء على قريبه فى قلوبكم، ولا تحبوا يمين الزور» [٤].

(١) أنظر ترجمة أشعياء فى كتاب عظماء قادة الأديان (٢) الملوك الثانى ١٩ / ٢٧
(٣) أنظر الاصحاح ٧ / ٩,٧ / ٩ ـ ١١.
(٤) ص ٧ / ١٠ ـ ١٢، وهو نص لما قيل لآبائهم فخالفوه .

والظاهـرة البادية فى تعـاليمه هى ربطـه بين الدين والحياة، وبيـانه أن العبادة التى لايتبعها سمو السلوك عبادة جـوفاء لافائدة منها، وقد كان له تأثير كبير على قومـه، وبفضل جهاده ظهـر الهيكل الجديد بعـد أن مر على تحطيمه نحو سبعين عاما، وكان يعاصره مساعدون له.

وزكريا بشر بالمسيح، وله ذكر فى القرآن الكريم.

حجىّ

من الأنبياء البارزين المعاصرين للعودة من السبى.

ويجدر بنا أن نشير إشارة عابرة إلى هذه الظروف.

كان آخـر أنبياء بنى إسرائيـل قبل النفى هو صفنيـا، وقدعـاش فى أيام يـوشيا ملك يهوذا صـاحب الاصلاح العظيم الـذى حدث سنـة ٦٢٢ ق م. وكانت البـلاد قد تعرضت لغـزو مدمر من السكتيين سنة ٦٢٦ ودعـا هذا الغزو صفنيـا أن يكتب سفـره، ثم جاء الغـزو البابلى الـذى استمر سبعين عامـا لم يظهر خلالها نبى، ولما أذن الملك الفارسى بعـودة إسرائيل عادوا فى دفعتين ، وكانت الدفعة الأولى سنـة ٥٣٨ ق م بقيادة زر بابل وهو من بيت داود، وكان ذا شخصيـة بارزة وعينـه دارا واليا [١] والدفعـة الثانيـة كانت سنة ٥٢٠ وكان فيهـا حجى، كانت بعد ثمانية عشر عامـا، فى أيام داريوس (دارا) الأول. وكـان معهم يهوشع الـذى عين كـاهنـا أعظم، وهـو ابن يهو صادق والـذى كان أيضـا كاهنـا أعظم [٢] وتكون مـن هؤلاء، ومن زكـريا ويهوذا ومجمـوعـة من الصالحين مجلس يهودى أعظم وفكـروا جميعـا فى إعادة الهيكل بيت الـرب، ولكن كان هنـاك أعداء لهم يعملـون على إعاقتهم، واستطاع هـؤلاء الأعداء أن يعـوقوهم عـن اتمام عملهم بعد أن شرعـوا فيه، وانصرف العائدون إلى بنـاء بيوت لهم، وانغمسـوا فى الملذات والترف، وهنـا ظهرت رسالة حجى تدعو إلى بناء الهيكل، وقـد أعلن نبوته مع زكريا فى عام واحد، وهـو السنة الثانية لـداريوس ويسبق حجى بإعلان نبوتـه بشهرين

(١) زر بابل تعنى المولود فى بابل، وهو قد ولد هناك.
(٢) يهوصادق = الرب يهوى خلاصى

اثنين، واستمر زكريـا بعده عامين، وكانت مـدة حجى أقل من أربعة شهور ولكنه فى خلال هـذه المدة القصيرة أصلح حال الشعب الفاسـدة، وفى حياته تم بناء الهيكل. ولهذا الموقف كـانت بذاءاته وتوبيخـه للشعب، وكان الناس يقولـون لم يحن الوقت بعد لبنـاء الهيكل، وهو يقـول لهم «هل الوقت لكم أنتم أن تسكنوا فى بيوتكم المغشـاة بالذهب [1]وهذا البيت خراب[2] اجعلوا قلبكم على طرقكم.[3] اصعدوا إلى الجبـل وأتوا بخشب وابنوا البيـت، يقول الـرب : انتظـرتم كثيرا وإذا هو قليل.. لأجـل بيتى الذى هـو خـراب. وأنتم راكضون كل إنسان فى بيته[4].

والسفر كله يتركز على هذه الدعوة.

أما ملاخى وهو آخر أنبياء العهـد القديم فكانت رسالته تحذير الشعب من أنواع المعاصى وكانت كثيرة فاشية فى عصره، وذكر أن إيليا سيغود قبل مجىء المسيح، ومات شابا[5].

عـــزرا ونحميـــا

لهذين النبيين الفضل الأكبر فى إعـادة دولة إسرائيليـة فى فلسطين. ففى عهد الامبراطـور أرتحشستا الأول (٤٦٥ ــ ٤٢٤) ق م .. وهــو الامبراطور Artexertes Longimanus عـادت بقيـادة هـذين النبيين مجمـوعتـان من الاسرائيليين المنفيين فى بـابل، ولـذا كـان لهما أثـر كبير فى تطـويـر حيـاة الإسرائيليين فى أورشليم، واعطائهم وضعا سياسيا وهيئة إدارية جديدة.

ويختلف المؤرخـون فى أيهما عاد أولا، فرأى بعض أن نحميا هـو الذى رجع أولا وأن عودة عـزرا كانت بعـده فى سنة ٣٩٨ ق م بدلا ممـا يقال انها كانت سنة ٤٥٨ ولكن جمهـور المؤرخين على أن عزرا هو الذى رجع أولا[6] وسفره فى العهد القديم مقدم على سفر نحميا.

وقـد منحه الامبراطـور تفـويضات واسعـة لإعـادة الحيـاة الدينيـة فى

(١) المسقوفة أو المطلية، وهذا يدل على ثرائهم فى هذا الوقت (٢) حجى ١ / ٤

(٣) حجى ١ / (٤) حجى ١ /

(٥) ملاخى = ملاكى (٦) تاريخ بسورية ١ / ٢٤٤، وأنظر برايت ٣٦٣

أورشليم، وقد عاد مع العائدين معه عدد من رجال الدين اللاويين والكهنة وهو نفسه من سلالة هارون، وكان كاتبا ماهرا في شريعة موسى [1] وصعد معه جمع منوع، وكان صعوده بهم في السنة السابعة من حكم ارتحشستا[2]. وجاء في رسالة الامبراطور له أن كل من أراد من الشعب الاسرائيلي في مملكته أن يرجع إلى أرضه فليرجع وقال : إنه مرسل لأجل أورشليم ويهوذا، وزود عزرا بالمال لكي يشتري ماشية يقربها على المذبح، ويتصرف في باقي المال حسب شريعة يهوه، وكان من سخائه أنه أمر خزنته الذين في عبر النهر أن يعطوا عزرا كل مايطلب[3].

أهم أعمال عزرا

كان ذا حماس بالغ في دعوة الشعب أن يعود إلى شريعة موسى كاملة، وهاله أن يجد عددا من الاسرائيليين قد تزوجوا من الأجنبيات، وبعض الأتقياء شكوا له هذا التصرف. وقالوا خُنّا إلهنا، فجمع الشعب في ساحة بيت الله، وأخذ يعظهم ويؤنبهم، قال : إنكم خنتم واتخذتم نساء غريبة لتزيدوا إسرائيل اثما على اثم، فاعترفوا الآن للرب.. وانفصلوا عن شعوب الأرض، وعن النساء الغريبة [4]، وأمر بتطليق النساء غير اليهوديات واعتبار أولادهن غير شرعيين. وكان لهذه الدعوة العنصرية الغالية صدى في نفوس الشعب، وهي صادفت هوى من أكثرهم لأنهم كانوا يعتقدون أن السبي الذي نالهم، وهزائم الحرب التي حلت ليست إلا عقوبة لهم لخروجهم على قانون التوراة وطوعا لأوامر عزرا اعتبر أولاد الأجانب غير شرعيين، وكانوا يضرعون إلى الله ويتوبون، وأقاموا عهداً أمام عزرا ألا يفعلوا شيئا من هذه الآثام.

والواقع أن الشعب الاسرائيلي لم يكن نقيا لا في أورشليم ولا في منفاه، فإن الاسرائيليين الباقين، وبعض الذين تسللوا قد تزوجوا من الأجنبيات، وكان الذين جلبوا من سقي الفرات ليعيشوا في فلسطين سدا للفراغ الذي

---

(١) عزرا ص ٧/٥ — (٢) عزرا / ٧

(٣) نفسه / ٢١ — (٤) نفسه ١٠/١١

أحــدثه السبى قــد اختلطــوا أيضـا بــالاسرائيليين البــاقين، فتزوجــوا منهم وزوجــوهم، وبذا أصبح هنــاك شعب مهيمن واسع العــدد. وهؤلاء جميعــا عبدوا الهه الأمم الأخرى، وظلوا مع عبادتها يـدينون بيهوه ويعتبرونه الاله الأعلى، وهذا ماجهد عزرا فى إزالته.

ولنلاحظ مع هــذا أن النبى إرميا قد نصــح هناك بالــزواج من الأجانب وكتب من أورشليم إلى الاسرائيليين المنفيين فى بــابل أن يتوطنــوا هناك، وأن يبنــوا البيوت ويغــرســوا الجنات ويتــزوجــوا من البابليين ويختلطــوا بهم ويتكاثروا. وفى رسالة يقــول : هكذا قال رب الجنود اله إسرائيل لكل السبى الذى سبيته من أورشليم إلى بابل : ابنوا بيــوتا واسكنوا.. خذوا نســاء ولدوا بنين وبنات، وخذوا لنبيكم نساء واعطوا بنــاتكم لرجال (منهم) فيلدن بنين وبنات.[1] واستجاب القوم لدعوة إرميا إذ أسندها إلى الله ـ وبهذا نرى كيف كانت دعوة عزرا شاقة، ولكن الدولة على يديه تهيأت للاصلاح.

أعمــال نحميــا

عاد نحميا من بابل بعد اثنتى عشرة سنــة من عودة عزرا، وكان وهو فى منفاه قــد بلغ ما فيه الاسرائيليــون من سوء فى فلسطين[2] فبكى وضرع إلى الله، وكــان على صلة بــا الملك الفارسى لأنــه كان ســاقيه، فأذن لــه بالعــودة وزوده بمال وماشيــة، فرجع ومعه مجمــوعة أخرى بها زاد نشاط الــدعاة، وكان هــو الحاكم المفوض فى فلسطين. كان شابــا فى الحادية والعشرين من عمره، ويقال انه كان خصيا لدخوله قصر الملك ومخالطة النســاء، كان هدفه مع إقامة الشريعــة إقامة الأسوار التى تهدمت حــول أورشليم، ومع ماكان معه من توصيــات كسرى، لاقى معارضــات فى بناء الســور من اليهود ومن الجيران، ولكنه بناه، غينه ارتحشستا حــاكما على اليهودية ومنحه استقلالا ذاتيا، لكن حماسه الدينى دفعه إلى مشاركــة عزرا فى دعوته الدينية، وتشدد مثلــه فى تحريم زواج الأجانب، وزاد أن عــاقب عليه بــالجلد ونتف الشعــر، ولكنه لم يطلب طلاق الأجنبيات كعــزرا، واكتفى بأخذ الايمان على ترك هذا الزواج[3].

---

(١) إرميا ص ٢٩ / ٤ـ٧، (٢) أنظر عزرا ص ٧

(٣) نفسه / ٢١، وأنظر ص ١٠ / ١١

وصل أورشليم سنــة ٤٤٤ ق م في اليوم الأول من العـام العبري، وكان القوم مجتمعين لهذه المناسبـة في فناء المعبد، فوقف عـزرا ـ بمحضر نحميا يقـرأ عليهم نصوص التــوراة ـــ أسفار مـوسى ـــ بينما وقف على جانبيـه مفسرون من رجـال الدين يشرحـون للناس معـاني النصوص التي تقـرأ، وعقب القراءة وقف نحميا ومعه ممثلـو الأسباط، وقد أخذوا على الحاضرين عهدا أن يكـونوا مطيعين لتعـاليم التـوراه وأن يحافظوا على الـدم اليهودي بعدم التزوج من الأجنبيات، وألا يشتغلوا بأعمال دنيوية في يوم السبت.

ونجحت حكومـة نحميا الدينية، ولكـن لم يكن عمرها طويـلا، استمرت من سنة ٤٤٤ حتى سنـة ٤٣٢ ق م أي نحو اثنى عشر عاما. ولكنهـا تركت آثارا.

آثـار هـــذه الحـــركة

تعكس هـذه الحركـة قبل أي شيء صورة التعصـب اليهودي، ومـدى اصرار الزعماء منهم على تمييـز عنصرهم ونقاء دمهم رغم كل الاختــلاطات بـالأجانب، حتى أنبيـاؤهـم يدعـون الله بشد أزر دولتهم فقط، بل يـدعونـه أيضـا أن يحطم الأمم الأخرى، وهـذا من أشنع أنـواع التعصب العنصري، وهي أيضـا تعكس أثـر الـدين في حيـاتهم. وتبين أن أعمالهم السيـاسيـة والاجتماعية ترتكز دائما على أسس الـدين وتعاليم الكتب المقدسة، وتعكس أخيرا مقدرة اليهود على التدخل في شئـون الدول التي يكونون بها. فحيلهم كما رأينا واسعة مكنتهم من الالتصاق بالملوك وأخذ المكافآت منهم.

وفي حال الـدولة المتجـددة أتت حركـة هذيـن النبيين إلى نشاط الـدعوة الدينية وشيـوعها وقوة روح الدين، وقـراءة التوراه هذه هي تنفيـذ لوصية مـوسى ـ على السـلام ـــ لأنه عنـدما كتبهـا سلمهـا للكهنة من بني لـوي ولجميع الاسرائيليين، وأمـر في نهايـة السنين السبع أن تقـرأ أمـام الشعب الاسرائيلي رجـالا ونسـاء، وأطفـالا وغربـاء..[1] ولكن القـراءة المصحوبـة بـالتفسير كانت تقليـدا حديثـا، ولعله لطـول العهد والاختـلاط بالآخـرين خفيت بعض المقاصد.

(١) أنظر سفر التنبيه ٣١/٩ ـ ١٣

كان عـزرا ذا رغبة وحماس أن يعرف الشعب كله تعـاليم التوراه، ورأى أن تصحب بالتفسير والشرح كـى تفهم جيدًا ويسهل اتبـاعها، وبهذا الفهم أيضا يتنـاقلها الشعب، ولايكـون شرحها وقفا على رجـال الدين أو طـائفة خاصـة منهم والجديد حقا هـو أن الشراح توسعـوا فى شرح النصوص، فلم يجعلوهـا ضيقة جـافة، بل اكسبـوها مرونـة وجعلوهـا ملائمـة لظروف حياتهم(١).

ونجحت هـذه الطريقـة ، فأصبحت قـراءة التوراة ودراستهـا شائعـة، وبفهمها واتساعها لحياتهم صـارت هى المرجع فى مشاكل الشعب وأزماته، ولم يعد الكهنة هم المرجع فى كل شىء، ونتيجـة أخرى أهم أنها حالت دون هـجوم الـوثنية على الشعب الاسرائيلى الموحـد، أو على أقل تقديـر حدت من هـجـوم عبـادات بعل وعشتروت وغيرهما مـن الهه الجيران، وبـذا صـارت حكومـة هذا العهـد كحكومـة زربابل حكومـة دينية بحتـة دستورهـا هو التوراة وشروجها.

من هذا كله نجد الـديانة اليهودية مدينة للامبراطـورية الفارسية، لأنها منحتها حـرية النشاط الدينى وشجعتهـا على إقامة دعوتها ومـدتها بالمال والحمايـة الحكوميـة، وبذا نشطت الـدعـوة واستفاقت اليقظـة اليهوديـة، فامتـدت من أورشليم إلى الجاليات اليهوديـة فى الجهات الأخرى العـديدة، فقامت بين اليهود فى أنحاء الامبراطورية الواسعـة وحدة عامة شاملة ، بكل ماتحمل من عنصرية اليهود وتعصبهم، وظلت بعد ذلك إلى اليوم.

. لهذا بالغ اليهود فى اكبـار عزرا حتى قال بعض منهم إنـه ابن الله ـ وهو يسمى باسم «عزير» أيضا وجاء فى القرآن الكريم : «وقالت اليهود عزير بن الله»(٢).

(١) See yudismp 68

(٢) سورة التوبة.

الباب الخامس

إسرائيل فى العهد المقدونى

ومن عهد عزرا وأعماله نشطت فرقة الكتبة، وكانوا من قبل أفرادا، وكانت بدايتهم كجماعة هى قيامهم بالتفسير والشرح فى الاجتماعات الكبيرة التى كان يقيمها هذا النبى، وهم الذين عمموا دراستها فى المعابد ودور التعليم والمجتمعات، وبفضل ما أدخلوا على نصوص التوراة من التعميم والمرونة زاد الاقبال عليها [1] ولم يبعد الكتبة فى مرونتهم عن النصوص المقدسة، ولكنهم أدخلوا أناشيد وأدعية، وحددوا أوقاتا للعبادة لم تكن من قبل، وكثير مما عملوه لايزال مراعيا إلى الآن لدى اليهود، وبعبارة أخرى وضع هؤلاء الكتبة توراة شفوية، بجانب التوراة الموروثة عن موسى، وكان لها قداسة كقداسة التوراة الأولى .

فى سنة ٣٣٣ق.م التقى جيش الاسكندر الأكبر وجيش دارا الثالث (٣٣٦ ـــ ٣٣٠) قرب كيلكيا، وكان جيش الفرس كثير العدد ولكنه باء بهزيمة منكرة لم ينج منها دارا إلا بصعوبة، وفر نحو الشرق، ولم يشأ الاسكندر أن يتقفاه. فانحدر على شاطىء البحر المتوسط، ولم تقابله مقاومة تذكر إلا من مدينة صور، وخضعت له أخيرا [2] ، ثم قاومت غزة التى كانت زعيمة

---

(١) نفسه

(٢) أرسل دارا للاسكندر يطلب صلحا يعطى به الاسكندر جميع البلاد التى فى غرب الفرات، وقدرا كبيرا من الأموال ويزوجه ابنته، وقبل قائد الاسكندر بارمينيو هذا العرض، وقال لسيده : «لوكنت مكانك ما ترددت فى قبوله، فقال الاسكندر : «ولوكنت أنا بارمينيو لقبلت» .

المدن الفلسطينية الخمس فى غـرب أورشليم (١) . وبهذا دخلت إسرائيل الجديدة تحت حكم الاسكندر خصم الفرس، وبعد أن مد فتوحاته غربا واستولى على مصر عاد فاتجه ثانيا إلى الشرق حتى وصل حدود البنجاب سنة ٣٢٦ ثم توقف وعاد إلى كابل، ومات بها سنة ٣٢٦ ق.م فى الثالثة والثلاثين من عمره .

كان يصحب الاسكندر فى فتوحاته أستاذه أرسطو، وكان يلقى محاضراته حيثما نزل، وترك الاسكندر عددا من المدن تحمل اسمه منها الاسكندرونة والاسكندرية، وترك عددا من المدارس التى ألقى فيها المعلم الأول محاضراته، وقام بها معلمون وتلاميذ من بعده، وكان الاسكندر يرى أن الثقافة الهللينية هى المحور الذي يجب أن تقوم عليه وحدة العالم، لأنها فى رأيه أرقى الثقافات، وكان له مبادىء خاصة أهمها الوحدة الانسانية، وكان يرى أن الناس مهما اختلفت مللهم ونحلهم يعبدون الها واحدا، ولهذا فهم جميعا أخوة، ولهذا كان يجارى البلاد التى يدخلها فى دياناتها، وفى مصر زار معابدها، واحترم كهنتها، ولم يكن يعنيه من شأن أى جماعة دينية إلا الأخذ بالفكر الهلينى (٢) . وله فضل كبير فى مزج الدم الغربى بالدم الشرقى، والفكر بالفكر ، وتزوج ثلاثا من نساء الشرق منهن اثنتان من الأسرة المالكة الفارسية، وتزوج المحاربون معه من الشرقيات. وكانت هذه كلها عوامل مزج، وكان مع قوته الحربية الفائقة يعتمد على روابط الدم والمصاهرة، واستجابت الدول الوثنية للثقافة اليونانية بسهولة، لأنها أيضا فلسفة وثنية، وقد وجدوا فيها شيئا أنضج وأدق للقبول من فلسفتهم، ولكن اليهود لم يرضوها لأن ديانتهم تقوم على التوحيد، ورأوا أن الأفكار التى أذاعها أرسطو ركام لايستحق أن يدرس، ولم يعد هذا الرفض عليهم بضرر لأن الاسكندر يرى أن الديانات كلها عبادات لإله واحد، وهو لم يقهر أحدا على الفكر الهلينى، فبقى اليهود

(١) قاومت غزة مقاومة جرح فيها الاسكندر، ثم سقطت بعد حصار امتد نحو شهرين، وكان بها مخازن ضخمة من التوابل، وانتقم الاسكندر لنفسه فمثل بقائدها، وباع سكانها عبيدا .

(٢) الكلمة من Hellas وهى تعنى الاغريقية Egraees

وحدهم طائفة متميزة لها دينها وفلسفتها التى تعتمد على التوراة، ولم يمنع هذا المستنيرين منهم أن يدرسوا الفلسفة اليونانية ويستفيدوا منها، ولكنهم لم يتأثروا بها فى دينهم، وظلوا من غير تدخل خارجي يتبعون منهجهم فى السياسة والدين، وينمون مدارسهم فى أورشليم وخارجها .

اليهود بعد الاسكندر

تقسم قواد الاسكندر مدارسه الواسعة بعد موته، وتم لهم ذلك بعد نضال طويل فيما بينهم، وكان أبرز هؤلاء القواد وأقواهم هو سلوقس الذى استولى على الجانب الشرقى من آسيا المقدونية، وجعل عاصمته أول الأمر فى كابل، وكان بطليموس أذكى هؤلاء وأكثرهم تأثرا بسياسة الاسكندر . وكانت مصر من نصيبه .

حكم سلوقس بين سنتي ٣١٢ ـــ ٢٨٠ ق.م ، وكان ذا طموح سياسى ونشاط فى نشر الثقافة الهلينية، انفعالا بالاسكندر، وكان القائد الثالث انتيخونس قد استولى على آسيا الصغرى وعلى شاطىء البحر حتى غزة، وبهذا كانت فلسطين فى حوزته، وفى سنة ٣١٢ ق.م طمح بطليموس فى مد حدوده شمالا، وأراد الاستيلاء على غزة، فساعده سلوقس فأدخلها فى حدود مصر وظلت كذلك نحو قرن من الزمان، وكان هذا العام عام انتصارات لسلوقس أيضا، وفيه جعلت أنطاكية عاصمة الحكومة السورية، واتخذت هذه السنة ٣١٢ ق.م بدء التاريخ السلوقى، الذى سمى فيما بعد بالتاريخ اليونانى .

أصبح اليهود تحت حكم مصر وهاجر كثيرون منهم إليها .

صارت الدولة السلوقية بفضل مؤسسها أعظم الدول الثلاث، ولشغف سلوقس بمنهج سيده الاسكندر وحبه لنشر الثقافة اليونانية، بنى نحو أربع عشرة مدينة جعلها مراكز لنشر هذه الثقافة .

وأشهر خلفائه هو أنطو خيوس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧) ويسمى أنطو خيوس الكبير، وكان يريد أن يضم مصر إلى مملكته فاشتبك مع البطالسة فى مناورات، ولكن روما تدخلت فحالت بينه وبين ما يريد ولما جاء خلفه انطو خيوس الرابع (١٧٥ ـــ ١٦٤) هزم الجيش المصرى سنة ١٦٩،

واستولى على مصر السفلى عدا مدينة الاسكندرية، وتدخلت روما ثانيا فأجبرته على الجلاء عن مصر .

في ضوء هذه الخطوط التاريخية نستطيع أن نتبين موقف اليهود أمام تيارات الحكم والثقافة، والملاحظ مما سبق أن اليهود لم يصطدموا باليونان فيما عدا مواجهتهم تيارات الفلسفة اليونانية واللغة اليونانية .

مع البطالمة

كان عهد البطالمة في مصر عهد ديمقراطية وعلم، وجامعتهم ومكتبتهم في الاسكندرية مع الأكاديميات التي لها أثر في دفع التاريخ الحضاري ونمو الثقافة في هذا الوقت، ولم يكونوا مثل سلوقس شغوفين بنشر الثقافة الهلينية بين رعاياهم، ولذلك حين امتد سلطانهم إلى أرض فلسطين لم يتعرضوا لليهود، ولم يصادف اليهود معهم أي معاناة، وكان بمصر جالية يهودية من المهاجرين السابقين، ومن الذين عملوا مرتزقة في الجيش، ومن الذين جذبهم رخاء مصر وحسن معاملة حكامها، وعلى عادة اليهود كان لهم مجتمعاتهم واستقلالهم العنصري، وكان له معابدهم ورجال الدين المرشدون لهم، وكانوا يستعملون اللغة العبرية في متعبداتهم ولكن تيار الثقافة الهلينية واللغة اليونانية كان جارفا، ومال المثقفون إليه تلقائيا لما فيه من غذاء فكري وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية للحكومة، ومن قبل الاسكندر كان في الاسكندرية جماعة من تجار اليونان، وشذرات من الفكر اليوناني مما سهل نمو اللغة ونشاط الثقافة . وكانت مركز اليهودية وبها عدد أكبر من اليهود، فشعروا إزاء هذا التطور أنه من المحتم أن تنقل التوراة إلى اللغة اليونانية، فهي إذ ذاك أسهل على اليهود من لغتهم العبرية، فضلا عن أنه كان هناك يهود لايعرفون العبرية، فعقد لهذا الغرض أول مجمع علمي لترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية، واجتمع له في سنة ٢٧٠ ق.م تقريبا، اثنان وسبعون عالما، سميت ترجمتهم بعد بالترجمة السبعينية ، نقلوا أولا أسفار موسى الخمسة، ثم نقلوا بعد ذلك بقية الأسفار الأخرى، وسنتحدث بعد عن هذه الترجمة، وهي أول وأقدم ترجمة للتوراة من اللغة العبرية، وقد استفاد منها اليهود الذين يتكلمون اليونانية، ونقلت فلسفة

اليهود ودينهم إلى أمم أخرى، وهذه الترجمة من أعظم مآثر البطالمة على اليهود، فهم بدلا من أن يتغذوا بفكر اليونانيين وثقافتهم غذوهم هم بدين اليهود وفلسفتهم .

وحول سنة ٢٧٥ ق.م تقريبا تقلص ملك البطالسة وجلوا عن فلسطين ليستولى عليها السلوقيون، إذ كان المد السلوقى قد انتهى إليها، وهى لم تكن متمعة باستقرار تام طوال القرن الذى تلا غزو الاسكندر، بل كانت مراراً للجيوش المتقاتلة تقع مرة تحت يد هذا وأخرى تحت يد الآخر، وحيث كان السلوقيون معنيين بنشر الثقافة الهلينية، فتر النشاط اليهودى، وكانت الاضطرابات عاملا قويا من قبل، وفى ظل هذه الظروف اختفت طائفة الكتبة نهائيا، وفى اشتباكات البطالسة والسلوقيين كان انطو خيوس الثالث أول حاكم سورى يحكم اليهودية، وقد ظفر اليهود فى عهده بكثير من التسامح والحرية ونالهم كثير من الرخاء كما كانوا تحت حكم البطالمة، وأكثر من هذا أنه منحهم استقلالا ذاتيا، وفى ظل هذه الظروف حاولوا أن يستعيدوا النشاط الدينى الذى كان الكتبة يقومون به، فكونوا لهم مجلسا يشرف على شئونهم السياسية والدينية والاجتماعية، وكان أهم الأعمال الموكولة لهذا المجلس أن يقوم بتفسير التوراة لتكون قانونا عاما تقوم عليه حياتهم. وأن يجعلها مادة دراسة للشعب، وكان فى الواقع يمثل حكومة جديدة .

وأهم ما جاء به هذا المجلس أنه فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية أو بعبارة أخرى أعاد ما نادى به إيليا من قبل، وكان يشرف على هذه الحكومة شخصان من المعلمين، أولهما يدعى الأمير Nasi ويختص بالشئون المدنية والسياسية، وثانيهما كاهن أو كاهن أعلى يسمى رئيس المجلس (Ab beth din) وسمى هذا المجلس فيما بعد باسم السنهدريين Zanhedrin وكان الكاهن هو الذى ينظر فى الشئون الدينية ـــ ولكل من الرئيسين مجلسه ومستشاروه، ولم تكن الصلة بينهما منقطعة [1] وإذن فقد تمتعت اليهودية بما تمتعت به فى العهد الفارس من حرية .

(١) Epistine 82 ـ وراجع برايت Bright

منحـــة جـــديـدة

كان على اليهود فى هذا الوقت أن يواجهوا خطـرا جديدا من نوع آخر وهو هجم الهلينيـة عليهم، وهى وثنيـة أخطـر من الـوثنيات التى واجهـوهـا فى الأزمنة القديمة، فهى لغة وفكرة ودين يسندها سلطان حكومى .

ولم تكن هـذه الهلينيـة الـوافـدة هـى التى وفـدت فى ركـاب الاسكنـدر المقـدونى هلينيـة الفلاسفـة الكبـار، فيثـاغـوراس وسقراط وأفـلاطـون وأرسطو[1] ولكنها كـانت هلينية مشوهة اختلطت بأفكـار شتى من الفرس والهنود والبابليين، وكان تفكيرها الفلسفى قد انحـط، وتلوث بنزعات مادية وأخلاق وضيعـة، ولهذا التغير سميت بالهلستنيـة ، تمييزا لها عـن الهلينية الأصلية، وهى منســوبة لها ومعتبرة شيئا منهـا، وكانت الهلستنيـة ـ ربما بما فيها من الاباحيات ـــ جذابة للشبـاب مغريـة باتباعهـا، فانـدفع إليها الكثيرون من اليهود وارتمى النشء فى أحضانها، وكان لذلك أثر سيىء على التوراة، فأهملت تعـاليمها، وارتد بعض اليهود عن يهوديتهم، وبـاتحطاط الأخلاق فقدت المقدسـات مكانتها فى نفوس الناس، فشاعت الأيمان الفاجرة وفشت الدعارة، واستشرى الفسـاد بين سكان المدن بطريقة قبيحة جدا، أما سكـان الـريف فظلوا على شـىء مـن المحافظـة وإن لم يكن مجتمعهم تـام البراءة والنقاء.

وبينما كـان رجال الـدين اليهـودى يتهيأون لعـلاج هذه الحال السيئـة، ويفكرون فى الطـرق التى يوقفون بها أخطارهـا، طرأ طارىء جـديد شغل أذهـان الناس، ذلك أن الملك السلـوقى أنتيـوخس الرابع (ابيفـانس ١٧٥ ـ ١٦٤) قـد هجم على مصر، ونشبت الحرب بينـه وبين البطالمة، وكـان هـذا الملك متعصبـا للهلينية ويـود شيوعهـا، فقام جماعـة من اليهود المرتـدين وعشـاق هذه الثقـافة يفـرضـونها على المملكة اليهـودية ويجبرون النـاس عليها، وكـان الموقف يشجع على ذلك، لأن الدولـة اليهوديـة الصغيرة كانت مـذبذبـة بين الجانبين لمدة طـويلة، ورأى المجلس اليهـودى أن من الأسلم للدولة أن تنضم إلى الجانب الأسيوى، وهذه تجربة سبقت غير مرة، ولكنها

---

(١) Ibid

بانقطاعها عن مصر مهدت طريقا أفسح للثقافة الهلستينية، ثقافة الجانب الذى انضمت إليه الدولة .

وكان أنتيوخس [1] غالبا فى منهجه ، صمم أولا على فرض ثقافته وحمل الناس على الأخذ بها، ورأى أنه لايصطدم بأحد من رعاياه إلا باليهود، ولابدين غير الديانة اليهودية، فعمل بكل جهده وقواه الحكومية على استئصال هذه الديانة من بلاده نهائيا، حرم شعائرها وخصوصا الشعائر التى تميز اليهود كالختان وعبادة يوم السبت، والأعياد اليهودية كعيد الخلاص Passoven وقراءة التوراة...، وهكذا أنشأ طريقة منظمة لإفناء الديانة اليهودية والقضاء على تراثها، وجعل عقوبة من يخالفه هى الإعدام حتى على مجرد قراءة التوراة، وجمعت نسخ التوراة ثم أعدمت، وأما الهيكل فحول إلى معبد لزيوس Zeus كبير آلهة اليونان، ومبالغة فى إغاظة اليهود وطمس شعائرهم كانت الخنازير تذبح على مذبح الهيكل، وزاول الفواجر والدعارة فيه، وكان خاليا من كنوزه لأن انتيوخس حين عودته من مصر نهب كل ما كان فيه، ثم أقام فى القرى والمدن الأخرى معابد وثنية وأمر بمزاولة طقوسها .

لم يبق لليهود إلا أن يحفظوا التوراة فى صدورهم أو يخفوا بعض النسخ.

وكان هناك ما هو أقسى على اليهود وأحزن لقلوبهم، وهو خيانة بعض الكهان وكبار القسس، فقد أراد هؤلاء أن يتقربوا إلى الحاكم فاعتنقوا الهلستينية. وأيدوا سياسة الملك، ولم يعارضوا فى أن يلقبوا انتيوخيين (انطاكيين)، وانضم إلى هؤلاء أثرياء وأصحاب ممتلكات حرصوا على ممتلكاتهم وثرواتهم، ورأوا أن يستفيدوا أكثر من الحاكم، وبقيت قلة محافظة، وهؤلاء صب عليهم العذاب صبا، فمنهم من استطاع الفرار، ومنهم من مات شهيدا، وهكذا عاش اليهود خلال القرن الثانى ق.م ، زمنا رهيبا، وذاقوا أمرَّ ألوان العذاب .

وكان أنتيوخس ـ غرورا منه وتأثرا بالثقافة اليونانية ـ أعلن نفسه إلها، وقال إنه هو الإله الظاهر، الذى يمثل الاله الذى لايرى.. وهى فكرة ظهرت

---

(١) Antiochus

فى مناسبـات عديدة وصـور مختلفة، وأقبل الرعـايا السوريـون على عبادة الملك، واعتبر معادلا للاله اليونانى «زفس».. وربما قرب هذه العبادة لديهم مـا ألفـوه من عبادة بعـل، وكان من الطبيعـى أن يعرض اليهـود عن هـذه العبادة لأنهم يدينون بالتوحيد، ويذكرون فضل يهوه عليهم .

كـانت هناك ظـواهر أطمعت السـوريين فى استجابـة اليهود، ولكن هـذا المطمع لم يتحقق .

كـانت حيـاة اليهود قـد نـالها كثير من التطور والمرونـة وتبنت عـادات يونـانية كثيرة، واستعملـوا اللغة اليـونانيـة.. كل هذا أطمع فى استجـابتهم ولكنهم لم يستجيبـوا، على أن انتيـوخس لم يمنع عبـادة يهوه مع تحريمـه اليهـودية، بل اعتبره واحـدا من الآلهة، أو إلها معـادلا لزفس، وكـان زفس يحمل كثيرا من صفات بعل .

غيظ اليهود لهذه المعاملة فاختمـرت فى نفوسهم فكرة الثـورة ضد الملك، وواضح أن الفكرة جاءت مـن المحافظين ذوى التقوى والاصرار على دينهم، وقد قـاموا فعلا بثـورة تعرف باسم ثـورة المكابيين، بدأت دعـوة سرية ثم انفجرت عاتية مدمرة .

ثـــورة المكـابيين

وضـع بذور هـذه الثورة قسيس مسن كـان يدعى ماتـاثياس Mattathias ينتمى إلى أسرة النهاسمـونيين كـان يقيم فى قـرية قـريبـة من بيت المقـدس (أورشليم) فأصـدر منشورا سريـا ونداء مـوجزاً يقـول فيه : «من كـان ذا غيرة على التوراة فليتبعنى» ولمكـانته الدينية ولأن نـداءه اقترن بالغيرة على التـوراة استجـاب لـه الكثيرون غيرة على دينهم، وانضـم لـــه جماعـة من المحافظين عرفوا باسم الاتقياء، (فى العبرية الحاسديم Hasidim . وهو اللقب الذى عرفوا به)، فزادوا عـدد المنضمين إلى الفكزة، ورأى ماتاثياس أن يضـم إليه آخرين ممـن ليس لهم حماس دينى، فقرن دعوته بمبـدأ آخر سياسـى، وهو الدعوة لتحرير الوطن من الغـاصبين، وأدمج المبدأين فقال إنه لاقيامة للدين إلا فى ظل الحرية، وأن اليهود لايظفـرون بحريتهم إلا بالسلاح، ولابد أن يكـونوا هـم حكام أنفسهم، وسرعـان مـا استجاب لـه الآلاف، وتكـونت

عصابات أغارت على المرتدين وهدمت معابد الوثنيين، ونادى بإعادة الشعائر اليهودية والاحتفاء بيوم السبت، وإقامة الحفلات الدينية عامة، وكانت الثورة تزداد يوما بعد يوم والدعوة السرية تسرى فى خفاء لتهيج الثائرين، فقامت الثورة فى كل جانب ولم يهمل السوريون واجب الحكومة الدفاعى، فقامت الجنود لإطفاء الثورة بالعنف، ولكن حدث أن هجموا على الثائرين وهم فى عبادتهم يوم السبت، واستسلم حراس المعبد لأن إراقة الدم محرمة فى يوم السبت فقتلهم أعداؤهم وهم جامدون فى مكانهم كالتماثيل لا حراك لهم. ولكن إزاء هذا الموقف الغبى أصدر ماتاثياس قرارا أومرسوما دينيا بأن الضرورة تبيح لليهود أن يدافعوا عن أنفسهم يوم السبت، وصار هذا القرار مبدأ دينيا عند اليهود .

وأثارت المجزرة العنيفة مشاعر الآخرين فاندلعت الثورة فى أماكن شتى.

ومات ماتاثياس، فانتقلت القيادة إلى بنيه وكانوا خمسة، وكان أكبرهم يهوذا، فقلد رتبة الكاهن الأعظم بعد أبيه، وكان داهية حصيفا، فلم ير أن يقوم بحرب منظمة، بل اعتمد على حرب العصابات والمباغتات السرية، ونجحت فكرته، واستطاع أن يستولى على بيت المقدس، فطهره من الوثنيات فى ٢٥ ديسمبر ١٦٥ق.م وأقيم به حفل عظيم استمر ثمانية أيام. وبقى هذا اليوم مقدسا عند اليهود، فهم يقيمون حفلات لهذه الذكرى ويسمون اليوم عيد الهنوكة «Chanukah» بمعنى التكريس أو التخصص لشىء، وهو عيد مرموق إلى اليوم .

ويهوذا هذا هو الذى سُمى المكابى، وسُمى أخوته والعهد كله بعد ذلك باسم المكابيين والكلمة مأخوذة من كلمة «مقبة» العبرية، وهى بمعنى المطرقة، والمكابى الضارب بالمطرقة The Hammerer لأنه كان دائم الهجوم والضرب للآسيويين (١) .

وعقب استرجاع بيت المقدس مات أنتيوخس، وظلت الحرب سجالا بين الطرفين، وفى سنة ١٦٣ق.م أعلن السلام بينهما، ولكنها كانت هدنة على دخن، وظفر اليهود بحرية كاملة ليعيشوا وفق تعاليم التوراة، ولكن من

(١) انظر Judaisim تأليف Epsteim، وقارن حتى تاريخ سورية ١/ ٢٦٨ .

الناحيـة السياسية لم تكون «يهوديـة» ممتعة بأى حرية، وظلت خـاضعة لحكم السوريين، وظل نضـال المكابيين لمدة عشرين عاما أخـرى لأجل هذه الحرية السياسيـة، وتولى قيادة هذا النضال إخوة يهوذا واحـدا بعد الآخر، وفى سنـة ١٤٣ق.م استطـاع سيمـون آخـر الإخـوة المكـابيين أن يظفـر بـاستقلال تـام، أو على حـد تعبيرهم طرح النير السـورى عن أعنـاق بنى اسرائيل، وأصبحت يهودية مستقلـة، وانتخب المجلس سيمون كـاهنا أعلى وحاكما مدنيا وأعطى لقب الأمير Nasi ، للدولة اليهودية الجديدة .

وتفاصيل هذا الكفاح موضحة فى سفـر المكابيين، من أسفار «لابوكريفا» التى لم تنل إجماعا على اعتبـارها أجـزاء من الكتاب المقدس، وقـد استمرت المملكـة المكابيـة منذ قيـامها نحـو خمسة وستين عـاما ، من سنـة ١٦٨ ـ ١٠٥ق.م .

وظلت يهودية قائمة حتى جاء الرومـان، وعندما حكم أنطونيو الشرق من الحكومة الثـلاثية الثالثة (٤٠ ـــ ٣٦)ق.م أعفى عن الأسرة المكابية ووضع مكانها أسرة هيرود .

ومن الأحـداث الهامة فى العهـد المكـابى اصطدام حكـامـه بدءا من عهـد سيمون مع الفرق الـدينية، خصوصا جماعة القـراء العباد، وبعض الفرق المنبثقة عنهم، فخـلال هذا النضال المزيـر لحصول الدولـة على استقلالها انسحبت هـذه الجماعة نهائيـا. ذلك أنهم كـانوا يـرعـون مذهبهم الـدينى المسالم، ويرغبون عن إراقة الدماء، وكانت لهم نظرة سياسية تخالف نظرة الآخـرين، فهم يـرون أن الدولـة اليهـودية الصغيرة النـاشئـة لاتستطيع الصمود أمام أى من الدولتين الكبيرتين سوريا السلوقية فى مصر البطلمية، ومع هذا كانت روما قد ظهرت فى أفق السيـاسـة دولة فتية تتطلع للاستيلاء على أرض فى الشرق، فآثروا لذلك الانفصال عن الحركـة المكابية نهائيا، وقد رأى سيمون مـن قبله أن يحمى دولتـه من الدولتين الكبيرتين على جـانبيه فعقد معـاهدة مع رومـا، ورحبت روما بهذه المعـاهدة إذ وجـدت فيها فتح طريق لها فى الشرق .

وكـان عهـد سيمـون عهـد رخـاء ، وتلاه ابنـه يوحنـا هير كانـوس

Yohn Hyrcaus (١٣٥ ـ ١٠٤) ق.م وكــان ذا طموح أدنــى إلى الغرور وأراد أن يـوسع مملكتــه حتى تستعيــد مملكــة داود، فعبأ جــروبــا على الـدول الصـغيرة من حوله، ولم ينضم إليه القراء العباد The Hassidim لأن مذهبهم لايرضى الحروب، وكان لهم أثر كبير فى صـد الناس عن الحرب مما اضطر هيركانوس أن يستعين بجنود مرتزقة من الوثنيين، وبهم غزا السامريين Sa-marians والآدوميين، وأجبرهم على التهـود ففرض عليهـم الختان وشعـائر اليهودية الأخرى، واختفى حزب القراء من الموقف كله .

ورد فعل لهذا كله ظهـرت فرقتان جديـدتان منبثقتان عن جماعــة القراء، وهما جماعــة الفــريسيين Pharisees ، وجماعــة الصـــدوقيين Saducies ، واعتبرت كل منهما نفسهـا وريثـة لجماعــة القــراء، ولكن كــان لكل منهما منهج يخالف منهج الأخرى، ونتحدث منهما بعد .

أعاد هيركانــوس مجلس السهدريم مكونا من هاتين الفـرقتين، ولكنه مال أخيرا إلى الصدوقيين لعـدم تعارضـهم مع نـزعته الحربيـة، وكانت الحروب والمعارك تكثر فى المدة التى يكون فيها أغلبية للصدوقيين .

وتلا هيركانوس ابنان له توليا الحكم واحدا بعد الآخر، وكان عهدهما معا عهد نضـال مستمر، ولانقف عنـد تاريخهما التفصيلى، وفى عهد الابن الثانى الاسكندر اينـوس A.Janneus (١٠٣ ق.م ــ ٧ م) الذى كـان ملكـا وكاهنـا ومحبا للحروب، امتدت الدولـة إلى الحدود التى كانت عليها فى عهد سليمان تقـريبا، ولكن الفــريسيين لم يرضــوا عن هذه الحروب، فغضبــوا وغضب معهم أتباعهم الكثيرون، على الملك، وأعلنوا عدم صــلاحيته للقيادة الدينية، فلما كان احتفالهم فى عيد المظـلات وكان على الملك بحكم منصبه الدينى أن يصب الماء على المذبح تعـرض له بعض من قـادة الفرسيين، ومنعـوه لعدم لياقته، وكــان اشتباك عنيف ومذبحة كبيرة على أثرهــا طرد الملك عددا كبيرا منهم من المجلس، ونفى عددا آخر خارج المملكـة، وبذا استتب له الأمر، ولما كــان على فراش مــوتــه عين زوجتــه ـ ســالــومى الاسكنـدرة ــ خلفا لــه ، وأوصـاها أن تقيد المنفيين، وقد أعادتهم فعــلا وعهدت إليهم بمراقبة شئون الدولة، وهــؤلاء لم يقفوا موقف الجمود الذى وقفه أســلافهم فقد جددوا فى

نظمها وقـوانينها، ولم يتمسكـوا بقوانين التوراة، بل سنـوا قوانين جديدة تناسب عصرهم، وخصوصا مواد مفصلة فى قوانين الزواج وشئون الأسرة، وفى نظام القضاء وتثبيت العـدالة، وطوال عهد هذه الملكة كـان هناك تلاؤم ووفاق بين الفـريسيين والصدوقيين، وكان عهـدها عهد رخـاء، وهو أزهى عصور المكابيين، وماتت سنة ٦٧ق.م .

وبموتها ظهر الصدوقيـون بمعارضتهم، ونالوا مكانة مرمـوقة فى الدولة أسمى مما كانوا عليه قبل، وعلى عاداتهم ومذهبهم دعوا إلى الحروب .

وتـولى بعد سـالـومى ابنها الأكبر «هيركـانـوس» وكان من قبل رئيسـا للكهنـة، ولم يرض عنـه الفـريسيون لأنهم كـانـوا لايرضـون الجمع بين السلطتين فى يد واحدة، ولم يـرض عنه الصدوقيون لعـدم ميله إلى الحرب، وكان أخوه الأصغـر أرسطو بولس Aristobulus ذا نزعة حربيـة، فحرضوه ضد الملك، ودعوا أن يتولى هو المملكة، وإذا اشتد النزاع بين الأخوين لم يمد الفريسيون للملك أدنى مساعدة، ونشبت لذلك حرب داخلية أطمعت الأعداء، ووجد الآدوميـون الذين فـرضت عليهم اليهودية من قبل فـرصة سـانحة فانضمـوا للأخ الأصغر الثـائر، فتدخل معهم ملك الاقباط لأسبـاب أخرى، وبـذا اتسعت دائرة الخلاف، واحتكم الأخـوان إلى رومـا، وكـان القـائد الرومانى هو بومباى، فاهتبل بدوره الفرصة السانحة واستولى على يهودية وأعاد هيركـانوس كـاهنا أعلى فقط، ولم يبق لـه لقب الملك، ورضى المسكين بأحد المنصبين بدلاً من فقدهما معا .

موقف الآدوميين

الآدوميون أبنـاء عيسو بن اسحـاق، وكان قد تـزوج من بنت لاسماعيل كما تزوج مـن الحيثيين مما أغضب والـديه [1] فهم إذن ليسوا اسرائيليين ولايهودا بالسلالة، ولكنهم دانـوا باليهودية باعتبارهـا ديانة ابراهيم الجد الأعلى لهم جميعا، ولم يكـونوا فيما يبـدوا مخلصين لهذه الديـانة، وكـانوا مختلطين بالشعـوب الأخرى، وقـد رأينا قبل أن هيركـانوس الأول المكابى

---

(١) سفر التكوين ص ٢٦ .

غـــــزاهم وغزا السامريين وفرض عليهم الديانة اليهودية، وحول منتصف القرن الأول ق.م كـان رئيس الآدوميين هو انتبيتر Antepater وكان متطلعا لاستخلاص قومه من اليهودية، وأحزنتـه مساعدة القائد الروماني يومبى لهيركانوس، ولكنـه أمام عجزه عن أى مقاومة كتم غيظة وتـرقب ماتأتى به الأحداث، وساعدته الظـروف اذ نشب الخلاف سريعا بين بومبى ويوليوس قيصر، وقتل بومبى سنـة ٤٨ ق.م فتودد أنتيبيتر إلى القيصر فعينـه نائبـا له على يهوديـة، كما عين ابنـه هيرود حـاكما على الجليل، وظل انتيبيتر يسعى والظروف تساعـده حتى عينه مجلس السناتور فى روما ملكـا على اليهودية فى سنة ٣٩ ق.م، فعـاد إليها ليقضـى على أسرة المكابيين قضـاء تامـا، وبذا أصبح حاكـم يهودية أدوميا وشبـه مستقل، وكان هـذا الملك المتأرجح بين اليهوديـة والوثنية يقدر مـوقفه السياسى ويدرك مدى اعتماده على روما. فكان يـرعى مصالحها ويقدمهـا على مصالح اليهودية، وكـان يخشى آثار المكـابيين فعمل على إزالـة آثـارهـم، كما عمل على تحطيم الطبقـة العليـا فى الإقليم [1] وبينهم عدد كبير من الصـدوقيين، ولكنه من ناحيـة أخرى عمل على استرضاء الشعب بعدد من الأعمال من أهمها إعادة بناء الهيكل فى شكل جميل رائع، ثم كان ابنه هيرود الأكبر على شاكلتـه سياسيا ماكرا، عمل على إرضاء ذوى الـدين من جانب وذوى السيـاسـة من جـانب آخر، فعمل على صبغ الـدولة صبغـة رومانيـة فى مظاهـرها العـامة من الأبنيـة والملابس، وكافأه الـرومان بتعيينه ملكا على اليهـودية والسامـرة والجليل (حيث ولد المسيح) وعمل على إرضـاء اليهود فأتم بنـاء الهيكل على نفقته، ولكنـه عين أعضا المجلـس من ذويه ومن المنتمين إلى رومـا، وقبلت روما قربـاه، ولكن اليهود أبغضـوه وفطنوا لنفـاقه، إذ كانـت مبانيه تحوى رسـوما وأنصـابا وثنيـة، وكان بـاديا فى كل تصرفـاتـه أنه غير مخلص لـدينه اليهـودى، ولا للشعب اليهودى فثـاروا عليه وحطموا مظـاهر الوثنيـة التى بثها فى مبانيه، فحكم عليهم بالإعدام حرقا [2]

(١) انظر تـاريخ سوريـة ١/ ٣١١

(٢) عقد لهم محكمة، وكـان مريضـا فحمله جنـوده إلى المحكمة حيث أصـدر هذا الحكم، وسجن عـددا من زعمائهم، وأوصى اخته ــ إذا مات ــ أن تكتم نبأ وفاتـه حتى تنفذ فيهم أحكـامه، فهم من نـاحية ــ إذا لم يعلموا بمـوته ــ يظلون على خوف منه واستكـانة، ومن ناحية أهم لايشمت الشعب فيه ولايظهـر الناس فرحا لأن حزنهم على المحـروقين والمسجونين يطمس هذا الفـرح فى نفوسهم فلايتم لهم شماتـة به (انظر حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ لعباس العقاد (ص ٦٠، ٦١)

وكانت له مشروعات حضارية منها مسرح ومدرج وميدان سباق فى أورشليم [1] وبنى قصرا فى أريحا كشف عن خرائبه سنة ١٩٥٠ق.م وهى أعظم ما وجد من هذه الآثار [2] ، واتسمت تصرفاته بالقسوة وكان له عشر نسوة ذبح بعضهن مع أفراد أسرته [3] واستمر حكمه ٣٣سنة ومات سنة ٤م (عام ميلاد المسيح أو بعده بعامين).

وأوصى بملكه لابنه الأكبر أرخيلاوس Archelaus . فنافسه أخوه هيرودس (الصغير) وكان يسمى هيرود انتيباس وظفر بمنصب حاكم الجليل، ووقعت مشارف الشام فى حصة فيليب، وأقر القيصر الرومانى هؤلاء الثلاثة فى هذه الولايات، وبذا قطعت البلاد إربا إربا، فكان فوق هذا التقسيم جزء يحكمه النبطيون ثم المدن العشر، وربما رضيت روما عن هذا التمزيق لأنه يضعف الشعب فلأيثور ضدها فى شىء، ولكن إزاء التصرفات التى تنافى الديانة اليهودية لم تهدأ البلاد، فوضعت تحت حكم نواب رومانيين سنة ٦م. كان خامسهم بلاطس الذى تورد الأناجيل حواره مع السيد المسيح . وأهم ما حدث فى هذا العهد ظهور فرقة جديدة هى فرقة الأسينيين بعد الصدوقيين والفريسيين، كما ظهر الربانيان الكبيران هليل وشماى، وبرز رهبان وادى القمران وزاد عددهم، وذلك نتيجة الارهاب والضغط الذى ساد البلاد، ونبتت بذور المسيحية ومبادىء التقشف الغالى الذى كان عليه رهبان البحر الميت وكان منهم يوحنا المعمران (يحيى عليه السلام).

وكثر أتباع الفريسيين لما كانوا عليه من المرونة والتسامح، ولأنهم على عكس الصدوقيين قالون إن يهوه إله الناس جميعا وليس إله الاسرائيليين وحدهم . ويأتى ذكر الفرق اليهودية بعد .

تطور وثورات مستمرة

كان اليهود كما قلنا يطمحون دائما لتحرير أرضهم، وكان الرومان يطمحون إلى توسع أكبر فى هذه البقاع، ولذا لم يكن بد من التصادم ولم تجد المهادنة، كانت روما تدس أنفها لمناسبة ولغير مناسبة فى الشئون

(١) تاريخ سورية ١ / ٣١١ — (٢) نفسه ٣١٢ (هامش ٣)
(٣) نفسه

الداخلية لدول الشرق الأوسط، وذلك طمعـا في مد نفوذ أوسع واطمئنانا على ما يجرى في داخل هذه المناطق، ورأت أنه من الحكمة أن تسخو على اسرائيل بـالوعـود وأن نمـلأ اليهـود أملا أكبر في استقـلال ذاتي، وظنت أنها بـذلك ترضـى الفرق اليهودية كلهـا، فتركت المجلس الأعلى الدينى يمارس سلطاته التشريعية، ومنحه كثيرا من الحرية، أمـا المجلس السياسي فكان دون ذلك، كان عليـه أن يبلغ القرارات إلى روما لتظفر بـا لموافقة ، فكان موقفـه موقف الوسيط بين الشعب اليهودى وبين روما، وكانت قراراته محدودة وموقوفة على إجازة الحاكم الموكل على البـلاد من قبل روما، وكان مسئولا أمـام هذا الوالى عن المظاهرات وعن الأعمال التـى قد تسىء للقيصر أو قيصريته، فهو أداة في يد المستعمـر، فلم يكن اليهود سعـداء في ظل هذا الحكم ، لامـن أبناء هيرود ولا من الـولاة مندوبى القيصريـة، وهذا سر مـا أبدوا من التـذمرات وإحداث القلاقل.

وفي سنـة ٢٦م كان الـوالى القيصرى هو بيـلاطس Pilatus ، وقد رأى أن اليهود لم يكفوا عن شغبهم بعد كل ما ذاقـوه من ويلات، وكان الولاة الذين قبلـه عملوا كل جهـد لتجـريدهم من قـواتهم وإسكـاتهم فلم يجد كل ذلك شيئا، لقـد عاقبـوا كثيرين ونفوا من البلاد كثيرين، منهم مـن حوكم ومنهم من نفى بـلامحاكمـة، ورأى هو أن يتجـه اتجاهـا أعنف، فصمم على محو اليهودية، واحـلال الوثنية الرومـانية مكانها، فملأ مـدينة أورشليم بصور القيصر، إذ كان القيصر يعبـد في روما، ثم نهب الهيكل وقـال إنه يـريد شق قنـاة مكانـه للـرى، ثم أصـدر قانـونـا بحرمـان المجلس الـدينى من حق التشريع، كذلك أصـدر قانونا يقضى بالقبض على مـن يعمل في الخفاء ضد روما وتسليمـه للرومان لمحاكمتـه، وكان هو يحكم بهذا، وبهذا القـانون ، والقرار الـذى يمثل قوانين الطـوارىء والأحكام العـرفية قبض على كثيرين وحـوكم كثيرون وانتقم اليهـود بعضهم مع بعض، وقـد قبض على السيـد المسيح بهذه التهمة وقدم للمحاكمة.

وظهرت منـذ قيام المسيح بـدعوته فـرقة يهوديـة جديـدة، كانت تسمى الطائفـة اليهـودية المسيحية، لأنها مع يهوديتهـا تدين برســالة المسـيح

وما جـاء به من تفسيرات للتوراة تخالف تفسيرات الفـريسيين، وظلت هذه الفرقة حتى ظهر بولس Paul فغير رسالتها إلى مسيحية جديدة .

وانتهى عهـد بيـلاطس فى سنــة ٣٦م، فتنفس اليهـود الصعـداء، ولكن فرحتهم لم تتم، ففى سنـة ٣٨م جاء الامبراطور كاليجـولا، فطلب أن تكون العبادة خالصــة له فى أنحاء الامبراطورية كلهـا، وطلب أن توضع تماثيل له فى المعابد اليهـودية، فكان هذا أمرا محزنا لـدى اليهود، ولكنه لحسن الحظ اغتيل سنة ٤١م وذهبت أوامره هباء، وخلفه الامبراطور كلوديوس، فكان له اتجاه آخر، إذ لم ير أن يعين وكيلا حاكما على اليهـودية، وعين أجريبا الأول ـ وهو حفيد هيرود ـ ملكا عليها ، وبـذا عادت ثانيا تحت امرة حاكم آدومى، ولكن هـذا الملك كـان على وفاق مع المجلس الـدينى، وأعلن أنــه لاينبغى أن يكون ملكـا لأن نصوص التوراة لاتـؤيد ذلك وخلفه ابنــه سنة ٤٤م، فترك أمور الدولة للوكلاء الرومانيين، وعاد هؤلاء إلى ضغط اليهود .

وفى سنـة ٦٦م قـام القديس منـاحم. قـائد جماعـة الحماسيين الجليلين بثورة جـديدة، ويظن أن هذا القديس هـو الذى جاء اسمه فى لفـائف البحر الميت، قـام على رأس المتحمسين بثورة وإعـلان حرب لتخليص بـلاده من الحكم الرومانى، وحاول كل من الفريسيين والصدوقيين وقف هذه الثورة، ولكنهـا انـدلعت طائشــة، وانتهت بتحطيم الهيكل سنــة ٧٠م، ولم تقم لـه قائمة بعد ذلك .

ثــورات جامحـــة

من بين الثورات العديدة التى قام بها اليهـود تبرز ثورتان ذواتا أثر كبير، كانت الثورة الأولى بين سنتى ٦٦، ٧٠م، وكانت الثانية بين ١٣٢، ١٣٤ .

كان اليهود منذ عهد القائد بومبى يعاملون معاملة خاصـة متميزة، ونظرا لكثرة الـديانـات فى الإمبراطوريــة الرومانيــة كان الحكـام يدعـون لليهود عبـادتهم وطقـوسهم ، إلا فى الحالات التى يصر فيهـا بعض الأبـاطـرة على إخلاص العبادة لهم ، ولكن اليهود لم يكونوا راضين بخضوعهم لمعبود غير يهوه، ورأوا فى خضوعهم للأباطرة نـوعا من الشرك، وعلى عادتهم كانت لهم لقاءاتهم واجتماعـاتهم المنعزلة، وفيهـا دبرت الثـورة الأولى فى عهد نيرون،

فعهد إلى قائده فاسبا سيان باطفائها، فقاد جيشا جرارا يبلغ نحو خمسين ألفا، فدمر بعض المدن، وأخضع المناطق الريفية، ثم تقدم لحصار أورشليم، فمات نيرون، وأصبح هذا القائد الامبراطور، فعين ابنه تبطس قائدا مكانه، فحاصر المدينة وشدد ضغطه عليها ولم ير اليهود بدا من الاستسلام ولكنه كان شاقا عليهم فقتلوا أنفسهم، ودخل تبطس منتصرا.(١)

---

(١) وصف المؤرخ اليهودى يوسيفوس هذا الحادث وصفا محزنا جاء فيه أن اليهود قرروا قتل أنفسهم بأنفسهم حتى لايقعوا فى أيدى أعدائهم، وبدأوا بقتل نسائهم وأولادهم، فكان الواحد منهم، يضم وزوجته بحنان ويحمل أطفاله بين يديه يعانقهم عناق الوداع والدموع تنهمر من عينيه، ثم يدعهم ليقضى على حياتهم، ثم القوا أسلحتهم حول الأجساد المذبوحة، وأجروا بينهم قرعة لقتل الرجل، فكان الواحد منهم يمد عنقه فى هدوء لقاتله، واستمرت هذه العملية حتى قتل آخر واحد منهم نفسه، ويبدو أن هذا الوصف لم يخل من مبالغة، ولكن هذه المذبحة من المذابح المعروفة فى التاريخ، وذهب فيها نحو مليون يهودى، وبقى أسرى عوملوا معاملة قاسية أيضا، فكلفوا أن يقتل بعضهم بعضا، وأن يواجهوا الحيوانات المفترسة فى المدرجات، ومنع اليهود الآخرون من دخول أورشليم، واستراحت روما منهم، وكان هذا الحادث ذا أهمية وبهجة لديها، وقد أخذ جندى رومانى من المعبد الذى حطم وأحرق، أخذ الشمعدان المقدس ذا الفروع السبعة فدخل به روما مع موكب النصر الذى دخل به تبطس، ثم صنع تمثال لجندى يحمل هذا الشمعدان ووضع فوق قوس بنى له فى روما تخليدا لذكرى الانتصار الكبير، مما يدل على أن الدولة كانت ترى فى ثورات اليهود غصة قاتلة (انظر تاريخ سورية ١ / ٣٧٦) .

الباب السادس

اليهود بعد زوال الهيكل
عهد التشتت ..

اليهود بعد إزالة الهيكل

أصبح اليهود بعد تحطم الهيكل وطردهم من فلسطين مشتتين فى أنحاء الأرض، وقد جنى عليهم تهورهم، وخصوصا تهور الحماسيين ففقدوا معبدهم الذى بدأه داود، وفقدوا أرضهم المقدسة، التى طالما ردد الصدوقيون أن الله اختارها لهم وله، وبسبب هذه الكارثة بعدوا عن ساحة النضال والتعلم، واختفت فرقهم العديدة، وكانوا حقا بمدرجة الفناء والذوبان فى خضم العالم المضطرب كما فنيت أمم كثيرة، ولكن بحكمة جماعة من الفريسيين قدر لهم البقاء.

كان رباى الفريسى يوخنان Yochanan (١) قد تنبأ قبل هجمة تبطس بوقت قريب أن أورشليم سوف تحطم نهائيا، وخرج مع أتباع له إلى سوريا وأقام فى قرية ساحلية تدعى يابنه Jabnah وهناك كون مدرسة هى التى أعادت ترابط اليهود، ومنها انبعثت تعاليمهم القديمة والمستحدثة، ونشأت رابطة روحية بين اليهود فى مختلف الأنحاء.

ساعد على قيام هذه المدرسة ماكان لدى الفريسيين من تعاليم غير مشددة، فهم لم يكونوا على شاكلة الصدوقيين يرون أن الله إله اليهود

(١) كان يدعى يوخنان بن زكاى، وكان قد هرب من أورشليم أثناء حصارها، وقبل تحطم الهيكل بقليل، ولم يكن الخروج مباحا لأحد، ولكنه تظاهر بالموت، وحمله اتباعه فى نعش، وخرجوا به، ثم اتجهوا إلى قريته حيث استأذن فاسباسيان القائد الرومانى فى إنشاء معبده ومدرسته فأذن له.

وحــدهم، ولا أن فلسطين أرض الله التى اختارهــا لليهود واختــارهم لها، بل كانوا على ما سبق، يرون أن الله أو يهوه رب الكون كله، وأن عبادته تقام فى كل مكان، وكــانوا ينادون بأن مــا أصاب اليهود من كوارث كــان جزاء على ماكــان منهم من انحراف، وأن العبادة والـرجوع إلى تعاليم التــوراة ترفع عنهم غضبه، لهذا أقــام يوخنان فى قريتــه معبدا وأنشأ فيه مــدرسة لتعليم التوراة وشروحهــا، وساعد على نجــاحه أن الفــريسيين يحترمون الشروح الشفوية، ويؤمنون بقداستها، وليسوا كــالصدوقيين يقفون بالدراسة عند النصوص المكتوبــة وحدها، وبينما فقد هــؤلاء قوميتهم وديانتهم، وصلتهم بيهوه، رأى الفــريسيون أن كل ذلك مازال قائما، وأن الله يعبــد فى كل مكان كما يعبد فى أورشليم، وأن فقدان الــوطن والهيكل لا يعنى قطع الصلة بالله، وإذا كان الآخرون يرون أن لا عبادة ولا وطنية بعــد فقدان المدينة المقدسة والهيكل، ويقولون لا روح بغير جسد، كان يوخنــان ومن معه يقولون إننا نؤمــن ببقاء الأرواح وفســاد الأجساد، وأيضا ليــس الجسد وقفــا على هذه البقعة وبذا بقى الفريسيون حيث فنيت بقية الطوائف.

وفى مدرسة يوخنان هذه تكونت أوسع التعاليم اليهودية ونمت الشروح الشفويــة، التى تكــون منها بعد ذلــك المدراش والمشنا والشروح الــواسعة الأخرى.

ولم يكن سقوط أورشليم وتحطيم هيكلهــا هينا على يوخنــان. فهو رغم توقعه إياه وتنبئه به لم يحتمل أن يسمعه، فقد صاح وبكى وشق ملابسه، غير أنــه تماسك، وعزى أتبــاعه بأنــه مــادامت التوراة بــاقية فإنها كفيلــة بجمعهم حــولها وربطهم مهما تباعــدت أمكنتهم بربــاط مقدس، ومن هنــا اتجه إلى بناء اليهــود واليهودية من جديــد، وحقا على هذا المبــدأ ظل اليهود يعملون حتى تحققت أحلامهم.

وعمل يوخنان شىء يستحق التقديــر والاعجاب، وهو لم يضــع وقتا بل قــام باتصــالات وشرع سريعــا فى تكوين مــركــز روحى لإقــامة العبــادات والطقوس التى كــانت تقام فى الهيكل، ثم أقام مجلســا على «سنهورين» على نسق المجلس الــذى كان قــائما قبل المكابيين، وجعل لــه نشاطــا تشريعيا

وقضائيا وتعليما، وأيضا هيئة حكومية لتنفيـذ الأحكام الدينية، وامتد نفوذ هذا المجلس إلى خـارج القرية وخـارج الاقليم حتى كانت تعـاليمه تصل إلى اليهود فى الجهات النائية، ثم صـدرت أوامره أن تقيم كل مجموعة لهامعبدا وأن تدرس فيها المقدسات اليهودية، وقد أدخلت على تعاليم اليهود فى معبد يوخنـان تعديلات كثيرة، وأضيفت إلى المقـدسات أشياء تنـاسب تطورات التاريخ، وصـار لها بعد ذلك قداســة التوراة. وكان هـو الذى يقرر بـداية الشـهر وفقـا لرؤية الهلال بالشـهـود، أو بإكمال الشـهر ثلاثين يومـا، وبناء على قراءتـه يضبط اليهود مواعيـد أعيادهم ومـواقيت صيامهم. واكتسب هذا المجلس ثقة أكثـر بتعيين القديس العالم «ربان جامـاليل» رئيسا، وهو من سـلالة هليل الذى سبـق ذكره مع جامـاليل الكبير، وهليل من سـلالة داود، وبسمعـة هذا الـرجل ومكـانتـه صار المجلس هـو المجلس القـومى المفوض، الممثل لمجلس اليهـود قبل سيطرة الـرومان . وصـارت له سمات مميزة.

اتخذ التعليم فى هذه المدرسة طريقتين متميزتين، كان لهما أثر كبير بعد ذلك فى الفكر اليهودى وفى السياسة اليهودية العامة.

وكـانت الطريقـة الأولى تقوم على عـرض نصـوص التوراة ثم شرحهـا، وسميت هذه الطريقة بـاسم «المدراش» من الدراسة، لأنها تعتمد على درس التـوراة، وقسمت إلى قسمين، قسـم يتعلق بـدرس القـانـــون، والأخـلاق والتقــوى، وسمى بـاسم مــدارس المشى Medrash Hala cheh وذلك بالـرجوع إلى مـا جاء فى سفر الخروج من وصيـة شعيب لموسى: «وعلمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطـريق الذى يسلكونه والعمل الـذى يعملونه» (١٨/ ٢٠) (١).

والطريقـة الثانية كانت تقـوم على التعاليم والشروح الشفويـة للتوراة .

---

(١) انظر الفقار التى أوصاه بها ألا يجمع النـاس كى يحكم بينهم واحدا واحدا بل يلقى لهم تعاليم التوراة ويدعهم يعملـون بها ، و إذا لم تكن الدراسة متعلقة بشىء من ذلك كانت تسمى مدراش أجاداه Midrash Aggadah ـ بمعنى الرواية .

رأسا ، أى من غير اعتماد على قـراءة النص ، ولكنها تعتمد على أدلة وقـواعد مستمدة من التوراة وهذه كانت تسمى ـ المشنا Mashnah بمعنى الاعادة ، لأنها فى الـواقع تعيد الشروح الشفـوية ، من غير اعتماد على نص مكتـوب ، ويمكن أن تمثل المدراش بالتفسير ، والمشنى بالفقه.

وترجع بـداية المدراش إلى عهد عزرا ، وقـد قاومها الصـدوقيون ، ولكن الحاجـة كانت مـاسـة إليهـا لإيجاد نظام ثـابت تصـدر عنـه التوجيهـات والقرارات النهـائية التى لاتوجـد صراحة فى التوراة ، ثم قـامت المشنا بمثل هذا الدور اواخـر القرن الأول الميلادى ، وبفضل مافيهـا من تساهل نالت قبولا وانتشارا أوسع ، ولم تبلغ أى منهما الأخـرى ، وظلت هذه وتلك تعتمد على الروايـة الشفوية ، وقـد تحاشوا كتابتهـا حتى لاتلتبس بنص التوراة ، وبمرور الأيام وطـول الزمن منذ عهد عزرا تضخمت هـذه الدراسات ، فلما جـاء الـزمن الـذى حطم فيـه الهيكل كـانت قـد أصبحت تـراثـا ضـخماً لا تستطيع ذاكرة الحفاظ حفظه ، وصارت روايـة الشفوية ـ ربما لاختلافات فى نصوصـها ـ لا يوثق بها ثقة كافيـة ، ثم هى نامية باستمرار ، فلم يكن بد من كتابتهـا ، وقد نتج عن عدم الكتابـة من قبل تضارب فى القواعد العـامة والأحكام التشريعيـة ، مما نتج عنـه عدم قطع فى قـوانين الشريعة وزعـزعة أكثر فى الثقـة بها . ثم كان بجانب ذلك كله خـلافات موروثةمنـذ عهد هليل وشماى ، ورثتـه عنهما مدارسـهما ، ورسخ فى ذهن كل فـريق ماورث ممـا وسع الشقة بين الجانبين .

ونـدع الحديث عن المشنـا والمدراش إلى مكـانه ، ونـذكـر هنـا فقط أن المجلس الأعلى فى يابنه كان مضطـراً أن يعالج هذه الخلافات وأن يعمل على التـوفيق بينهـا ، لكى يخرج لليهـود المشتتين شيئا يجتمعـون عليـه ، وأن يهيىء لهم رغم تفـرقهم وتباعـد أماكنهم رابطـة روحية يجتمعـون عليها ، وكانت مهمـة شاقة حقا . فقـد كان على أعضاء المجلس أن يعـرضوا جميع المشاكل الدينية أو المسائل المختلفـة فيها على النصوص المقدسة ، ثم يقبل منها ما يقبله ، وينحى مالا يراه مقبولا ، وكان أعضاء المجلس يبحثون أولاً نصوص التوراة لاستخراج الأحكـام التى تعرض ، فإن لم يجدوا رجعوا إلى

الروايات الشفوية الموثوق بها ، وكانوا يتفحصونها من الناحية العقلية ، وحيث كان من العسير أن يكون ثم اجماع من الأعضاء كان الرأى الذى ينال أغلبية الآراء هو الذى يؤخذ به ، وكانت الأحكام التوراوية كثيرة فى عددها شاقة فى تمحيصها ، وكانت خلافات المجلس فيها كثيرة ، وكانت طريقة الأخذ بالأغلبية هى الحل الوحيد .

وكان على المجلس بعد ذلك أن يبحث القوانين التى جاءت عن طريق الرواية ، وأن ينظر فى رواياتها ، وقد تجمعت لديه روايات كثيرة قيمة نقحها وهذبها ووضعها تلاميذ يوخنان ضمن المدراش .

وكان لعمل هذا المجلس آثار من جانب آخر ، فقد حفز همم باحثين آخرين، أفرادا وجماعات عملوا بدورهم على تدوين الروايات الشفوية حرصاً على عدم ضياع شىء منها ، ونقح هؤلاء أيضاً ماجمعوا ، وكانت أعمالهم فى أغلب أحيانها تعرض على المجلس لإقرارها .

ولم يقتصر كل هذا العمل على الحفظ والتدوين ، بل نمى الروايات الشفوية أيضاً ، وبهذا زادت الشروح فى هذا العصر إلى درجة لم تصلها فى أى وقت .

الربانيون فى هذا العهد

برز فى هذا العهد عدد من الربانيين والأحبار كان لكل منهم عمل فى المشنا والمدراش ، وأيضاً فى التوراة نفسها ، وقد طبعوا الدراسات اليهودية بسمات خاصة ظلت بها بعدهم وصار لكل منهم أتباع ومدرسة تتسم بصفات مميزة . وتذكر أهم ذوى الشهرة بينهم الربای عقيبا.

عاش هذا العالم الكبير بين سنتى ٥٠ ، ١٣٥م ، وقد بذل جهداً كبيراً فى ترتيب المدراش ، وهو أول من بوبها ، فجعلها ذات أبواب رئيسية يندرج تحت كل باب فصول ، وذلك طبقا للموضوعات التى يتحدث عنها ، وتناولها بالشرح والتفسير ، فكان عمله شرحا وتكوين فهارس ، وبذا سهل على الدارسين والمعلمين مهمة الرجوع إلى المسائل التى يريدونها ، كما سهل اشاعة الروايات الشفوية بين الجمهور اليهودى ، وهو أول من عالج تنظيم قوانين المشنا ، ونظم أول دراسة تجمع بين المشنا ، والدراش والأخذ منهما

معـا وعرفت هـذه الدراسـة باسم الحلقـة halachah وقد رتبـه على أبوا واسعـة ، وجزئيـات منـدرجة تحتهـا وأبرز المشـاكل المستحـدثة وطـرو عـلاجهـا وكيف تقبل أو تـرد ، وبهذا فتح مجالا للتـلاميذ يعـالجون بـه المسائل التى تعرض والتى تكـون مبهمة عليهم ، كأنما وضع لهم الأصول التى تتبع والاجتهاد الذى يبنى عليها . فضـلا عن الاضافات التى أضافها ، وطريقة التفسير التى ابتكرها .

وقد بـذل التلاميـذ بدورهم جهـداً أكبر وأدخلوا على المدراش تبـويبات واضافـات جديدة ، ولكن إضافـاتهم كانت توضيحية . وعلى أى حـال أثمر مجهود عقيبة ، وبقى لعملـه أثر كبير بعده . وجاءت دراسـات كثيرة منوعة أثرت المكتبة البابلية بفضل مجهودات عقيبة .

الأب مير MEIR

من أشهر وأكبر تـلاميذ عقيبة عاش بين عـامى ١١٠ و ١٧٥ . ولا يبدو أنه أضاف جديداً إلى تراث أستـاذه ، ولكنه بذل محاولات مبنية على الطريقة التى ابتكرها أستاذه .

ولم تكن عناية هـذه الأكاديمية فى يابنـة . من عقيبة وتلاميذه مـوقوفة على المشنا ، بل كان لها عناية أيضا بالمدراش ، ولكن ما نتج عن درسها أقل مما نتج عن درس المشنا حجما ، وقد كـانت هذه الدراسات مستندا لمفسرى التوراة لأجيال طويلة بعد ذلك .

الربانى اسماعيل

عالم عـاش فى هذه الحقبة ، بين سنتى ٦٠ ــ ١٤٠ م ـ بوجـه التقريب ، هو كـان موازيـاً لعقيبة وليس من تلاميـذه وله دراسـة عن سفر الخروج سميت « الما قلتا » Mekeilta ـ وكان معـارضا لطريقة عقيبـة متمسكا بأن التوراة يجب ان تكون باللغة التى يفهمها كل شخص .

وقد كـان الربانيـون تلاميـذ عقيبة كثيرين ، شرحوا الاسفـار المهمة فى العهد القـديم مستنيرين بطريقته ، وإليـه يرجع الفضل فى كل هـذا النشاط سواء صدر عنـه بطريق مباشر أو غير مباشر ، وفى كل أعمال العهـد القديم طابعه الـذى هو عليه حيث قبل أشياء لم تكن به من قبل ، وأيد أبـوابا كانت

تقبل من بعض وترفض من بعض ، وبتأييده صارت ثابتة ، من ذلك أسفار: نشيد الانشاد ، واستير ، وراعوث والرؤيا ـ فهذه كانت محل نزاع بين اليهود حتى قبل أن يقع النفي البابلى ، وبعضها زيد عليه ، وبعد قبولها من هذا المجمع أصبحت كلها مقبولة .

ويتضح من هذا كله أنه لا النصوص ولا القوانين اليهودية مما ورث عن موسى أو الأنبياء من بعده وأن الربانيين والأحبار أدوا الدور الأكبر خلال القرن الأول المسيحى ، وأنهم حذفوا وأضافوا وهذبوا .

معارضة هادريان

مرة أخرى واجه اليهود اضطهادا ومذابح فى القرن الأول الميلادى . وكان الامبراطور هادريان صاحب هذه الأعمال الدامية .

تولى هارديان حكم الامبراطورية الرومانية سنة ١١٧ م ، واستمر عهده حتى سنة ١٣٨ م ، وفى بداية عهده كان بينه وبين اليهود مودة جعلت السلام يسود مجتمعهم ، وجعلتهم يتمتعون بحرية واسعة ، طوال عشرة أعوام أو نحوها ، وخلال هذه الحقبة كان مجمعهم نشيطاً ماضيا فى جمع التراث اليهودى وتنقيحه ، فقبل ما آراه مستحقا للقبول ورفض ما لم يرتض ، وكان هذا تنقيحا أعمق مما سبق ، ثم تبدل الموقف وانقطعت الصلات بين اليهود والامبراطور ، ويرجع ذلك أساساً إلى ما فى طباع اليهود من الرغبة فى التوسع دائماً ، وأن مطامعهم لاتقف عند حد ، وأنهم لذلك يعقدون مؤتمرات سرية ، ويدبرون مؤامرات تقلق الحكام فى كل بلد نزلوه ، وقد رغب الامبراطور هادريان ــ قطعاً لهذه الدسائس ـ أن يجتثها من جذورها ، بأن يوحد الديانة فى دولة ، وربما من وراء هذا التوحيد الدينى أن تجمعها وحدة سياسية ، وكان لابد من القضاء على اليهودية نهائياً ، فأصدر أوامره بتحريم قراءة التوراة وتحريم شعائر اليهودية عامة ، سواء فى ذلك المقدسات المكتوبة والشفوية ، وكان من الطبيعى ألا يقبل اليهود هذه القرارات . ولكن منهم من رأى السكوت وممارسة الشعائر خفية ، ومنهم من رأى أن يواجه الأمر بالحزم والصراحة .

أمر الامبراطور تثبيتا للوثنة أن يقام تمثال للاله جوبتر Jupeter فى مكان

الهيكل اليهـودى ، فـزاد ذلك غيظ اليهـود وحماسـهم ، وظهـر بينهم ثـائر يــدعى سيميــون بن كــوشيبــا « Semean ben Kochiba » فمثل دور الحماسيين السابق، ولكن الربانى عقيبا كان مساندا له ، والتف حوله جمع غفير من اليهود فصمـدوا لحرب استمرت ثـلاثة أعوام نـال الرومـان منها خسائر كبيرة .

كــان اليهـود بعـد تحطم الهيكل على يـد تيطس قد عملـوا أن يكـونـوا لأنفسـهم قوة حـربية ، وأن يجمعوا كثيرا من العتاد والأسلحـة ، ولايبدو أن الزعيم الدينى عقيبـة كان يساعد كوشيبـا ويدعو للالتفاف حـوله إلا وهو على ثقة بما لديـه من عتاد ، وحقا هو صــاحب الفضل فى جمع الناس حول هذا القائد الثائر بن كوشيبا (صحح اسمه بعد باسم بارشيبا).

وفى سنة ١٣٥ م عين هادريان قائداً ماهراً كاد يدعى سفروس Sefarus استقدمه من بريطانيا لحرب اليهـود ، وكان قائدا محنكا عجل بالقضاء على الثـورة وسجل اسمــه فى تاريخ الـرومـان وفى هـذه المعركـة ذهب عقيبـة وكوشيبا ـ مع عديد من أبناء اليهود إلى الفناء .

وبدأ هادريان حملـة اضطهاد أعنف ليستأصل بها اليهودية ، ورأى أن أسلافـه كانوا قد أخطأوا إذ سمحـوا لليهود أن يمارسوا نشــاطهم الدينى ، بالسماح لهم بإقــامة مجلسـهم ، فصمم هو على القضاء على ذلك كلـه فقرر أن تكـون عقـوبة من يمارس أى نشــاط دينى يهودى هى الاعـدام ، وبهذا القرار كان اليهـود يتساقطون قتلى تساقط الفراش حـول النار حتى كادوا يفنـون، واجتمع مجلس الحكماء فى اللدة ورأى أن يعمـل شيئا لحقن الـدم اليهودى، فأصــدر تعليمات تقضـى بطاعة الـدولة فيما تأمــر به من أعمال وثنية، وانــه يباح لليهود شرعا أن يخالفـوا تعاليم التوراة كلـون من التقية، عدا محرمات معينة منها القتل وارتكاب الـزنا خصوصا مع المحارم، ويبدو أن الرومان كـانوا يجبرونهم على هذه الأعمال المخالفـة للدين. لكن قرارات مجلس الحكماء، لم تنل قبـولا لـدى عــدد كبير من اليهـود، ورأوا وجـوب التمسك بقوانين التوراة والوصايا العشر .

وإمعانا فى إزالة معالم اليهـودية غير الأمبراطور اسم أورشليم فسماها

الياجوبتر Aelia Copitalina وحرم على اليهود دخولها إلا فى يوم ٩ آب (اغسطس) ليقفوا أمام المبكى يذرفون الدموع. وكان اليهود فى فلسطين كلها قلة جدا، وهاجر الآخرون إلى اماكن شتى يبحثون عن وسائل العيش، وفنزحوا إلى جنوب الجزيرة العربية، واختاروا الواحات الخصبة فى انحائها الأخرى، كما نزحوا إلى شمال افريقية وإلى آسبانيا وعديد من البلاد الأوربية، وذهبت كثرتهم إلى ما بين النهرين حيث كانت بقاياهم منذ النفى البابلى لاتزال هناك ، وكان هؤلاء المقيمون فى بابل انشط الطوائف اليهودية فكرا وتأليفا، ولم تكن الصلات بينهم وبين اخوانهم فى فلسطين قد انقطعت.

ومع كل هذا التشتت لم يفن اليهود، ولم تفتر العصبية بينهم، لأن التوراة ظلت رابطة تجمع شتاتهم، ويرجع الفضل فى هذا إلى جامعة الفريسيين أولا، وإلى مجمع يابنه ثانيا وقد تشتتوا فى أنحاء الأرض واختلفت ألوانهم والسنتهم، ولم يبق لهم وطن ولا دولة، ولكن تعاليم التوراة والشروح التى جمعت فى يابنة ظلت تدرس فيما بينهم بوجه ما، وظلت العبادات والاجتماعات. طبقا لتعاليم الفريسيين تقام فى كل مكان، ولم يقطعوا املهم فى عودتهم إلى أراضيهم المقدسة وفى إقامة هيكلهم، وظلوا على الرغم مما هو معروف لهم أن أجناسا عديدة اندمجت فيهم يعتقدون انهم شعب مختار مميز على كل الشعوب، وفى كل بلد نزلوه كانوا يتكوفون على أنفسهم ويتخذون لهم حيا يعرف باسمهم، وكانت لهم دراساتهم وتفسيراتهم، وبذا ظلت شروحهم تنمو فى عهد التشتت أيضا.

ومن أهم ما حدث فى عهد هادريان واضطهاداته القاسية أن الفرقة اليهودية المسيحية اختفت نهائيا. وكانت هذه الفرقة تعتبر المسيح بن مريم واحدا من أنبياء بنى اسرائيل ،و لم تكن تعده إلها ولا ابن اله، ولهذا رصدت بين الفرق المسيحية ونالها ضغط هادريان، ولكن هيىء لها ظهور بولس الذى لم ير المسيح أصلا، وسن لهم تعاليم اعتبرهم بها الامبراطور وثنيين .

حياة جديدة أخرى

المستميت لا يموت، ولا يـوجد بين شعوب العـالم من هو أشـد استماتة من اليهود ، فقـد ظلوا خلال ثـلاثة أعـوام فى عهد هادريـان يجتمعون سرا ويتراسلون فيما بينهم، ويتصلـون باخوانهم النـائين حتى مات هـادريان سنة ١٣٨م فانبعث فيهم حياة جديدة .

كان الذى ولى هـادريان هو الامبراطور انطونيناس بيـوس، فتوسل إليه اليهود، وعملوا على عقد صلة مودة معه، واستجاب لتوسلاتهم وألغى كثيرا من قرارات سلفه ومـن أهمها انه سمح لهم باقامـة مجلس أعلى، وبه انبعث نشـاط الفريسيين مـرة ثالثـة، ولكنهم رأوا أن ينتقلـوا إلى الجليلى، فاقـروا مجلسهم الجديـد فى مدينـة «يـوشـا» وكان الـرئيس الـدينى هـو الربـاى سيميون بن جـامااليل، وقـد نجح فى عقد مـودة مع بيوس، حتى ظفـر منه بقرار يعترف به بطريركيـا، ويعترف برسمية المجلس الجديد، وبهذا القرار أعيدت بيع ومدارس وعقدت مجالس تعليم كثيرة، وكـان هادريان قد قضـى على كل ذلك، وبهذا رجعت صـورة جديـدة من نشاط المجلس الـذى كان فى يابنة.

وتلا سيميون ابنه يهوذا، وكان على شاكلة ابيه عميق النظرة السياسية موفـور النشاط وكـان يسمى الأمير الأول، وامتد عهـده حتى سنة ٢١٧م، وعمر نحو ٨٢ سنة، وفى عهده بلغ المجلس أقصى ما وصل إليه من النشـاط والازدهار، إذا امتدت رياسته نحو ٥٠ عامـا كانت مليئة بالدراسة والبحث وتجميع المواد المتفرقة .

كانت التجارب وأحداث الأيام قـد علمت اليهود ألا يعتمدوا على المجالس الـرسمية التـى تتعرض للمصـادرة، وأن يعـولوا كل التعـويل على الصلـة القائمة على التعـاليم الدينية، ولهذا عنى مجلس يـوشا بالروايـات الشفوية الكثيرة التى قـامت حول «المشنـا»، فجمعها واذاعها، وعمـل على تصفيتها والتـوفيق بينهـا بقـدر ما أمكـن ، وما لم يمكـن التوفيق فيـه اختـار منـه الأفضل، فجمعت أعمال عقيبا ومير،ومـوسى وغيرهم، مما قام بـه افراد أو جماعات فى الجهـات النائيـة، وأخذ رجال المجلس يلفقـون بينها، فـاكملوا

ما نقص فى نص من نص آخر، ورجحـوا شرحا على شرح، وهكذا حتى نشأ من عملهم مؤلـف ضخم ذو أبواب وفصول، وهـو الذى يعـرف الآن باسم «المشنا» أو بعبـارة أخرى كـانت العصيفة الأخيرة للمشنـا فى هذا المجلس، وتلى ذلك أعمال المدراش، ومنهما معا تكـون التلمود، وتمرض بعـد صورة عنه وعن التوراة .

وإلى هنا فرغنا من عرض مرحلـة تاريخية هامة من تاريخ الاسرائيليين، وهى لا يمكن أن تنفصل عـن تـاريخهم الـدينـى، ولا يمكن درس التـوراة والتلمود بدونها .

تطورات بعد يهوذا

مات الـربانى الكبير يهوذا بن سيميون ــ سنة ٢١٧م، وصادف مـوته حلول عدد من الكـوارث على اليهود مما جعلهم يؤمنون بقـداسته ، ويرون ان حياته كانت مجلبة للرحمة الالهية وقـد كانت صلاته الطيبة بمقام روما تعطى انطباعا عن اليهود وتدعـو الى مجاملاتهم ، وقد جوملوا كثيرا ، وعقب موته زيدت الضرائب ، وحدث جدب قلت به المحصولات الزراعية وتعرضـوا من جديد للاضطهاد .

والذى يهم فى هذا كله هو إغـلاق عدد كبير من المدارس ، إذ كان إغلاقها ذا أثر على حياتهم الفكرية والدينية ، وفقدت فلسطين ثانيا قيادتها الروحية والفكريـة وانتقلت الحركة الى بابل ، فقام بها نشــاط دراسى وانتقلت اليها قيادة اليهود .

وبعد مـوت يهوذا بعامين بـرز حوارى لـه يدعى آبـا أريكا Apa Arika (١٧٥ ـ ٢٤٧)فأسس فى صور سنــة ٢١٩ مدرسة كان يـدرس فيها مشنا يهوذا ، وتهافت عليها التـلاميذ نظرا لسمعتـه حتى أطلق عليه اسم المعلم ، وظهر زميل منافس من تلاميذ يهوذا أيضـا يدعى صموئيل فأنشأ مدرسة أخـرى درس فيهـا المشنـا نفسهـا ، واشتـهـر صمـوئيل بعلمـه العميق فى القانـون المدنى ووضـع فيه كتابا كـان ذا أثر فى تطور القانـون المدنى عند اليهود .

وفى سنــة ٢٥٨ م اشتبك أذينه زوج زينـوبيـا ملك الـدولة النبطيـة مع

اليهود ، فأغلق مدرسة صموئيل ولكن هذا الاغـلاق لم يدم طويلا فقد ظهر رباني آخر يـدعى يهوذا بن حزقيل Ezchein فأنشأ مدرسة ثـالثة كان لها شهرة أيضا .

وإلى هذه المدارس الثلاث يـرجع الفضل فى نشر الثقافة اليهـودية فى هذا العصر .

وكان تركيز المدارس فى فلسطين وفى بابل على المدارس التى كونها يهوذا ، وكـان المعلمون يتنـاولونها بـالشرح كلمـة كلمة ، وبـذلوا جهـدا كبيرا فى التوفيق بين مـا بها من مخالفات وتضـارب سواء فى العبـارات أو الأفكار ، وبهذا استطاعت ان تجمع اليهود على هـذه النصوص ، وان تمحو ما بينهم من خلافات الى حد كبير .

الباب السابع

اليهود منذ العصور الوسطى

صادف اليهود منذ العصور الوسطى وفى عصر النهضة ضغوطا واضطهادات فى دول أوروبا وفى جهات كثيرة فى أنحاء العالم، ولم تخف حدة هذا الاضطهاد إلا فى القرن الثامن عشر وما بعده ثم زالت أخيرا منذ الحرب العالمية الأولى، ثم صار لهم الآن سيطرة ونفوذ.

وترجع بداية هذا الاضطهاد العنيف إلى الحركة الصليبية، فقد كان الصليبيون أعداء لكل دين عدا الدين المسيحى، وقد كرهوا المسلمين واليهود على السواء، وكانوا يسطون على كل جماعة مستضعفة وكان اليهود مستضعفين، ثم كانوا التعصب الدينى يفجر غيظ المسيحيين ضد اليهود، واليهود بطبيعتهم ذوو عصبية أشد، فكان العداء بين الطائفتين فى كل مكان، وقامت مذابح وأزهقت أرواح بسبب هذا التصادم التعصبى فى أمكنة كثيرة فى أوروبا خصوصا فى ألمانيا، وتسبب هذا النزاع فى هجرات متتالية إلى شرق أوروبا وإلى القارات الأخرى، ولم تخف حدة هذا الاضطهاد إلا فى بعض الأماكن، وبعد الحرب العالمية الأولى بدت هذه الاضطرابات وكأنها قد زالت نهائيا أو كادت إلا فى أقطار قليلة، وكان للانجليز أكبر الأثر فى إزاله هذا الاضطهاد، ذلك أن اليهود وقفوا بجانبهم فى هذه الحرب، وكانت لهم فرقة مستقلة محاربة (١) وحصلوا من الانجليز

See Six Days War P. 95 (١)

على وعود طيبة ، ومنها وعد بلفور . قام الوزير البريطانى بإعطاء اليهود وطنا قوميا فى فلسطين وربما كان لهذا الموقف أثره السيىء فى ألمانيا، وكان مما أثار حنق هتلر عليهم بعد ذلك.

وفى أسبانيا كانت حركة فرديناند وإيزابيلا والظروف التى سبقتها والأخرى التى تلتها حيث أصر الأسبان على طرد المسلمين والمغربيين الذين وفدوا عليهم، وفى هذه الظروف طرد اليهود أيضا، فقد عمل رجال الكاثوليكية على تطهير البلاد من كل دين غير الدين المسيحى، أو بالأحرى غير المذهب الكاثوليكى، ومع أن اليهود كان لهم كيان فى أسبانيا قبل المسلمين اجتاحتهم أيضا هذه الحركة، مما يتجلى معه أن الاسلام كان حماية لهم ونعمة عليهم .

وفى انجلترا وفرنسا وغيرهما كان اليهود يطردون بين حين وآخر، وكانت هناك أسباب عديدة لهذه البغضاء التى قوبل بها اليهود، دينية واجتماعية، ومن أهم الأسباب الدينية أن اليهود إزاء ما واجههم من اضطهاد توقعوا ظهور المسيح المخلص، وقد تحدثوا بهذا فيما بينهم وأذاعوه، وكان هذا واضحا فى إنكار المسيح بن مريم وانكار رسالته، ثم انهم أصروا على نسبته عليه السلام إلى يوسف النجار فكان ذلك وقودا متزايد الاشعال لنيران الاضطهاد ضدهم من الأوروبيين، وقد ساء ظن الناس بهم حتى أنهم وجدوا نفورا منهم وازدراء لهم فى كل مكان نزلوا به، وكانوا يجدون فى نفوس الآخرين تشككا وريبة، وكانوا يقيمون صلواتهم واجتماعاتهم فى سرية وخفاء، ويحيطهم دائما غموض، فكان هذا ما يثير فيهم الريب ولايأمنهم أحد، ثم انهم فى هذا العهد كانوا يعلنون أنه لا مسيحية .

وجانب آخر هو شيوع تعاملهم بالربا، وهو عمل اشتهروا به فى أوروبا والبلاد التى هاجروا إليها، وكان نشاطهم الربوى لايقف عند التسليف، بل كان لهم رهونات ومضاربات مالية لايستطيع الآخرون مجاراتهم فيها، وكان المسيحيون إلى عهد قريب يحرمون التعامل بالربا، وكانت الكنيسة تحظره، فأفسح ذلك المجال لليهود، ووسع دوائر تعاملهم .

والذين كانوا فى ألمانيا كانوا مبعدين عن المجتمع العام إلى جهات منعزلة

أو متأخرة، ونشأ بينهم منذ هذا الوقت ما عرف باسم الجيتو Ghetto أو حى اليهود، ووجدت هذه العزلة وهذا التكوّف فى كل بلد أو مجتمع فيه جماعة من اليهود ، وفى هذه المنعزلات كانوا يعقدون جلسات سرية، يقررون فيها شئونا سياسية وتجارية وأعمالا خاصة بهم، وكانوا حريصين على البعد عن التيارات السياسية ونجحوا فى كل ذلك وازدادوا تماسكا، ولكن هذا الموقف من جانب آخر ساعد على ترويج اشاعات السوء ضدهم .

ولم ينس اليهود منذ شتتهم تيطس وتفرقوا أبدى سبأ عودتهم إلى أرض المعاد وإعادة مملكة داود، وكانت مجتمعاتهم السرية مجالس تدبر فيها المكايد وتحاك الخيوط لهذه العودة، وكانت بحق بؤرات فساد وتدبير مكايد، إذ كانوا يقومون بأعمال تخريبية، يربحون منها ويخسر المجتمع الذى هم فيه، وإلى عهد قريب كانوا فى مصر يقومون فجأة بشراء مواد معينة أو بضائع حتى يخلو السوق منها نهائيا، ثم يبيعونها هم بأسعار مرتفعة جدا، وحدث هذا أثناء الحرب العالمية الثانية غير مرة، وكان ثراؤهم المادى مما يساعد على ذلك، ولكن هذه الأعمال مما ولدت الكراهة وأذكت نارها ضدهم .

وأذكر أنى قرأت مرة حديثا عن نهضة اليابان وسرعة نموها، حتى أن اليابانيين خلال الثلاثينيات من هذا القرن كانوا يخرجون أقمشة صوفية وحريرية لايكتبون عليها صنع فى اليابان، إذ لم تكن اليابان عرفت بجودة صناعتها، ولكنها ما لبثت أن نافست الدول الكبرى فى كل صناعاتها، وختم الكاتب حديثه بأن اليابان لم تكن تصل إلى هذا الحد إلا لأنها تخلصت من العنصر اليهودى فيما بينها .

وهذا ما يصور مدى ما يكن الناس لليهود من كراهية، وما يجول فى أذهان الناس عن عوقهم الشعوب عن التقدم .

اليهود فى أسبانيا

رأينا من قبل أن فريقا من اليهود بعد تحطيم الهيكل قد نزح إلى أسبانيا، وقد عاشوا هناك تحت حكم القوط وحكم الرومان، ولكنهم لم يكونوا سعداء هانئين، وقد وجدوا فى خيرات الأرض الأسبانية ما اكتنزوا به أموالا.

ولكنهم من الناحيـة الـدينيـة كانـوا فى ضيق وهـوان، وفى أواخـر العهـد الرومـانى ضيق عليهم فى عبادتهم وصودرت بعض معابدهم حتى بـاتوا يتربصون بحكـامهم الرومان دوائر السوء، فلما انتهت فتـوحات المسلمين إلى مراكش، وأرادوا فتح أسبانيا وجدوا فى اليهود الذين بها بعض العون[1] وبعـد الفتح الاسلامى واستقـرار حكم اسلامى هنـاك نزح عـدد أكبر من اليهود إلى تلك البلاد لينعموا ويتمتعوا بسماحة الإسلام .

كان المسلمون جـادين فى مد فتوحاتهم تجاه أوروبا، ولكنهم بعـد موقعة بـلاط الشهداء عنـد بواتيـه تراجعـوا واتجه نشاطهم إلى الجوانب العلميـة والفكـرية، فقـامت لهم جامعـات درست فيهـا بجانب العلـوم الاسلاميـة الدينيـة علوم عقلية من الطب والهنـدسة والـرياضيات وغيرهـا، واجتذبت جامعاتهم رواد الثقافة من أنحاء أوروبا، واشتهر المسلمون بتسامح دينى عجيب لم يعـرف مثلـه فى العصـور الـوسطى، وبـه اتجه الكثيرون إلى الاسلام[2] ، ونزح إلى هذا الـوطن جمع من اليهود انضموا إلى الذيـن كانوا هناك من قبل، وشـاركوا فى نهضة المسلمين فى نهضتهم العلميـة وكان لهم أثر ملحوظ فى حـركة الترجمة، وكان طليطلة مركـزا لها، ونقلت فيها فلسفة المسلمين إلى اللغـات الأوروبية، وشـارك اليهود فى كل ذلك واستفـادوا من علماء المسلمين .

ومن اليهود المعـروفين فى هذا العهد ابن شبروط (٩١٥ ــ ٩٩٠) ، كان فى قرطبـة واستطاع أن يكـون حولـه مجموعـة من علماء اليهـود التلموديين، واشتهرت مدرستهم، ونزح إليها اليهود من مختلف البقاع .

وقدم إلى قرطبـة فى هذا الوقت من إيطاليا مـوسى بن خانوع Moses Ben Chanoch من علماء اليهود التلموديين أيضا، فأنشأ فى العـاصمة الاسلامية أكاديمية تلمودية اجتذبت اليهود الراغبين فى هذه الدراسة من أنحاء العالم.

وكان فى غـرناطـة وهى مركـز يهودى ومسيحى قديـم نهضة إسـلامية

---

(١) انظر نفح الطيب حار ٢٨٠ وما بعدها

(٢) انظر الدعوة إلى الاسلام ١٥٥ وما بعدها

علمية حديثة، وقد أبيح لليهود فيها ما كان محرما عليهم من قبل، فى العهد القوطى والرومانى، من دراسات تلمودية وإقامة شعائر دينية واجتماعات، وممن عرفوا فى غرناطة بعلمهم ونشاطهم صموئيل بن ناجديلا، (٩٩٣ ـ ١٠٥٥) وقد كان عالما تلموديا كما كان شاعرا لبقا أخرج قصائد وأناشيد دينية وغير دينية، ومن أهم أعماله إخراج مقدمة صاخبة عن منهجية الدراسة التلمودية، وهى لاتزال تدرس إلى الآن .

بوجه عام نشطت الدراسة التلمودية فى أسبانيا، وظهر عدد غير قليل من علماء اليهود، وتتلمذ عدد منهم على علماء المسلمين أمثال ابن رشد، وظهر هناك شعر عبرى وأناشيد دينية كثيرة واعتبر هذا العهد الأسبانى بحق عصرا ذهبيا لليهود، وظهر منهم علماء وشعراء فى اللغة العربية من أبرزهم موسى بن ميمون وابن سهل الاسرائيلى .

اليهود فى مصر

كان فى مصر يهود من زمن بعيد، وقد عنى البطالمة بالتوراة ووفد عليها يهود فى عهد الاضطهادات ، وعلى يهود مصر وفد المسيح وأمه، وكان «بابليون» بمصر القديمة مقرا لهم، وكان عدد كبير منهم بالاسكندرية، وفى أواخر العهد الرومانى نالهم أيضا أضطهاد، واشتد على عهد هرقل حين فرض مذهبه الملكانى، فأغلقت معابدهم أو حولت إلى كنائس ملكانية، ولم يتنفسوا الصعداء إلا بدخول المسلمين مصر، إذ أتاح القائد المسلم عمرو بن العاص حرية الدين لكل فرقة ، فأعادوا ـ كما أعاد المسيحيون الارثوذوكس ـ أماكن عبادتهم .

وتحدثنا فى غير هذا الموضع عن يهود الاسكندرية فى القرن الثانى المسيحى، وبينا آثار مدرستهم والفلاسفة الذين تخرجوا فيها .

الباب الثامن

الفرق اليهودية

نشأة الفرق اليهودية

لم تشمل الشعب الاسرائيلى خلال نضاله لنيل استقلاله وحدة فكرية، سواء كان ذلك فى العهد السلوقى أو العهد المكابى، وتبع هذا التباين الفكرى تفرق فى الآراء الدينية والسياسية، ولذا اختلفت تصرفاتهم ومواقفهم إزاء الحروب والأحداث التى كانت تلم بهم، فبين حين وآخر كانت تظهر بينهم فرق جديدة وكثرت هذه الفرق حتى بلغت نحو أربع وعشرين فرقة ، منها القديم والحديث والكبير والصغير والمثابر المقاوم والوانى المستسلم، ولايمكن درس التاريخ الاسرائيلى، ولادرس الجوانب الدينية اليهودية بل ولا درس المسيحية إلا بدرس هذه الفرق، أو على الأقل الالمام بأهمها، وهذا ما نكتفى به هنا وترجع أسباب هذا التمزق إلى عوامل كثيرة .

منها أن هذا الشعب منذ السبى البابلى وبعد اختلاطه بالشعوب الأخرى تغذى أفراده وقبائله بأفكار أجنبية، كل على حسب استعداده وظروفه، ومنها أن الثقافة اليونانية ـ هلينية وهلينستية غزت المنطقة منذ عهد الاسكندر ــ ولم تكن خالية نهائيا منها قبلة وتأثر بها اليهود بدرجات مختلفة . ومنها أنهم فى فترات كثيرة كانوا يخضعون للأمم المجاورة ويحاكونها فى الطقوس والعقائدوأسفار العهد القديم تغص بالشكوى من هذه الانحرافات، وقد ظلت هذه البقعة حقبة طويلة من الزمن مسرحا لأحداث متتالية، وتوالى عليها حكام من المصريين والبابليين والفرس

والحيثيين واليونـان والرومان، وكل حقبـة من هذا التـاريخ، وكل لون من ألوان الحكم والديانات تركت بين سكان الأقاليم أثرا ما، فلا عجب بعد ذلك كلـه أن تنشأ أفكار متطـرفـة وأخـرى متخلفة، وأن يقف آخـرون بين بين، وهذا مـا أوجد التباين البعيد الـواسع فى موقف الشعب اليهودى عنـد قيام الثـورة المكابيـة، إذ كـان هناك المتحمسـون والمشجعـون والقاعـدون عن الحرب، ولايـرجع ذلك إلى الأسبـاب السيـاسية وحـدهـا، بل إلى الأسبـاب الـدينية أكثـر، ونـذكر بعض الفـرق فقط لتجميع المعلـومات التى جـاءت متفرقة.

١ — الفريسيون The Pharisees

ليست هذه الفرقة أقـدم الفرق، ولكنها أهمها وأكثرها عـددا وأبقاها أمدا، نشأت فى عهد المملكة اليهودية الثانية، أو كما يعبرون عنها دائما «الكومون ويلث الثانيـة»، لأنها لم تكن مملكة حقيقية، وأصـل هذه الفرقـة غامض[١] واسمهـا قد يكـون مأخـوذا من الفـرز بمعنى الاختيار والتنقيـة[٢] أو من «بروشيم» بمعنى المنفصلين أو المعتزلين، لأنهم فصلـوا أنفسهم عن عادات الوثنيين، أو عن عوام الشعب، وأهم ما امتازت به هذه الجماعة هو تمسكها بالتوراة، وإصرارها دائما على أن تكون دستور الدولة ولهذا السبب حرموا الحرب التوسعية، عملا بما جـاء فى سفر التثنية [٣] وهم مع هذه النزعة لم ينحازوا عن الدنيا، ولم ينسحبوا عن تيـارها نهائيا، كما فعلت فرق أخرى، وكما يؤمنـون بالتوراة ويقـدسونها أيضـا يقدسـون التفسيرات الشفـوية التى جـاءت عن الشراح، ولهذا كـان للربـانيين بـوصفهم مفسرين للتـوراة مكانــة خاصة عندهم ،ومن هـذا المنحى كان ارتباطهم بالحيـاة، وكان لهم شعبية واسعة .

---

(١) I See the Encyclopuedia Britinica pharisess

(٢) حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ طبعة دار الهلال

(٣) ص ٢ وهو لايحرم الحرب، بل يستثنى أشخاصا معينين.

وأخذهم بالتفسيرات الشفوية يرجع إلى عهد عزرا، حيث كان الشراح يصحبون قراء النصوص، وقد كانوا هم والصدوقيون أكبر الفرق وأبرزها، ولكن الفريسيين كانوا أكثر عددا، وبعد أن حطم القائد تيطس الهيكل سنة ٧٠م ذابت الفرق اليهودية كلها ماعدا هذه الجماعة، وفى الواقع لم تعد بعد هذا الحادث فرقة، لأنها شملت اليهود جميعا .

ويختلف الفريسيون عن الصدوقيين فى مواقف كثيرة من سياستهم الدينية وفى عقيدتهم، فهم يؤمنون بالبعث بعد الموت وبالجزاء، ويلائمون بين القدر وحرية الإرادة، ويؤمنون بهما معا، ولايجعلون يهوه إله الاسرائيليين وحدهم، بل يرونه إله الكون كله، وهذه كلها مما لايؤمن به الصدوقيون، وهم يعتقدون أن التفسيرات والتشريعات الشفوية مما أوحاه الله إلى موسى عليه السلام.

وفى عهد السيد المسيح ـ عليه السلام ـ كان الفريسيون والصدوقيون والكتبة من أكبر معارضيه وأشد أعدائه كيدا له، ونجدهم يدبرون له المكايد لتوريطه وتعجيزه، وأحيانا لإثارة الخلاف بينه وبين الحاكم الرومانى، إذ يسألونه : هل يجوز دفع الجزية لقيصر أولا يجوز؟ [1] وهم والكتبة معهم يعترضون عليه أن أكل تلاميذه من غير أن يغسلوا أيديهم [2] مما يدل على تمسكهم بحرفية النصوص، ومع هذا لهم مواقف ـ خصوصا فى عهد المسيح ـ يبدو فيها الزيف الدينى، والتظاهر بغير ما هم عليه، وعلى عكس ما جاء فى دائرة المعارف البريطانية هم ورثة الأتقياء Hassidim ، وليسوا جماعة منفصلة أخذت شيئا منهم.

وفى عهد هيرود نالت هذه الجماعة تقدما، واكتسبت أنصارا وأتباعا أكثر، ولكنها بحرفيتها الدينية أحدثت فجوة وانعزالا بين شئون الدين وشئون الدنيا، واشتد كل من الجانبين فى تقوية مذهبه فى المجلس الأعلى مما أكسبهما معا تقدما وعمقا فى الدراسة .

---

(١) متى ٢٣ / ١٥
(٢) مرقس ٧ / ٦

هليل وشماى

هذان الربانيان الكبيران من فرق الفريسيين، وكان لهما أثر كبير فى تطور الموقف الدينى والسياسى معا .

أما هليل فأخذ موقف الأمير أو الناسى Nasi الذى سبق ذكره، وقد نشأ فى أرض بابل أثناء السبى الاسرائيلى، ثم قدم إلى أورشليم حين عاد العائدون، وقد ترك آثارا كبيرة على جيله وعلى الأجيال التى جاءت بعده.

كان يمتاز بتواضع جم حببه إلى الناس، وكان بليغا لسنا يتكلم بالأمثال، ومن طباعه الميل إلى المسالمة، أجمل مبادىء الانسانية فى عبارة قد تبدو غريبة بين مبادىء الشعب المختار وان كانت شائعة فى جميع الأديان ووصايا الحكماء، وهى لاتعمل للناس شيئا لاتحب أن يعمل لك.. أو بعبارة أخرى أحب للناس ما تحب لنفسك، وأكره ما تكره لها.. أو عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ..

وأما شماى فكان فى أورشليم منذ ولادته، وكان يمتاز عن صاحبه بما فيه من شدة وتزمت فهو فريسى على حافة الصدوقية .

ومع هذا الاختلاف يشتركان فى الدعوة لمبادىء إنسانية كثيرة، ويشتركان أيضا فى بعض الأقوال وكان من وصايا هليل : «أحب السلام واتبعه.. وأحب الانسان» وكان من أقوال شماى: « لاقى كل شخص ببهجة ومسرة».. ولكن نتيجة لاختلاف طبيعتهما اختلفا فى تفسير التوراة، فمال أولهما إلى التساهل ومال الثانى إلى التشديد والأخذ بحرفية الألفاظ، وقد كان هليل متأثرا بنزعة الفقهاء البابليين، وكان شماى إذا لم يجد تفسيرا تمسك بحرفية النص التوراوى ولايفعل ذلك هليل إذا لم يجد تفسيرا، بل هو يكثر من التسامح .

وكان لكل منهما تأثير على أنصاره وأثر فكرى فى مذهبه، ونشأ عن ذلك مدرستان مختلفتان فى منهجهما، كل مدرسة تتبع طريقة أستاذها، وسميت أولاهما بيت هليل، وسميت الثانية بيت شماى، وكان الفرق بينهما بعيدا فى جوانب العبادة والاخلاق والشئون المدنية، ولكن نظرا لمحافظة كل

منهما على تعاليم التوراة ظلا فى إطارها، كما ظلت المودة بينهما قائمة، كل يستعين بالآخر فى تفسير ما يشكل عليه، وكانت تعقد لهما لقاءات للتفاهم فى بعض المشكلات، وقد غذيا شروح التوراة بتفسيرات وآراء لاتزال مرعية فى اليهودية إلى الآن .

وبعملهما معا كان لفرقة الفريسيين فضل وظهور بين الفرق الأخرى .

٢ — الصدوقيون

هى الفرقة التى تناظر الفريسيين أو هما الفرقتان الرئيسيتان بين الفرق اليهودية، وكلتاهما ظهرتا فى عهد هيركانوس، وكلتاهما عارضتاه فى اتجاهه نحو الحرب، ولكن وجهة نظرهما كانت مختلفة، فالفريسيون يرفضون الحرب لأنها تخالف تعاليم التوراة، والصدوقيون يرفضونها لأنهم فى هذا الوقت توقعوا هزيمتهم وانكسارهم، وقد خافوا على ممتلكاتهم، وهم يؤيدون الحرب إذا كان الانتصار متوقعا، وكان الصدوقيون قد غذوا بالثقافة الهلستينية التى قاربت بينهم وبين اليونان، وهم أيضا ذوو ثروات وأملاك فكانوا يخشون ضياعها بسبب الحروب، ولم تكن معارضتهم دينية خالصة فكانوا أقل حمية فى مقاومة هيركانوس .

والفرقتان معا تتفقان فى أن التوراة هى التى يجب أن تكون القاعدة العامة الأساسية لسياسة الدولة والتى تستمد منها قوانينها داخلية وخارجية، ولكن الصدوقيين يرون مجاراة الواقع والظروف المحيطة بالدولة، وهى دائمة التطور والتقلب ولايمكن أن يقابل هذا التطور . الواسع بقانون التوراة المحدود، لهذا أباحوا الاتصال والاندماج بالوثنيين عندما تدعو الظروف، كذلك يرون أنه لابد من مراعاة الأحوال الاقتصادية والسياسية، وميزان الدولة لايدور إلا على هذا الجانب .

أما الفريسيون فيجدون مخرجا من ذلك كله بقبولهم الروايات الشفوية، وتفسيرات الربانيين، وهى من جانبها تبسط قوانين التوراة وتكسبها مرونة، وهى ليست خارجة عن التوراة لأن الربانيين والأحبار استخلصوها من نصوصها، ولأنها فى رأيهم مما أوحى به إلى موسى وهذه النظرية جعلتهم ألصق بالتوراة بينما الصدوقيون استباحوا الخروج عنها للضرورة أو لما تدعو إليه الظروف .

والصدوقيون يربطون بين القومية والدين، لأنهم يرون أن يهوه إله بنى اسرائيل وحدهم، اختارهم من بين الشعوب واختار فلسطين وطنا لهم، فالمحافظة على القومية وعلى الأرض مما يمليه الدين، وقادتهم هذه العقيدة القومية إلى نقاء جنسهم، وإلى كون الدين قوميا جماعيا، ولهذا لايؤمنون ببعث ولاحساب، بل يعيبون على الفريسيين عقيدتهم فى بعث الموتى، وبقاء الأرواح حية، وأكدوا أنها خرافة تصم الفريسيين بالغباء وضحالة التفكير .

وبهذا نجد أنه منذ ذلك الوقت والفرقتان فى فجر حياتهما كان التنافس بينهما شديدا، والعداء متحكما، ولم يقم بينهما وفاق إلا فى عهد سالوم الاسكندرة ثم قوى الصدوقيون بعدها فأثاروا القلاقل من جديد .

وفى عهد المسيح كان الرئيس الأعلى للمجلس قيافا ومعه صهره — والد زوجه — حنانيا، وهما معا من الصدوقيين، وكان تحاملهما عليه شديدا، وتقديمه للمحاكمة على ما ادعاه من أنه ملك اليهود، تدل على أن القوم جميعا لم يكونوا على خلق ولادين .

وعندما تولى هيرود على يهودية جرد الطبقة العليا فيها من حقوقها، وأنزلها من مكانها، وكان معظمها من الصدوقيين، فأضعف ذلك شأنهم وفل قواهم، وهو من ناحية أخرى سالم الفريسيين، وعاملهم بشىء من اللين والرعاية، فنما حزبهم وازداد كثرة، بقدر ما كان حزب الصدوقيين يذبل ويضمحل ومع ذلك انقطع جهاد الفريسيين وأخلدوا إلى الاستسلام، إذ واجهوا حالة من اليأس، وأنهم لايستطيعون عمل شىء، لاستنقاذ وطنهم من ربقة الرومان، لأن هيرود كان من جانبه يعمل على استبقاء الحكم الرومانى ليبقى هو حاكما، ومن هنا اكتفى الفريسيون أن يعملوا للدعوة الدينية وحدها، وقويت حينئذ فكرة يوم الخلاص ومجىء الخلاص أو المسيح الموعود الذى يعيد لاسرائيل سيادتها وعظمتها، ويعلن وحدانية يهوه، ومذهبهم الدينى يقوم على انتظار يوم أفضل، وقد أخرجوا فى هذا الوقت كثيرا من التفسيرات وأذاعوا تعاليم التوراة بسعة بين أبناء اليهودية، وكان أهم ما أذاعوه فى هذا الوقت هو انتظار المسيح الموعود .

هذه أهم الفروق بين هاتين الفرقتين الرئيسيتين .

٣ — الآسـينيـون

ظهرت هذه الفرقة فى الوقت الـذى أشرنا إليه، ولكنها كانت أسبق من ذلك وجودا، فهى فى أغلب الأقـوال نشـأت بالاسكندرية، واقتبست من مـدارسـها الفلسفية خصـوصا الفلسفـة الفيثاغـورية الـداعية إلى التقشف وتنـاسخ الأرواح وتحريم ذبـح الحيـــوانـــات [١] وهى تختلف عن الجماعتين فى تفكيرهما الـدينى القـومى أو القـومـى الـدينى، لأنهم وقفـوا حيـاتهم على العبادة والـرهبنة، ودعـوا إلى الذلـة وقلة الكلام، ومثل هـذا المذهب لاينمى القـومية ولايـدفع الاستعمار إلا من طريق غير مبـاشر، وظهورهم فى هـذه الفترة لايمكن أن يفسر إلا بأنـه رد فعل للضغط والإرهـاب الـذى فـرضـه هيرود بن أنتيبيتر. وكانـوا شديدى التأثـر بسفر الرؤيا، ويترقبـون ظهور المسيح المخلص، وكانوا يتقاسمون المنفعة فيما بينهم، ويكتفون من الحياة بما هو ضرورى، فيحـرمون على الشـخص امتـلاك ثوبين أو ادخـار طعام، وهـو تقشف غايـة فى الشدة، وقـد امتنعوا من الـزواج، وحتموا الاغتسـال اليومى بالماء، والتطهـر الحسى والمعنوى، وكانوا يأكلـون معا فى جماعات ولكن فى صمت بالغ ويشتركون فى ممتلكاتهم، فليس لديهم ملكية خاصة .

وهم على شاكلة الصـدوقيين لايؤمنون بالتفسيرات الشفـوية، ولابالكتب التى بعد الأسفار الخمسة، ويتمسكون بحرفية النص التوراوى، مما جعل تمسكهم بالقانـون حرفيا شديـد الصرامة والعنف، ومن ذلك أنهم يمكثون فى بيوتهم يوم السبت بدون حراك عمـلا بما جاء فى الكتاب المقدس من قول الرب لموسى : «اجلسوا كل واحـد فى مكانه، لايخرج أحد من مكـانه فى اليوم السابع».

ولهم أعمال غـامضـــة يعملـونها لاستطـلاع الغيب وطـرد العفـاريت، ويلجأون فى قضـاء حـوائجهم إلى التـــوسـلات والابتهـالات، ويخالفـون الصدوقيين فى نظرتهم إلى القضـاء والقدر، بينما حاول الأولون أن يـوفقوا بين القدر وحـرية الإدارة، يؤمن هؤلاء بـالقدر إيمانا يجعل الإرادة الفـردية

---

(١) حياة المسيح فى الكشوف والتاريخ ٤٦

مشلولة نهائيا، ولايدع للشخص حرية فى شيء، بل يجعل مجهودات الناس لاقيمة لها، وبهذا يختلفون أيضا عن الفريسيين فى مواءمتهم بين الدين والحياة.

وبهذا الانقطاع وشدة النسك مهدوا للرهبنة المسيحية، ومن الواضح أن رهبان المسيحية استفادوا منهم، بل مما هو ملاحظ أن صلة الآسينيين باليهودية كانت واهنة جدا .

وهم يسمون الآسينيين نسبة إلى سيناء، وهى نسبة لاسند قويا لها، وأقرب ما يؤخذ به أنهم من كلمة الآسى، ويسمون أيضا بالآسيين، وهى بمعنى الأطباء، وهم أطباء الروح لأنهم كانوا يتعاطون هذا الطب عن طرق الصلوات والأدعية، كما يتعاطون العقاقير .

وقد كشفت الحفائر التى أجريت حديثا فى وادى القمران بجانب البحر الميت عن معلومات جديدة عنهم، وكانوا قبل ذلك لايعرف عنهم إلا القليل، ومن هذه المعلومات نجد أنهم على صلة قوية بالفلسفات التى كانت شائعة فى الشرق يونانية وغير يونانية، فقد وجد فى الدفاتر التى عثر عليها حديث عن الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وهى تعبر عن آمال هذه الجماعة التى اعتبرت نفسها تابعة لأبناء النور، وفيها أن أمير جماعة النور الذى هم مدينون له كان على أيامهم مشغولا بحرب إله الظلام .

ومن عقائدهم انفصال الروح عن الجسد بعد الموت حيث يبلى الجسد وتبقى الروح خالدة، وهى تختلط به فى هذه الحياة ولكنها عقب الموت تصعد إلى السماء مع الأرواح الطاهرة إن كانت هى طاهرة نقية، أو تهبط إلى أسفل إن كانت شقية لتلقى عقوبتها، وكما هو الأمر فى كثير من الأديان يرتبط التقشف بهذه العقيدة، لأن العناية بالروح تأتى عن طريق إضعاف الجسد، وتجد صلة بين هذا المذهب وبين بعض المذاهب الشائعة فى الهند وخصوصا الجينيين، كما تجد شبها أقوى بجماعة الروحانيين المسيحيين، وهى فى جملتها تقوم على الرهينة لكنها تسمح لبعض أفرادها ولأسباب خاصة بالزواج وتعفيه من قيود تنسكها الصارمة .

ويتدرج أتباع هذه الفرقة فى مراتب متتالية، أولها درجة التلمذة، وهى

تقبل الناشئين الصبيـان فيدربـون على مبادىء الجماعة، وأهمهـا الصدق وعدم الحلف، وإذا أخـذ على واحد منهم كـذبا فصلتـه الجماعة، ثم يلى ذلك درجـة «المقسمين» أى الذيـن يحلفون قسم الجماعـة وبعـد القسم يمضى الشخص عاما فى ممارسة رياضـاتهم الروحية والعبادة، ثم ينتقل إلى درجة «المريد» ثم بعدها إلى المرتبـة النهائية مرتبة الواصلين ومـدتها عامان أيضا ثم يكون عضوا ثابتا فى الجماعـة يلبس الثوب الأزرق ويشد الزفار ويحمل الفاس، وهـو مجرد إشارة إلى العمل الشـاق، ولكنهم يزرعـون ويصنعون، ويرون التجارة عملا خبيثا لاينجى من الاثم.

وهم يصلـون عند الفجـر ويحافظون على الـراحة يـوم السبت، والحرب عندهم محرمة.

وهم يختلفون عن الصـدوقيين فى إيمانهم بالبعث بعـد الموت، ويرون أن العبـادة الحقة إنما تكـون بالإخـلاص لله والعـدل والرحمة لا بـالذبـائح والهدايا، متبعين فى ذلك نصائح النبى عاموس .

وكـانوا يتحـاشـون المدن والأمـاكن المأهـولة ويـؤثرون الخلـوات حيث لايشغلهم شاغل عن التأمل والتفكير ، ومع اشتراكهم فى كل ما لـديهم كانوا يتآخون اثنين اثنين ويحرصـون على ملء فراغهم بالعبادة والقراءة .

وأخبـارهم مستفيضة واسعـة فيما كشفتـه لفائف وادى القمـران، ومع هذه السعة لم تستـوف كلها بعد، وهى فى دوائر المعارف يـزيد بعضها على بعض . (١)

٤ ــ البصـــريـون The Visionairees

جماعة البصريين أو ذوى الرؤيا، أطلق عليهم هذا الاسم أخذا من تعلقهم بسفر الرؤيـا، وسمو Visionarees ، ومعلومات المؤرخين عنهـا مأخوذة من سفر الرؤيـا وإينوخ وبعض الأسفار الأخرى فى مجموعة الأبـوكريفا، وهى أسفار لم تنل موافقة إلا فى وقت متأخر .

هـذه الجماعـة شـديـدة التعلق بـالحيـاة المرتقبـة لإسرائيل، ويبـدو أن

(١) انظر حياة المسيح للعقاد ص ٤٥ ـ ٤٧ ط. دار الهلال

وجودهم وتكوينهم كالآسينيين، كـان نتيجة للضغط السياسى والاستبداد الذى نـالهم فى عهد هيرود، ومن أجله ولـوا وجوههم شطر الحيـاة الأخرى المرتقبـة، وهى موكـولة للعنـاية الالهيـة التى تعيـدهم إلى عدالـة شاملـة، وارتبطت هذه الفكرة لديهم بنزول المسيح المخلص الذى يملأ حياة اسرائيل ثم الأرض كلها عـدلا ورحمة بعد أن ملئت جـورا وقسوة، ولكن الـذى كان يعنيهم هو رد حقوق الاسرائيليين إليهم .

واتسمت هـذه الفرقـة بالتسليم المطلق، والإيمان بـالقضـاء والقـدر وأن الانسـان لايستطيع أن يغير شيئا ممـا كتب عليه أوله من قبل، وحيـاته كلها بيد المقـادير ولا اختيـار له، وعلى المؤمن أن يتـذرع بالصبر ويـرتقب إنقاذ السماء، أو المعجـزة الإلهيـة، حيث يجد المكـافأة على صبره وحيث نـزلت العدالة والنجـاة على الأرض فإنه يجب ارتقابها من السماء، ولايجوز اليأس منها .

وهـذه الحالة اليـائسـة السلبية نتج عنهـا ظهـور جماعات أخـرى مثل الجماعـة التى عرفت بـاسم الـوثقيين وجماعة وادى القمـران التى كشفت الحفريات الأثرية عنها بجانب البحر الميت منذ أمد غير بعيد .

٥ — الدمشقيون ورهبان وادى القمران

الدمشقيـون جماعة جاءوا من دمشق فجـددوا عهدهم على حياة العـزلة والعبادة والتوسل إلى الله كى يكشف عن الشعب الاسرائيلى ما ناله من ظلم الحكام واستبـدادهم، والآخـرون عرفوا بـاسم جماعـة وادى القمران، لأن [illegible] به، وكشفت آثارهم حديثـا، وقد كان هناك حفـريات تجرى فى هـذه البقـاع، ثم تـوقفت سنـة [illegible]م حيث [illegible] الحرب بين اسرائيل والعرب، وصـدرت عن هذه الجماعات عدة كتب تحمل اسم «لفـائف البحر الميت The Dead Sea Scrolls . وجـاء عنها حـديث كـاف فى كتابى «مـوسى ويـوحنا المعمـدان» من سلسلـة كتب رجـال الحكمة، والصلـة بينهم وبين الدمشقيين قريبة ملحوظة، ونتحدث الآن عن الدمشقيين .

ومعلومـاتنا عن نشـأة هذه الجماعة جـاءت من حفـريات أجريـت سنة ١٨٩٨م فى معبد عـزرا بالقاهرة، فـوجد بها كتابات ألقت ضـوءا على حياة

هذه الجماعة، وأطلق عليهـا اسـم جنيزاه Genezah ، بمعنى المكان المختفى، لأنها وجدت فى مكـان مجهول بهذا المعبـد، وهى مخطوطـات كثيرة بعضـها مكتمل وبعضـها ناقص، وقام بترجمتهـا العالم الكبير الدكتور س.سخيكتر S. Schechtre تم نشرهـــا سنــة ١٨٩٨م، وهى الآن ضمــن مجمـوعـــة من الأثريات فى جامعة كمبردج، ومن محتوياتها كتابات سميت مستندات زادو كايت Zadokite Documents وقد تم نشرها لأول مرة سنة ١٩٠٢، وقد حمل القوم على حفظها والعناية بها ما لها لديهم من قداسة.

وأما عن جماعـة وادى القمران، فإنه مـن قبيل المصادفة عثـر بين لفائف البحـر الميت فى ربيع سنة ١٩٤٧ على مخطـوطات وضحت حيـاتهم، وهى لفائف كـانت مودعة فى مجوفات فخـارية لتحميها من التآكل، وكـانت هذه الجماعات منقطعة للرهبنة والعبـادة، وتنتقل من مكان إلى آخر، فإذا انتقلوا تركوا آنيتهم مغسـولة نظيفة، وتركوا أيضـا ملابسهم وأدواتهم ليستعملها الذين يأتـون بعدهم، وهم يجدون فى الأماكن التى سينتقلون إليهـا ملابس وأدوات أيضـا. وملابس بيضاء خفيفـة، وصلـواتهم وأدعيتهم فى أوقـات منتظمـة وليس لهم رئيس فهم جميعـا متساوون. وأمـرهم شـورى بينهم ونظمهم معروفة مقررة .

وهاتـان الطائفتان ــ الدمشقيـون وأصحاب وادى القمران ــ كانت لهم تعـاليم أخلاقيـة صـارمة يحرصـون عليها، وكـانـوا معا يعتقـدون أنهم يعيشـون فى نهاية الزمن، وأن مجىء المنقـذ المعلم قد أظل أوانه، وهذا المعلم ليس هـو المسيح ولكنه ممهـد لمجيئـه. والمسيح يأتى بعده فيخلص هـؤلاء الصـابرين الطـاهرين، بسبب اعتزالهم الدنيا وبعدهم عن أدنـاسـها، وأيضـا ينزل العقوبة على الآخرين .

ولايزال تـاريخ هـاتين الطـائفتين محل بحث وجدل، ولكن ممـا يتفق عليه الباحثون، أنهما كانتا منفعلتين شديدتى التأثر بأسفار الأبوكريفا، بالرؤيا واليوبيل وابنوخ، أكثر من غيرها، وأنها كانت مصدر تعاليمهما وعقائدهما.

وكشفت لفـائف البحـر الميت أيضـا عما كـان أصحـاب وادى القمـران يؤمنـون به من التنازع الـدائم بين النور والظلام، وبين أبنـائهما، كما كان

ذلك عن الآسيين، مما يفهم أن الجميع لم يكنوا بمعزل عن تعاليم المزوكية والمانوية، ولكن ما وجد لايتعارض مع ما فى الأسفار السابقة.

والذى يؤخذ على هاتين الجماعتين وعلى الآسيين، أنهم جميعا يعارضون فى مسلكهم عقائد اليهودية، فاليهود يؤمنون أنهم شعب الله. وأن الله اختارهم للسيادة على الشعوب، وهم لذلك يعملون ليتغلبوا على الشعوب الأخرى، وأنهم سيتملكون الأرض كلها حيث يكون الأمميون أتباعا لهم، وحياتهم المرتقبة هى هذه السيادة، وبعض فرقهم كما سبق لايؤمنون بالبعث بعد الموت أصلا، أما هؤلاء فدعوا إلى عزلة تامة وبعد عن الجهاد بأى لون ، ثم حرموا الزواج، فعملوا على انقراض جنسهم كما عملوا على ترك الجهاد .

هذه أهم الفرق الدينية اليهودية، وكما هو باد فى حديثهم أكثرهم على صلة بالسياسة اليهودية حتى الفرقتان الأخيرتان كانتا تترقبان مجىء المسيح وعودة المملكة الاسرائيلية .

٦ — الحماسيون The Zealots

اكتسبت هذه الجماعة اسمها مما كان باديا عليها من الغيرة الشديدة على تعاليمها، وأساس أفكارهم هو معارضة القانون الرومانى، والحصول على مزيد وسعة من الحكم الذاتى الذى حصلوا عليه، ودعوا إلى العنف والشدة لتنفيذ مبادئهم فسموا الحماسيين.

كان ظهور هذه الجماعة فى العهد الهيرودى، وكان التذمر من الرومان وأتباعهم يسود الفرق اليهودية جميعا، وإن كانت وطأته أقل عند الصدوقيين، وكان النبى حزقيا قائد حركة المتمردين ومغذيها بخطبه النارية وحماسه الدافق، ولكنه لم ينظم حزبا ذا أشخاص معينين، وقد نفاه هيرود أول عهده كما ذكرنا قبل لخشيته آثار حماسه، ثم تلاه ابنه يهوذا، ويسمى يهوذا الجليلى نسبة إلى الاقليم الذى كان به، وهو الذى نظم الحزب ووضع له مبادئه التى يجرى عليها، ويسمى الحزب لذلك أيضا باسم الجليليين، وحزب يهوذا الجليلى، ومن أهم مبادئه ألايثنيهم شىء عن مأربهم الذى له قداسته وصفته الدينية، ثم حدث بعد ذلك أن استولت

روما على يهودية تـوسعة لمتلكاتها فى سورية، فأثار هـذا الاستيلاء حماسا وغيظا فى نفـوس اليهود، ثم مات هيرود الكبير سنــة ٤م أو على الأصح عام ميلاد المسيح، هـذا لأنه من المعروف أنـه عليه السلام ولـد سنة ٤م أو ٦م وتســابق أبناؤه الثـلاثة على استيـلاء عرشــه، وتدخلت رومـا لا لشـىء إلا لتقرر أن يهودية ملحقة بسوريا .

ونظـرا لاعتماد الحماسيين فى حماسهم وحـركتهم الثـائرة على التـوراة، ظهروا بمظهــر المحامى المدافع عنهــا، وكانت ذريعة نــاجحة لإثـارة التمرد ضد الرومان أعدائها وأعداء الله وأعداء شعبه المختار، وكانوا يرون أنه من الإثم الكبير أن يعتبر اسرائيلى بسيادة روما على يهودية .

وجاء التعـداد أو الاحصاء العــام فلم يـرض عنه اليهـود، لأنهم رأوا فيه تمهيدا لفرض من السيطرة الرومانية عليهم وحصرهـم عبادا للقيصر أو بين عباده، وهذا يخالف الديانة اليهـودية التى لاترى عبادة ولاسيطرة لأحد إلا ليهوه، وقــالوا إن يهوه إذا عبـد غيره أو خضع شعبه لأحـد غير المسوحين لقيـادة شعبه غضب على شعبـه المختــار وسلط عليه أممــا تـذله وتهينــه، وقامت لذلك ثورة جامحة أريق فيها كثير من الدماء .

كانت حـركة هـؤلاء رد فعل إيجابيا للحكم السيىء، ولم يكن استســلاما على نحو ما فعل الآسيون والدمشقيـون وجماعة وادى القمران، وهم الذين ثبتوا فى أذهان الناس أن فلسطين أرض اختارهــا الله لشعبه فهى أرض الله والاعتــداء عليها إثم، والـرضــا بـوضعها فى يـد غير يهوديــة كفر بشريعــة التوراة، ومن المحتمل أن يكون أصحاب القمران من هؤلاء جنح بهم اليأس إلى العـزلـــة ومن المحتمل أن يكـون الحماسيـــون من الآسيين تماثلـوا فى منهجهم القومى .

وكانت العلاقة بين الحماسيين والصــدوقيين سيئة أدتى إلى العداء، وهذا أمر طبيعى لأن الصــدوقيين ـ على ما سبق ــ كانوا يرون مجاراة الـرومان ويحرصــون على ســلامة صلتهــم بهم محافظة على أمــوالهم، فبينما يـرى الحماسيون جهاد الرومــان أمرا مقدسا يراه الصدوقيون مغــامرة واندفاع لا داعى له .

وعلى أى حال أخمدت الثورة ولم يعد جهاد الحماسيين على البلاد بشيء سوى الخسائر .

٧ - السـامـريـون Samerians

هؤلاء سكان السامـرة، فى اسرائيل الشمالية، وهم مزيج من الاسرائيليين والآشوريين ترجع بـدايتهم إلى السبى البابلى الأول، فقد نقل نبـوحز ناصر سكان هـذا الاقليم على ما ذكـرنا قبل ولم يبق إلا الحثـالات، ونقل إلى البلاد أفواجا مختلطة من سقى النهرين، فاختلطوا وهؤلاء با لمصاهرة ونشأ منهم نسل مهجن، وكذلك اختلطت معهم الديـانات، فلما رجع زرو بابل (المولود فى بـابل) ومعه مئـات الكهان وجـدوا هؤلاء القـوم ليسوا على عبـادة يهوه، فأنكروا عبادتهم وأنكروهم وقالوا هم وثنيون وليسوا يهودا، ولما شرعوا فى إعـادة بنـاء الهيكل لم يسمحـوا لهؤلاء السامـريين أن يشـاركـوهم فيـه، ولإصرار هـؤلاء على يهوديتهم بنـوا لهم هيكلا فى جـرزيم وقـام التنـافس والعداء بين الهيكلين وأتبـاعهما، فكان السامـريون يدنسـون بيت المقدس ليصرفوا النـاس عن العبادة فيـه وليوجهـوهم إلى هيكل جرزيم، وظـل هذا الهيكل قائما نحـو مائتى عام، وأخيرا هـدمه كهان بيت المقـدس قبل ميلاد السيد المسيح بنحـو مائة عـام، ثم أعيد أبناؤه وبقـى حتى القرن الخامس الميلادى إذ هدمه الـرومان إثر ثورة لهم، كذلك هدمـوا جرزيم وبنى القائد الرومانى فاسباسيان على أنقاضها المدينة الجديدة «نيوبوليس» نابلس .

والسامريـون لم ينقرضوا إلى الآن، ولهم تقاليدهم الدينيـة الخاصـة، فلا يؤمنـون من التوراة إلا بأسفار موسى ، وفى نسختهم المطبـوعة الآن بعض اختـلافـات عن النسخة المتـداولـة، ونسختهم المقـدسة مكتـوبـة بلغتهم، وعاصمتهم المقدسة موطن هيكلهم، وكـان العداء بين الطائفتين شديدا، وقد اعتبرهم اليهود أنجاسا فلايمسـونهم ولايأكلون طعامهم، وقد عجبت فتاة سامريـة أن يطلب السيد المسيح منها ماء يشربـه لأنه على عكس اليهود لم يرها نجسة .

انظر ما كتبه العقاد عن هذه الطائفة فى «عبقرية المسيح» وانظر دائرة المعارف

والسامريون ينتسبون إلى يعقوب لا إلى داود ، ويرون أنهم وحدهم الخليقون باسم الاسرائيليين، وينكرون مجىء المخلص المرتقب من أورشليم، وهم فى هذا شعبيون ديمقراطيون يؤمنون بالخلاص الروحانى، ويترقبون من أى شخص تأتى به العناية الإلهية على نحو ما يعتقد الآسيون.

٨ — المتنطسون أو الطبيون

اسم هؤلاء مأخوذ من الكلمة The therapeuts بمعنى العلاجيون والأساة، وهؤلاء اسكندريون غالبا، لأن أكثر صوامعهم كانت بمقربة من الاسكندرية عند مريوط القديمة، وحيث اتخذ الرهبان المسيحيون أديرتهم فيما بعد، ولعل هؤلاء أقدم الفرق اليهودية، فمن المرجح أو المتقبل بارتياح أنهم أساتذة الآسيين، وهؤلاء كانوا يجتمعون فقط يوم السبت اجتماعا عاما، ثم يتفرقون إلى صوامعهم ويقضون أوقاتهم فى التأمل والرياضات الروحية، وإذا صح أن الآسيين فرع منهم، فهم قد انفصلوا لأن لهم دعوة إلى القومية ونوعا من الجهاد، وهذا لم يكن يحدث عند قوم يعيشون خارج فلسطين .

٩ — فرق غامضة

ظهرت بعد الآسيين فرق أخرى تشاركهم أبرز صفاتهم من شدة البأس والاصرار على المبدأ، والعزوف عن متع الحياة، ولكنهم فى تفكيرهم الدينى كان يجنحون إلى فكرة خيالية لاسند لها، وهى ظهور شخص موهوب مفوض من الله لانقاذ بنى اسرائيل وإنه سيملأ الأرض عدلاً ، وتكون له السيادة التوجيه والحكم على من بقى من بنى إسرائيل حتى يسودوا العالم كله ، وهذا ما يربط هذه الفرق أو يكون إطارا جامعا لها .

وقد شاعت هذه الأفكار بين الاسرائيليين فى العهد الهيرودى حتى يصعب إرجاعها إلى شخص معين، ولكن صفات هذا العادل المنتظر كانت شائعة

---

(١) Therapeutes lis وهو فن المداواة والتطبيب، Therapy بمعنى معالجة المرضى Thesapeutes

بين الكثيرين، وبعضهـا مشتق من الآسيين، وهذا العـادل كما تحدثوا عنـه لايعرف بالـدقة موعد ظهـوره، ولكنه كان قد أظل، ولايستطيع أحـد تقديم مـوعده ولا تأخيره، وعلى الـذين يـؤمنون بـه أن يتريثوا حتى يحين الموعـد المقرر عند الله .

كـان الشعب اليهـودى فى هـذا الـوقـت يتطلع إلى مخلص، فقـد شق على اليهود أن يـروا أرض الله مليئـة بالـوثنية، وحقـا إن الرومـان تركـوا لهم ممارسة شعائرهم، ولكن اليهـود لايقبلون سيادة عليهم لغير يهوه، وحيث يئسوا من مخلص بشرى ينقذهم اتجهوا إلى مخلص سماوى .

ومن هـذه الجماعات كـانت جماعـة الـدمشقيين ورهبان وادى القمـران الذين سبق ذكـرهم وكان لهؤلاء جميعـا تأثير كبير فى هذا الوقت لـلأسباب التى ذكرت .

الباب التاسع

درات ومواقف دينية

نواة التلمود ومحتوياته

التلمود أوفى مرجع للتعاليم اليهودية عبادات وأخلاقا ومعاملات.. الخ ، واليهود بلا ريب - مدينون فى هذا الكتاب إلى الربانى يهوذا بن سيميون بن جاماليل، (١٣٥ - ٢١٧) وقد رأينا قبل أنه كان يمتاز بالذكاء وعمق الفهم السياسى، وأيضا بمرونة الفكرية، ففى فترة توليه منصب البطريرك وبواسطة المجلس الأعلى فى الجليلى عمل على جمع الروايات والشروح الشفوية، سواء منها ما وضع فى عهده أو وضع قبله، أو فى خارج فلسطين، وربما سميت هذه المجموعة الشاملة «مشنا يهوذا»، وهى تمتاز بمرونتها وشمولها فروع الحياة المختلفة، وبعد ترتيبها وتبويبها سميت «التلمود» وقد كتب التلمود بلغة عبرية سهلة واضحة، لأن الغرض الأساسى منه أن يكون هو المادة التى تجمع شتات اليهود على مختلف طبقاتهم وأماكنهم، فلا بد أن يكون سهل الفهم، وهذه الوحدة المنشودة من ورائه تظل هى الرابطة لهم، وإذا حل مجمعهم قامت هى مقامه.

والتلمود يتكون من المشنا والجمارة.

والمشنا تنقسم إلى ستة أقسام رئيسية Sedarim حسب الموضوعات التى تناولها كل قسم، وكل موضوع ينقسم إلى مقالات Messachet - أو نسخ، ومجموعها كلها ٦٣ مقالة.

والأقسام الستة الرئيسية هى:

١ ـ الزراعـة : وهى تسمى هنـاك باسم البـذور Seeds وفى العبرية Zeraim هذا القسم يتحـدث عن النظم والقوانين المتعلقة بالـزراعة فى شىء من الافاضة والتفصيل، فيتحدث عـن الرى والحرث والحصاد، وينوع ذلك فيذكر زراعـة الحقول والمزروعـات، والحدائق والعنايـة بها سواء كـانت مثمـرة أو غير مثمرة، ويـربط هذه الأعمال بـالعبـادة اليوميـة، ويبين حق الفقـراء فى الحصـاد، ويتحدث مع ذلك عـن حمد الله بعـد الطعـام، وصيغ التبرك التى تتلى فى أوقات مختلفة.

٢ ـ الفصول أو المواعيد: وهى تتحـدث عن تبجيل يوم السبت والعبادة فيه، وعن مـواعيد الصيام، والأعيـاد والاحتفالات، كما يتحـدث عن التقويم اليهودى.

٣ ـ النسـاء (ناشيم) وهو يعـرض قوانين الـزواج والطلاق، والجوانب الجنسية عـامة، ويفصل العـلاقة بين الـزوجين وحق كل منهما على الآخر، وقوانين العيش والطلاق، والنذور .. الخ

٤ ـ الجروح والجنـايات (نـازكين)، وهـو حـديث مستفيض يتنـاول الشئـون المدنيـة وتصرفـات الحيـاة العـامـة، من التعـامل والاعتـداءات، وجزاءات كل عدوان، كما يتنـاول آدابا وأخلاقا مثل حسن التعـامل ورعاية الحقوق، وحقوق الوالدين، وهو باب واسع جدا، يتناول إلى جانب ما ذكرنا عـرض الـوصـايا والتفسيرات الشفـويـة من عهـد مـوسى إلى عهـد هليل وشماى، ويشمل أيضا نظم التقاضى، وقوانين القضاء، مما يجب أن يفعله القاضى والمتقاضون، ونظم التجارة والإبحار والسياسة والاجتماع ـ وهو أوسع الأبواب.

٥ ـ المقـدسات (كـادا شيم) وهو مخصص لأعمال الضحـايا والهيكل ومرافقة، وتنصيب القسس وواجباتهم، كما يتحدث عن الذبائح والأطعمة.

٦ ـ قسم الطهـارات «توهوروت»، وهـو يتحدث عن التطهر والنجـاسة والطاهـر والنجس فى الإنسان والحيوان، والحيـوانات الطاهـرة والنجسة، والأشياء التى تستعمل، وما يجوز أكله من الحيوان وما لا يجوز(١).

Introductisn to yudaism by Iridore Fishman. London 1958 P.P- 30- 1

هذه بإيجاز وعموم هى أقســـام المشنا، وقد أضاف الربـانيون والأحبار إليهـا زيـادات عـرفت بـاسم «التصـافوت» ـــ أى الإضـافـات، ومع هـذه الإضافات لم تحو المشنا كل المأثورات(١).

ويـرى بعض البـاحثين المحـدثين أن بعض أخبـار المشنـا مأخـوذ من مصادر إسلامية فى وقت متأخر، وأخذ اليهود عن العرب ـ كما فعل موسى بن ميمون ـ ليس أمرا مستغربا، والمشنا ظلت مفتوحة للنمو والزيادة حتى العصر الحديث.

وفى قسم المواعيد والمواسـم أحـاديث عن ابـراهيـم وسـارة لم تأت فى التوراة، وقد بالغ الباب فى وصف سـارة بالجمال البالغ حتى إن ابراهيم لم يستطع طـوال مـا عاش معهـا أن يمـلأ عينيـه منها، ويـذكـر لهذا الجمال أعاجيب ونـوادر هى ولا ريب من الخرافات، وجـاء فى بعض نسخ المشنا أن ابـراهيم يشفع لليهود يـوم القيامـة، ويذودهم عن النـار، وهذا ممـا يؤيـد اقتباسها من مصـادر إسلامية.

ويـوجد فى أقسـامها تضـارب من أجْلـه حكم بعض الباحثين بأن أشيـاء أضيفت فى وقت متأخر لم تكن متسقـة مع ما سبق، وقد رأينـا قبل أنها كونت من مقالات عديـدة متفرقة، ورأينا أن رجال المجالس بذلـوا جهودا فى التوفيق بين الروايات المتضـاربة، وقد كان من تسـاهل الفريسيين أنهم قبلوا الشروح والروايات الكثيرة فلم تسلم من التضـارب رغم ما بذل فى تمحيصها.

ومهما يكن من أمر هذه الروايات الشفويـة والكتابات فقد اتخذت مكانة تلى التـوراة فى قداستهـا، ومنذ عهـد الربـاى يهوذا بن سيميون، كـان لها المكانة الأولى فى المدارس اليهودية، سواء فى فلسطين أو فى بابل.

الجمـــارا ـ Josefto

الجمارا ـ أو الاضـافات ـ مجمـوعة أخـرى ضمت إلى المشنا واستقلت بهذا الاسم. وأصلهـا من عمل المعلمين الذين كـانوا فى عصر الـرباى يهوذا ولم يكونوا فى مجلسه، فقد عملـوا من جانبهم على جمع روايات أقل شهرة، كما جمعوا الـروايات التى استبعـدها يهوذا من مشنـاه، ولكن هذه لم تكن

(1) Introductisn to yudaism by Iridore Fishman. London 1958 P.P- 30- 1

قليلة الأهميـة، ولا مما يليق التخلى عنــه، ومنها أقـوال وروايات نجمت عن مـدرسـة عقيبـا واسماعيل ونسجـت حـولها شروح وتفـاسـير من أقـوال المعلمين Amoraim ـــ فـرأى الـدارسـون أن يجمعـوا ذلك كلـه مع بعض الأحكام الشرعيـة Halachath، والاجابـات عن المشاكل التى عـرضت، كل ذلك جمع أخيرا وكـون الجمارا ـ وهـى بمعنى الانهاءوالانجـان، وهى كما واضح وسعت المشنـا، لأنها تحوى أحكامـا ومـواد ليست فى المشنا، منهـا القديم الذى لم يأخذه يهوذا، ومنها المستحدث.

ومن المشنا والجمارا تكون التلمود.

ولم تجمع الجمارا إلا بعد ٣٠٠ عـام من اكتمال المشنا، وقد كـان هناك جدال طـويل بين المفسرين حول المواد التى تكـونت منها الجمارا، لأنها مع انها مجمعة من الروايـات الشفوية والمشنا كان يـراد أن تكون معتمدة على نصوص التوارة. وقد كتبت باللغة الآرامية.

تنقيحات وإضافات مستمرة

استمر المعلمـون والربانيون ينقحـون مواد التلمود ويضيفـون إليها، وظل هذا النشاط دائبا فى كلتا المدرستين: الفلسطينيـة ـ والبابلية، وظهر فى هـذا الميدان ربـانيون ومعلمـون ظفروا بشهـرة، وأضافـوا إلى المقدسـات اليهوديـة آثارا قيمة من الشروح، فى بـابل بلغ النشاط المكثف قمتـه على يد المعلم أبـاى (٢٨٣ ـ ٣٣٨)م والمعلـم رابا (٢٩٩ ـــ ٣٥٢) ـــ وكان رابـا ذا بلاغـة وظلت طريقته متبعـة وذات أثر على المعلمين من بعـده، وكثر الشراح مقتدين بهذين حتى تراكمت الشروح، واحتـاجت إلى تنقيح جديد وتصفية، فظهر معلمـون جدد لا يشرحون النصـوص القديمـة بل ينقحون الشروح ويفاضلـون بينها ويختـارون، وبرز فى هذا الميـدان المعلم راب آشى Rab Ashi ت ٤٢٧، وقد رأس أكاديمية سـورا Sura أكثر من خمسين عاما، وإليه ينسب معظم التلمود البابلى، وتلاه خلفاء أشهـرهم رابينا الثانى ـ ٥٠٠م ـ وهو آخـر المعلمين وآخر من علم التـوراة معتمدا على الـروايات الشفـوية، ويشرحه وصل التلمـود إلى نهايته تقريبـا، ولكن بقيت الشروح والتعليقات مستمرة.

كارثة اليهود فى بابل

تعرض يهود بابل كما تعرض يهود فلسطين خلال القرنين الخامس والسادس ق.م إلى محن أليمة، فبعد موت الربانى آشى Ashi (٥٠٠م) فتر النشاط اليهوى، وقوى خطر المزدكية فى بلاد فارس وهو قد بدأ فى حياة آشى ولكنه اشتد بعده، فقد انقاد الكسرى يزدجرد الثانى (٤٣٨ ـ ٥٧) إلى تحريض المجوس عباد النار على محاربة الأديان الأخرى ـ عدا المجوسية، ونال اليهود من اضطهاده ما لم ينله أتباع الأديان الأخرى، لشدة اصرارهم على دينهم وعلى عنصريتهم، ولما خلفه ابنه فيروز (٤٥٩ ـــ ٨٦) بلغ اضطهاد اليهود ذروته، فأغلقت مدارسهم وشدد تشديدا أكثر على أكاديمية صورا.

وفى أول القرن السادس ٥٠١م وعقب موت آشى مباشرة طغى مذهب مزدك الشيوعى الذى جعل الممتلكات والنساء حظا مشاعا بين الناس، ففرح به الأوباش والرعاع والتفوا حول دعاته طمعا فى الكسب الرخيص، ونال اليهود اضطهاد أعنف. ولكن مدة مزدك لم تطل فقد مات سنة ٥٢٨م، ويتنفس اليهود الصعداء من جديد، وظهر بينهم معلمون جدد كانوا يسمون ساباريم Sabaraim ـ وهى كلمة عبرية تعنى المفكرين أو المتأملين، لأنهم كانوا يطيلون التأمل والتفكير فى أقوال المعلمين السابقين التى فى التلمود، ويضيفون إليها بناء على تأملاتهم شروحا جديدة، وبهذا صار اليهود يعيشون على الماضى وحده، وشاعت بينهم فى هذا الوقت رذائل ربما لضعف الدعاة، ولآثار المزدكية.

ثم تلا ذلك أن دخل الإسلام البلاد وتحول معظم السكان إليه، لكن الحكام المسلمين تركوا اليهود والمسيحيين كلا على ديانته وكذلك تركوا الصابئة لأنهم فى الأصل مسيحيون[1]، فبقيت لليهود معابدهم وأعادوا ما كان قد هدم على عهد يزدجرد وفيروز، لكن مراكز اليهود الروحية فى بابل ـ وأيضا فى فلسطين كانت قد فقدت تأثيرها وفاعليتها، ولم يعد اليهود

(١) انظر الخراج لأبى يوسف.

الناءون يشرئبـون إليها ويستقـون منها عظاتهم وتـوجيهاتهم كما كـانوا يفعلون من قبل، وكانت هذه المراكز تعمل على الاتصال بهم وإقامة الروابط بينهم، فكان التلمود وحـده هو الذى يؤدى هذه المهمـة، وظلت تعاليمه هى الاطار الـذى يجمعهم. وقد تعجب لشـدة تمسكهم بمبادىء التلمـود، لكننا لا ننسى أنها نبتت فيهم دائما أنهم شعـب مختـار، وأنها تغـذى نـزعتهم العصبية التى بها كانوا يترابطون، ويعيشـون معا فى أحياء خاصـة.

حركة القرائين

انبعثت هذه الحركـة حول منتصف القـرن الثامن الميـلادى فى العراق، وكانت استجابة لصيحة حبر يهودى يدعى عنان بن داود Anan ben Dawid. وكـان من عمله أنـه أنكـر التفسيرات الشفويـة ودعـا إلى نبذ التلمـود وكل الفـروع الشفـويـة الأخـرى. ويبدو أنـه كـان متأثـرا بـآراء الصـدوقيين ومذهبهم، فدعـا إليه، ولاقت دعوته أنصـارا كثيرين باتت الديانـة اليهودية من أجلهم مهددة بالانقسـام، واتهم هو بالردة والـرغبة فى التخريب، ولكن أخاه أصغر منه وقف بجـانبه، ودعا إلى مذهبه ونال المذهب بـه أتباعا أكثر، وهى حركـة تشبه حركـة مارتن لوثر، لأنـه دعا إلى الكتاب المقـدس وحده واعتبر كل الروايات الشفوية غير صـالحة، ولا يجوز الرجوع إليها.

وأنصـار هذا المذهـب سموا القـرائين Karaits. تمييـزا لهم عن المذاهب الأخرى. وكـانت لهم تعاليم صـارمـة عنيفة من أهمها اعتـزال العمل نهائيا يـوم السبت عمـلا بما فى سفـر الخروج: «سـتـة أيـام تعمل وتصنـع جميع عملك، وأمـا اليوم السـابع ففيـه سبت للـرب إلهك، لا تصنـع عملا مـا أنت وابنك وابنتك، وعبـدك وبهيمتك وتزيلك الذى داخـل أبوابك»(١) ـ وأيضـا «ستة أيام يعمل عمل، وأما اليوم السابع ففيه يكون لكم سبت عطلة مقدس للرب، كل من يعمل فيـه عملا يقتل، لا تشعلوا نارا فى جميع مسـاكنكم يوم السبت»(٢).

(١) الاصحاح العشرون ٨ ـ ١١.

(٢) نفسه ٣٥ / ٢ ـ ٣، ١٦ / ٢٢ ـ ٣٠

وكـان القراء يطفئـون كل نار فى بيـوتهم بـدءا من مساء الجمعـة وقبل غروب شمسه، لأن اليـوم عند اليهود يبدأ بليله، ويلزمـون البيت طوال يوم السبت لا يعملـون أى شىء، لا ينقل الـــواحـد منهم شيئـا من حجـرة إلى أخـرى، ولا بغسل وجهــه أو يـديه، ولا يلبس حـذاء، ولا معطفـا..» وهكـذا أخذوا بحرفية النص، وكان الفريسيـون من قبل قد خففوا قيود النصوص، فكـان عمل القراء شـاقـا على الناس جـدا، ولكن النـاس كـانوا يقـدرونهم والشبان يقبلون على مـذهبهم ويزداد عددهم. ذلك لثقـة الناس فى دعوتهم التى تعتمد مباشرة على الكتـاب المقدس، وكان المبدأ الذى جـرى عليه عنان إزاء كل مشكلة هو: «ابحث جيدا فى الكتاب المقدس».. ودعا كل فرد أن يفكر بنفسه ويستنتـج بنفسه، وكان ممـا شجع حـركة القرائين أن انضـم اليها ذوو الثقافة العالية، فكثر أتبـاعها فى الأراضى البابلية أولا، ثم جاوزتها إلى جهات أخرى خارج أرض بابل.

وقامت ضجـة كبيرة حول هـذا المذهب لم تمنع من حدتها كثـرة الأتباع ولا انتشـار المذهب خارج أرض بـابل، لأن الفـريسيين كانـوا قد أصبحـوا المذهب الـوحيد، واليهـود جميعا يشعـرون بفضلهم ويحبون تسـامحهم، واضطر عنان أمام هذا الضغط إلى الهجرة إلى أورشليم.

وتكونت فى أورشليم جماعة التفت حول عنان، وعملت ودعت إلى تطبيق نصوص التوراة بكل حـرفية ودقة مهما كانت الصعـوبات التى تترتب على هذا التطبيق، ورفضت النصوص الشفويـة وأبعدت أعمال الربانيين وكل ما يمت إليها من الأحكـام بصلة، وبذا أصبح التلمـود عديم الأثر، وغـالى عنان أكثـر من ذلك فاعتبر الـربانيين خـارجين عن اليهـودية وهـو وإن لم يحكم بردتهم قـولا عاملهم معاملـة المرتدين فحرم الـزواج منهم وتزويجهم وكل اتصـال بهم، كذلك حـرم الصلوات الـدارجـة والأعمال الكنسية التى كـان الربانيون يمارسونها ويعملونها، ودعـا إلى عبادة تقوم على المناجاة وتعتمد على نصوص التـوراة، ولكى يميز أتباعه عن أتبـاع المذاهب الأخرى سماهم الربانيين Rabbanites.

وفى القوانين المدنية والجنـائية طبقوا حرفيـة النص التوراوى بصرامة،

فأصروا على عقــوبــة «العين بـــالعين» ولم يقبلـــوا تفسيرات الـربـــانيين والفريسيين بجـواز الغرامة وأخـذ العوض، ولأن الله قــال لموسى: «أنا ربك الذى نجاك» وحرموا تعاطى الدواء، وقالوا انه مخالفة لإرادة الله الخالق.

مذهب القرائين فيما وراء النهرين

امتــد المذهب القرائى من وقت مبكـر إلى بـلاد فارس لقـربها من أرض بابل، ولكن فى القرن التاسع الميلادى انبعثت حـركة نشيطة على يد بنيامين النهاوندى ـ تلميذ عنان ـ فعمل بقوة على تثبيت المذهب، ولكنه هذ به بعض التهذيب، فمع عـدائه ـ تبعا لأستــاذه ـ للتفسيرات التلموديـة لم يتشدد فى التمسك بحرفية النص مثله، والميزة التى امتاز بها أنه كان ذا نزعة فلسفية، فأدخل فلسفتـه على تعـاليم التوراة، وكســاهــا ثـوبا جـديـدا، ولم يقصر تغييراته على الطقوس والعبادات، بل تعدى بها إلى جوانب عقدية كانت مثار جدل من قبلــه، وظلت أيضا من بعده. وكان عملـه مجرد تحوير فى المذهب، لأنه بتفسيره التـوراة بآراء فلسفيـة وقع فيما عابــه عنان على الـربانيين إذ فسروها بآراء ونقول شفوية.

ومن تفسيراتــه الفلسفية أن اللــه تعالى أسمى من أن يتصل بـا المادة أو بهذا العالم الـدنيوى، ولـذا هو لم يخلق العــالم، وإنما خلقه ملك أمــره الله بخلقه، والفكـرة قديمة لها جـذور فى الفلسفة اليـونانية ولكنــه أقحمها على التوراة فعارض مذهبه الذى يتمسك بحـرفيتها، وقد حملته هذه الفكرة على أن يعتبر نصوص التوراة من الرموز والمجـازات، فابتعد با لمذهب عن أصله ابتعــادا أكثر، وحملتـه فلسفتـه ثانيــا أن ينكـر حيــاة الروح منفصلــة عن الجسد، وبـوجه عـام كان عمل النهاونـدى تحويرا واسعــا لمذهب القرائين وبعدا به عن أصله.

وعاصر النهاوندى متفلسف آخر هو دانيال الخوميسى، وكانت له نزعة أخرى خــالف بها صــاحبيه معــا، سواء فى العقيـدة أو الشريعة، فقـد أنكر النزعة التأملية التى دعا عنان إليها، وكذلـك أنكر النزعة الرمزية التى نادى بها النهاوندى، ولكنه كان فى جملته ذا نزعة فلسفية.

ومن اتجاهــاته الهامــة أنه أنكـر الحســاب الفلكى الذى ابتكـر من قبل

لإثبات بـدايات ونهايـات الشـهور العبريـة[1]، وجعل الاعتماد على الرؤية وحدها، لأنــه لا يعتمد شيئا من أعمال الربانيين اليهود وخـالف النهاوندى فى نقطـة أهم، وهى أنــه أنكـر وجـود الملائكـة نهائيـا، ولكنــه جعل الخلق والافناء من مظـاهر الكون راجعـة إلى قوى الطبيعة، والله هـو الذى يسير هذه القـوى، وحيث ان التوراة تذكـر الملائكة أولها هـو بأنها هى الطبيعة، وبذا لوى نصوص التوراة التى يدعو للتمسك بها.

هؤلاء الثـلاثة الكبار أبـرز علماء المذهب القرائى خلال القـرن التاسـع، وكان لكل واحد منهم مدرسته وأتبـاعه، وبهم تشـقق المذهب وصـار مذاهب مختلفة متضـاربة.

ومن الواضح الآن أن نلاحظ أمورا هامة إزاء هذا المذهب العقلى:

١ ــ انه استهـوى الكثيرين واجتـذبهم إليه، خصـوصـا ذوى الثقافـة العالية الذين يقدرون الحياة العقليـة والتفكير الحر، فهو فى أسـاسه مذهب أرستوقراطى التفكير، ولكن الكثيرين من ذوى الثقافـة المتوسطة أقبلوا عليه حبالة وانـدفاعا وراء المفكرين الكبـار، ثم انضم اليهم من دونهم تبعا لهم، وكانت إبـاحة التفكير وحرية واعتبـار نتائج الفكر مقبـولة لكل شـخص على الرغم من مخالفة غيره فى فكـرته ـ مما أغـرى بالانضمام إليه. وربما أحب الكثيرون أن يظهروا بمظهـر المفكرين الأحرار، وذوى القـدرة على النفاذ إلى بواطن العبارات والتعمق فى فهمها، وهذا سبب ما كان فى المذهب من انقسام وانقسام باستمرار مع أن الاتباع يـزيدون ويزيدون ، حتى كان يخشـى أن يبتلع الفرق اليهوديـة الأخرى، وامتدت فروعه حتى كـان له شعب فى آسيا واسبانيا، ومصر.

٢ ـ كانت هذه الحرية مع الكثرة المتزايدة سببا فى اضمحلال المذهب ثم فنائه، ذلك أنه أتاح لكل فرد أن يتبنــى وينتحل فكرة يعمل بها ويدعو إليها، وهـو يستنبط من النص مـا يهديه إليـه عقله، فكثـر المجتهدون وكثـرت الفروع، ثم ضعفت لهذه التقاسيم، وضعف المذهب كله ثم فنى.

٣ ــ إن هذا المذهب ورث اليهـوديـة آراء كثيرة جدا متضـاربة وأحـدث

---

(١) ابتكره هليل الثانى.

بلبلـة واسعة بين اليهـود، حتى صار من الصعب أن يستقـر الشخص على فكرة من غير أن يجد من يعارضه فيها.

وفى هـذا الوقت ــ الـذى كان يـوازى القرن الثـالث الهجـرى ـ كـانت الفلسفة الإسـلامية قـد برزت، وهى فلسفـة جديـدة استمدت كيـانها من مصـادر عديـدة منهـا الفلسفات القـديمة، هنـديـة وفارسيـة، ويـونانيـة ورومـانيـة، ويهودية إن صـح أن نقول أن لهم فلسفـة مميـزة، وكل هـذه الفلسفات هضمها علماء المسلمين ومزجوها بفلسفة الإسلام وعقيدته فبرز لهم لون فكرى خاص، ثم كانت جامعـاتهم فى اسبانيا وبغداد وغيرها، وقد ناقش المسلمون الـديانات الأخرى وحاجوا اليهود ضمن مـن حاجوا، وبذا ثارت بلبلة جديدة حول الديـانة اليهودية والتراث اليهودى كله، ولم تقتصر المعارضـة والإنكار على الروايـات الشفوية، بـل كانت التوراة بكل مـا فيها موضع نقد. ونحن نعرف موقف اليهـود من الهليستينية، وكيف تبناها قوم وأنكـرها آخـرون، وكـان تيار الفكـر الإسـلامى فى هـذا العصر قد اشتـد وشـاعت أفكاره، فأصبح يمثل خطـرا على اليهوديـة واليهود، لأنـه لم يكن معروفـا فقط عند المفكـرين ومن يدركون معـانى الفلسفة، بل شمل عـامة اليهود، وتناول التـوراة بالنقد واتهمها، فأصبـح الاعتراض على نصوصـها يسمع من رجل الشـارع. وإزاء هــذا الموقف اتجه الـربـانيـون إلى درس الفلسفة محاولين أن يـلائموا بين مسائلهـا وبين نصوص التـوراة، وكانت هذه المحاولة فى أبرز صورها عند علمين كبيرين ـ سنذكرهما بعد ـ أحدهما من القرائين الـذين عارضوا الـربانيين ورفضـوا آراءهم وشروحهم، وهو ـ هيوى البلخى ـ والثـانى من الربانيين الذين اعتنقوا الفلسفة، وهـو سعديا بن يوسف الفيومى.

ونرجىء الحديث عنهما إلى فصل الحديث عن الفلسفة اليهودية.

نزعة سلبية صوفية

ظهرت هذه النزعة فى القرن الثـامن عشر، وكانت ذات أثر فى تطور حياة اليهود وعلاقتهم بـالآخرين، وربما كانت راجعة إلى حـركة الاضطهاد التى كانت قد سـادت معظم أو كل الشعوب الأوربية ضد اليهـود قبل ذلك، فقد

نشأ عن هذه الكراهة التى سبق ذكرها هجرة اليهود وتشتتهم، كما نشأ عنها انعزالهم وتكوفهم على أنفسهم بعيدا عن مجتمعاتهم، وقد تكون هذه الحركة الصوفية راجعة إلى طبيعة الشخص الذى بدأها، والصفات النفسية التى تميز بها، ولكن لا يمكن أن نغفل آثار الحركة الأولى وما نشأ عنها من عزلة وتشتت، فإن لم تكن هى السبب الرئيسى فهى سبب مساعد.

ومنشىء هذه الحركة شخص كان يدعى: «إسرائيل بعل شم» وهو عابد متصوف عاش بين سنتى ١٧٠٠، ١٧٦٠م، وكان يعيش فى مقاطعة كارباثيان Cerpathian، فى شمال البلقان، ولا يعرف إن كانت موطنه الأصلى أو هو هاجر إليها، كانت عيشته صوفية زاهدة أدنى إلى الرهبنة، قوامها العبادة والتأمل، وقد اجتذب إليه عددا من مقدرى طريقته، انضموا إليه تلاميذ وحواريين، وعاشوا مثله هذه الحياة البسيطة الزاهدة المتقشفة، وشغلوا مثله بالعبادة والتفكير، ثم تكاثر أتباعه من قريب ومن بعيد، وشأن الذين يسلكون هذا المسلك العبادى، نسبت إليه معجزات وخوارق تناقلها الناس، وزادوا عليها أو زينوها، مما أشاع الطريقة ودعا إليها الكثيرين.

وبعد موته سنة ١٧٦٠م قام بالدعوة الرباى باير Baer، فوسع دائرتها، وأكسبها إيجابية أكثر، فنظم ارساليات بدأت فى أوكرانيا، وانتشر نشاطها فى أجزاء كثيرة فى أنحاء أوربا الشرقية.

وأعتبرت هذه الحركة امتدادا لحركة العباد Hassidims التى ظهرت فى العصر الهللينى، والتى قاومت تيار الهللستينية، وانبثقت منها على ما ذكرنا فرقة الفريسيين وسمى القائمون بها باسم العُبَّاد أو الأتقياء، وهم الذين أضفوا على أسفار التوراة الأولى - أسفار موسى - صفة القداسة والبهاء وهذا مجرد إعتبار.

ولا يبدو أن هذه الحركة كانت امتدادا لحركة العباد، ولكنها قطعا منفعلة بها، وهى منفعلة أكثر بحركة أخرى سبقت تتصف بالصوفية والعبادة وهى حركة أو جماعة القبالة The Kabbaleh وكلتا الحركتين ذات صبغة فلسفية وصوفية ، ولكن الحركة الحديثة لم تخل من الفكر اليونانى ومن عناصر أخرى ربما كانت هندية أو فيثاغورية.

ومن أبرز تعاليمهم ـ أو هو أبرزها ـ أنها تفترض وجود وسيط بين الله وبين المخلوقات، وسمـوه القديس أو الصديق Zaddik ـ وقالـوا إنه شخص يتصف بالتقوى والـورع، وإن حياته روحانية أكثر منهـا مادية، ويحصل المريـدون من خلالـه على الرحمة الإلهيـة، وفضل اللـه، وهو ذو قـدرة على الاتحاد بـالالـه، ويستطيع ذوو الاستعـداد الـروحى أن ينمـوا صفـاتهم ومقدرتهم الروحية بواسطته.

ولهؤلاء العبـاد نزعـة أخـرى إذ يقررون أن الاشعـاع الالهى إنما ينشأ وينمـو من خلال التفكير فى الـذات الالهيـة، كما أن هذا الاشعـاع ينتقل من الأستاذ إلى مزيده، ـ وهذه الحالـة الأخيرة مقررة فى البوذية أيضا من قبل ـ وقد جعـل هؤلاء الأستـاذ الصوفى مصدر تشريـع كما هو مصـدر إشعاع، وأحلـوه محل التـوراة ومحل الـربانيين المفسريـن، وهذا مـا أثـار غضبـة المحافظين من أرثـوذوكس اليهود عليهم، وهو أهم أسباب الاثـارة، فأعلنوا سخطهم وانكـارهم لهذه الطـريقة، وأثـاروا كـراهيـة واضطهادات عنيفـة واسعة ضدهم.

وقلنا ان العنـاصر الهندية باديـة فى هذا المذهب، وأبرزهـا الفكر الجينى والفيثاغـورى، فهم يدينون بالحلـول، ويرون ان الله حـال فى كل مخلوق حتى المخلـوقات الدنيئـة والقذرة، والأشخـاص المذنبين، وواجب التقى أن يحبهم جميعـا ويحترمهم من أجـل الـروح الالهى الـذى حل فيهم، ولأنهم أخوتـه فيهم الروح الذى فيـه، ولكن واجبه أيضـا أن يعمل جهده للتخلص من أى اثم، وألا يكون مثل هـؤلاء المذنبين، ولأن الروح الالهية ماثلـة أمامه دائما. وباديـة فى كل كائن حى، لا بد أن يشرب روحه البهجـة والفرح، إذ لا يليق بمن فى حضرة الهية أن يكون عابسا أو مهموما، أما انكار الذات والذلة والتواضـع فهى أسس المذهب الأولى وقواعده.

وقد ظهـر لهذه الحركة أثـر واسـع فى التأثير فى حيـاة المنتمين إليها، وفى زيادة عددهم زيـادة مطردة، ثم انها أشاعت بينهم سلوكـا نقيا نظيفا، كما أضافت إلى عبادتهم عنصرا جديـدا يقوم على الصوفية والتقشف، وأهم من هـذا انها لم تجعلهـا طريقـة خـاصـة بطـائفة معينـة، تعيش على العبـادة

وللعبادة فقط، بل أشاعت هذا السلوك الطيب بقدر ما استطاعت بين الشعب اليهودى، ومن ميزاتها أنها وجهت أتباعها ومحبيها إلى ثقافة لاهوتية، وكان هذا الاتجاه ذا أثر كبير فى وضع قواعد أخلاقية جديدة بين اليهود، ووجهتهم توجيها سلوكيا جديدا، إذ حملتهم على حسن معاملة الآخرين لأنهم بسبب ما يعتقدونه من أنهم شعب مختار مميز، لا يبالون بما يسىء الآخرين فى سبيل مصالحهم، ويبدو أن هذه النزعة خففت قليلا من حدة النفور منهم. ولكنهم مع هذا ظلوا حتى أواخر القرن الثامن عشر طائفة بغيضة تعيش حياة أدنى إلى العزلة، يعاملون الناس ويختلطون بهم، ولكن الناس يعاملونهم على حذر، وهم لهم مجتمعاتهم الخاصة ولقاءاتهم وقراراتهم التى لا يطلع عليها الآخرون.

طفرة فى القرن التاسع عشر

فى هذا القرن تغير فجأة موقف اليهود، فبرزوا من عزلتهم، وبدأ الناس فى أوربا وأمريكا يقبلونهم مواطنين، وقد كان للثورتين الكبيرتين، الثورة الفرنسية. وثورة تحرير العبيد فى أمريكا أكبر الأثر فى هذا التغير، فعلى إثرهما شاع بين الناس شىء من التسامح، وزال الفرق الواسع بين الطبقات وزال كثير من كراهة الناس لمن كانوا يعدون أنفسهم ممتازين، وسهل مع ذلك كله ظهور اليهود واندماجهم بالشعوب التى يعيشون بينها، وقبلوا فى البلاد الأوربية مواطنين لهم الحقوق التى للآخرين.

ومع تقدم الحركة الصناعية والثقافية الحديثة عامة ظهرت لليهود مواهب فى مجالات كثيرة، وفى كل جامعة ومصنع وعمل برز أشخاص من اليهود أحرزوا تفوقا، وكان هناك تأثير متبادل بينهم وبين البيئات التى عاشوا فيها لذلك، ففى كل فرع من فروع الثقافة علمى أو فلسفى ظهر نوابغ من اليهود علموا وألفوا وأنشأوا المتاجر ومهروا فى الطب، مما هيأ اختلاطهم أكثر بالآخرين، ودل اتجاههم الفكرى على أن معاناة الاضطهاد الطويل جعلتهم يعتمدون على مواهبهم وتفكيرهم الخاص - وألف الناس أيضا معاملتهم للاستفادة منهم، غير أن اليهود رغم تغلغلهم فى كل جوانب الحياة ظلت لقاءاتهم المغلقة مستمرة، وظلوا يعملون على تحقيق مملكتهم

المنشـودة، وظل تعصبهم فيما بينهم يـزداد ويقـوى، فكل يهودى يـؤثـر التعامل مع أخيه اليهودى، ويعمل على نفعه وصالحه حتى لو كان ذلك مما يضر بالآخرين.

وكثـر فى البلاد الأوربيـة أصحاب المتـاجـر والمحال الكبرى والمصـانع فاستخدمـوا وواظفوا بها كثيرين من غير اليهود مما أشعـر بالحاجة إليهم وأنشأ ألفة بينهم وبين الناس.

وفى سنـة ١٩٦٥م حصلوا من البـابا لـويس السادس على قـرار ببراءة اليهـود المعاصرين من دم المسيح، فكـان ذلك عامـلا كبيرا فى إزالة الجفـوة بينهم وبين الأوربيين.

ونذكر بعضا من فلاسفتهم بعد..

الطقوس والعبادات اليهودية

اليهود من أشد الشعوب تمسكا بشعائرهم الـدينية، فالدين عندهم هو الحيـاة والحيـاة هى الـدين، ولـذا فإنهم على الـرغم من تشتتهم فى أنحـاء الأرض وتبـاعـد بعضهم عن بعض فى تـاريخهم الطويـل القاسى ـــ ظلـوا محتفظين بهذه الشعـائر والطقـــوس. فهم يقـــرأون التـوراة، ويحضرون معابدهم Synegogues ويحفظون قداسة يوم السبت، وعيد الفصح Pass over ويصومون الأيـام المقدسة.. كما كان أســلافهم يفعلون على مهد المسيح فى الناصرة أو أورشليم. والفرق الـوحيد بين اليهود بعد سنـة ٧٠م ومن كانوا قبلهم، أن هؤلاء ليس لديهم هيكل يقدمون أمـامه القرابين، فمنذ هدم القائد الـرومانـى تيطس معبدهم فى سنـة ٧٠م وهم بغير هيكل ولا يستطيعـون تقديم الضحـايا، والآن وبعد أن قامت لهم دولـة فى فلسطين يحاولون إزالة المسجد الأقصى فى القدس ليقيموا مكانه هيكلا على نسق هيكل سليمان، إذ هم يعتقدون أن المسجـد الأقصى قائم فى هـذا المكان المقدس لـديهم مكان الهيكل The Temple.

واليهود المحـدثون ليـس لديهم قساوسـة، ولا أعمال قسـاوسـة، ولكن لديهم الربانيون. والكتب المقدسـة Scribes: ويوجد إلى الآن من يعلنون أنهم من سلالة الأسرة الموكل إليها دعوة الدين ـ قبيلة لاوى بن يعقوب.

وفى المعبد يقوم الـربانى Rabbi بتدريس القــانون والتوراة أى الوصــايا العشر والأسفار الخمســة الأولى من الكتاب المقدس، ولا تزال مخطـوطاتها باللغة العبرية تحفظ فى لفائف لدى الـربانيين وفى المعابد. ومهما طال عليها القِـدم فلا يجوز إعـدامهــا، فإما أن تصلح وتجدد وإمــا أن تـوضـع جانبــا محفوظة، ذلك لأنها تحمل اسم اللـه، وأى شىء يحمل اسم الله لا يجوز أن يتلف أو يحطم Destreyed.

وفى داخل المعبد توجد صفوف من المقــاعد أو الكراسى على نحو ما نجد فى الكنائس، ولكن النساء يجلسن على رفارف منعزلة Gallery ـ كالتى توجد فى مساجد المسلمين، لأن العبادة فى اليهوديــة أساسا من الرجال. وهم دائما يتجهـون إلى بيت المقدس بـوجوههم، وفى الجدار الـذى يكـون نحـو بيت المقدس تـوجد مشكـاة أو طاقة، تحفظ فيهـا لفائف التـوراة، وعليها تكتب الوصايا العشر، حيث يحفظها بـاب ويغطى بستارة مزركشة بأجمل الحلى. وتوجـد أمامها مصطبــة أو ما يشبه المنصــة يقف فوقها قــارىء التوراة فى المناسبات التى يحتفى فيها أيام السبت والأعياد.

وهنــاك المنبر الـذى يقف عليــه رئيس جوقــة الأنــاشيـد The Conter أو الواعظ. وبعد المقدمة الغنائية يحمل أكبر القوم سنا لفائف التوراة ويمر بها أمام الجالسين فيقفون جميعــا، وعندما يوازى الــواحد منهم ينحنى راكعا. ثم يقدمها إلى الواعظ فوق المنبر، والقراءة تكون من الربانى أو أحد المسنين بنغمة غنائيــة ويتبع هذا التقليد أن كل شاب ممن يتخصصــون للوعظ لابد أن يتعلم اللغة العبريــة حتى يمكن أن يؤدى دوره فى قــراءة التوراة والتغنى بها فى الوقت المناسب. وفى معــابد كثيرة يبدأ القراءة شاب من الـذين تدربوا أو أعدوا لهذه القراءة أمام الجماهير.

وحياة الأسرة عنــد اليهود ذات أهميــة كبيرة، إذ الأطفال لـديهم هبة من الله، وفى أيام تكوين العهد القديم كان الآباء يعتقدون أن أسماءهم تبقى مع أبنائهم الذكـورة ومن هنا نلمح السر فى أن بعض اليهود ـــ وخصوصا أكبر الأولاد يشغلـون مكانــا فى حيــاة الأسرة وفى قيــادة التعبد فى السينــاجـوج (المعبد).

وقراءة التـوراة أو القانون تتبع قوانين خـاصة، ومنها أن يقـرأ كل يوم قدر من التوراة حتى تتم قراءتها فى نهايـة العام. والتوراة هنا تعنى أسفار موسى الخمســة التى فى أول العهد القـديم، وهناك كتاب الصــلاة أو كتاب العبادة اليهودية الذى يتبعه العبـاد، وفيه أن القراءة التوراوية تحدث ثلاث مرات فى اليـوم، عند غـروب الشمس، وهو بـداية اليـوم عند اليهـود. وعند الصباح ثم بعد الظهر.

وعبادة يوم السبت تتبع نظاما مغينا وعبادة أكبر.

واليهودى عادة يؤمن بالله، وبـالعهد الذى عقده مع يعقوب كما جاء فى توراة موسى ثم بـالقانون «التوراة» التى أمر الله إسرائيل أن يـرعاها. وفى مـواضع كثيرة من التـوراة نجـد التصريح بأن اللــه رب إسرائيل يـرعـاهـم ويخصهم بعناية.

أما الأمم الأخـرى فلها آلهتها، وفى نحو منتصف القـرن السادس ق.م. أعلن الأنبياء الإسرائيليون أن يهوه (جهوفا) إله واحد ما للمخلوقين جميعا، وبمرور الـزمن أصبح اليهود جميعا يعتقـدون ذلك. ولهذا تتضمن العبادة فى المعابـد الإيمان بالاله الـواحد القديـر الذى خلصهم من السبى فى مصر، وقادهم إلى أرض المعـاد وظل يرعاهم فى محنهم وفى كل مـواقفهم، ولا تزال كلمة اللــه مرعية لديهم كما كـانت عند آبائهم وأقوال الـربانيين والمفسرين القــدامي لا تـزال مرعيــة، وهــذه الأقــوال لا تخرج عن كـونها تفسيرات للتوراة.

وفى القرن الثانى بعد المسيـح قام الربانى. يهوذا Judeh، باختيار وجمع معظم هذه الأقوال، وسميت مجموعة المشنا «بمعنى التثنية والإعادة Repetition» فصارت مـرعية مقدســة بعد ذلك، وهى فى الـواقع تشمل كل جزء من حيـاة الشخص اليهـودى من الأشيـاء الهامــة مثل مســاعـدة الفقير حتى الأشياء الهينة مثل كيـف يعبد العامل الله وهو رأس جـدار نبيه أو يعمل فى حقله أو فى مصنعــه وبالنسبة لليهـودى المحدث المستقيم يقع التلمـود بعد التوراة مصدرا أسـاسيا أعظم للعقيدة والعبادة والطقوس الدينية جميعا .

من صور العبادة اليهودية

يوم السبت هو يوم العبادة عند اليهودية أو هو اليوم الاسبوعى المقدس، وهو كما ذكرنا يبدأ من ليلته، فعند غروب الشمس من يوم الجمعة تبدأ ربة البيت فى إشعال شموع السبت، وتسمى نور السبت أو أضواء السبت. The Sabbath light وهى مصابيح خاصة أو أضواء زائدة عما هو معتاد. وأثناء هذه الاضاءة تدعو صلاتها أن يبارك الله عملها وأسرتها. والصيغة المألوفة لديهم هى: ياالله ياربنا، يامالك الكون، يامن قدستنا بوصاياك، وأوصيتنا أن نضىء يوم السبت.

وكلمة سبت معناها الراحة، ولذا فهذا اليوم يوم الراحة من الأعمال. والاحتفال الدينى للأسرة، ومع أن كثيرا من الأعمال يحرم مزاولتها، ليس اليوم يوم كآبة، بل هو وقت سرور وبهجة، ويستمر هذا اليوم حتى غروب شمسه، وإذا كان الزوج والأولاد فى المنزل. فانهم يطيفون بالأم حين توقد شموع السبت، وإذا كانوا فى المعبد فإنهم يعودون ليجدوا مائدتهم معدة. ويبدأ الزوج يرتل دعاءه لزوجته الطيبة الطاهرة، ثم يقرأ بعض فقار من سفر التكوين مما يتعلق ببدء الخليقة والراحة يوم السبت، ثم يتناول كوبه من النبيذ فيصلى عليها ذاكرا اسم الله ويباركها. ثم يقدمها لزوجته ولأولاده، ثم يتناول رغيفا فيقرأ عليه أيضا ويباركه ثم يقسمه بين أفراد الأسرة، ثم يتلو ذلك طعام العشاء. والديانة اليهودية تعنى عناية كبيرة بالأسرة، وصلاتهم الاسبوعية لا تستدعى قسسا ولا راهبات، ومن الدعاء المتبع: ياالله بارك أرضنا واجعلها مثمرة وكثر نتاجها - وهذا يوضح مدى ما تقوم عليه الديانة اليهودية من النزعة المادية. والعالم المادى عند اليهود ذو قيمة كبيرة، وما ينتجه من الأرض هو للتمتع به، ولهذا فإن الطعام والجنس وكل الأشياء الجيدة المستطابة مباركة لديهم. وكثير من أعيادهم أعياد أسرة، وذلك لأسباب تاريخية لديهم.

ويبدأ الاحتفال السبتى فى المعبد أيضا من مساء الجمعة، ولكن لا تحرص النساء على حضوره دائما، والمعبد اليهودى يسمى «سيناجوج Synagogue وهى كلمة اغريقية تعنى الاجتماع. وهذا يوحى أن المعبد

اليهودى لم يبن ولم يظهر فى عبادتهم إلا منـذ كانوا تحت حكم الاغريق من القرن الرابـع إلى القرن الثانى ق.م. وكانت تـوجد معابد يهوديـة عديدة فى القـرى وفى المدن، لكن الملك جـوزيـا Josia ٦٢٠ ق.م. كـان يـريـد تحطيم المعابد التى ليست فى أورشليم ـ بسبب مـا كان بها من الوثنيات. ولهذا ركز العبادة فى المعبد الرئيسى.

ومن سنة ٥٨٦ ق.م ـ إلى سنة ٥٣٨ ـ نفـى اليهود إلى بابل، وهناك بنوا لهم معابد خاصـة هذا بينما اتجه يهود آخرون إلى السكنى فى مصر وغيرها حتى وصلوا إلى رومـا ـ وحيثما حلوا بنوا معابـد، وحتى فى فلسطين نفسها حلت المعابد المستجدة مكان المعبد الأصلى، وفى عهد المسيح كانت العبادة فى السيناجوج شيئا مألوفا، وفى أورشليم كانت توجد معابد شتى.

ومبنى المعبد على أى حـال يكون مستطيلا غـالبا أو مربعـا، وفى الجهة التى تكـون مواجهـة لبيت المقدس تكـون الطـاقة التى تحفظ فيهـا أوراق التوراة. وتـوضـع كراسى العباد على جـوانب الجدرن الثلاثـة بحيث يكون الجالس عليها مـواجها للجـدار الذى بـه طاقـة التوراة.. والطـاقة التى بها أوراق التوراة تمثل صيـوانا، أو فجـوة تغطيها ستارة أو بـاب حديـدى به قضبان مربعة مستطيلة ومستعرضة، وأمامه مصباح لا يطفأأبدا. وتوضع فى الطاقة لفـائف التوراة أو لفائف القانون مكتـوبة باللغة العبريـة، وتوجد منصة أو تـرابيزة Bemo ـ يقف أمـامها قارىء القـانون أو الـداعى يتلو الدعاء. وقـد يقف مواجها للطاقـة أو أمامها، وبعض المعابـد الحديثة تتخذ موسيقيين أو جوقة خلف الستار، وبعض المعابد تتخذ رفارف Galleries.. ـ حـول الجدران الثلاثة، وهى مخصصـة للإناث، والمحافظـون السنيون يحرصـون على ذلك، وقد يـوضـع أمـام هذه الـرفـارف حواجـز حـديديـة متشابكة، ولكن غـالبا تكون مفتوحة، وفى المعابـد الجديثة المتحررة يجلس النسـاء فى الاسفل مع الـرجال، وأثنـاء الصـلاة يلبس الـرجال أغطيـة على رؤوسهم، ويلفـون على أكتافهم شيـلانا بيضـاء تعرف بشيـلان الصلاة، ولكن المعابد الحديثة تسمح لزوارها أن يتركوا هذا الغطاء.

والنسـاء يلبسن القبعات، ولـو أن ذلك غير محتم فى المعـابد الجديثـة ـ

وليس للنســاء شيلان للصلاة ولا يـوضـع فى المعـابد اليهوديـة تماثيل ولا صور، لأن من الوصايا « أن لا تضع لك صورا منحوتة».

وقد توجـد نوافذ من الزجـاج الذى لا يرى ما وراءه، وقـد يرسم عليها نماذج من التوراة أو الشمعـدان ذى السبعة رءوس. وفى كل المعـابد تـوجد الأخشـــاب المتراكبـــة تملأ الجدران وتنقش عليهـــا الكلمات الأولى من كل وصية من الوصايا العشر مكتوبة بالحروف العبرية المربعة.

ورئيس المعبد يسمى الرباى Rabbai وهو الرئيس الـدينى ولكنه يقوم بالتعليم حتى ليبدو معلما أكثـر مما يبدو إمامـا دينيا ـ ويوجـد أيضا كهنة Cohens لهم منصب شرف أكثر مما لهم من الوضـع الرسمى. وصاحب المنصب الرسمى الأعلى هو الذى يلقى الدروس الدينية ويتلو الصلوات على المستمعين. والمعابد الكبيرة يكون بها رئيس أعلى يقـوم بالتدريس ويجلس بجانب قـارىء التوراة ويسـاعده. ويمتـاز القارىء بأنـه ذو صـوت حسن وأن يكون مـدربا على الترتيل ذى النغم الجميل. ولابد فى المعبـد من جماعة مغنين Qunem ـ يكونون عشرة من الرجال.

وتبدأ صـــلاة السبت فى الثامنـة والنصف صباحا فى المعـابد المحـافظة وتستمر ثـلاث ساعـات، وفى المعابد التقليـدية قد تبـدأ فى السـاعـة الحادية عشرة واستمرارها ساعة واحدة ونصف الساعة.

وتبدأ الصـــلاة بقارىء يقـرأ وهو مرتـد ثوبـا أسود وقبعـة على رأسه، ويلف حول عنقه لفافة بيضـاء طويلة. تلفيعة Scar ويقف أمام المكتب ويبدأ بالحمد لله الواحد المنعم، ثم قـراءة التبريك والدعاء ثمانى عشرة مرة. شكرا لله على نعمه وحفظه إسرائيل. ثم يتلو ذلك الصلوات ومزامير داود. ولابد فى المعابد المحافظة السنية أن يكون ذلك باللغة العبرية، ولكن المعابد التقليدية المتسامحة قد يقرأ جزئين باللغة العبريـة وجزئين باللغة المحلية. وبعد قيام دولة إسرائيل وعملها على إحياء اللغة العبرية زاد استعمالها.

والإسرائيلى دائما يبـدأ صباحـه بما يسمونـه شما Shema أو السماع. وهى عبارة محفوظة يتلوها كل يهودى كل صباح، وهى:

« اسمع ياإسرائيل ـ الله ربنا واحد. وانت عليك أن تحب الله سيد الكون

من كل قلبك ، وبكل روحك وبكل قوتك ».

وهى عبارة جاءت فى سفر التثنية ص ٦ ـ ٤ ـ ٥ ونصها:

« اسمع ياإسرائيل الرب الهنا رب واحد، فتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التى أوصيك بها اليوم على قلبك. وقصها على أولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك، واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك».

والاسم الأعظم لله هو يهوه Yehoua, YHWH لا يقبل اليهودى أن ينطقها أبدا وبدلا منها ينطق لورد أو أدوناى Adini

وبعد أن تصل الصلوات إلى قمتها ـ تفتح الطاقة، وهى متألقة بالأنوار، ويمكن أن تشاهد فيها لفائف التوراة مطوية ومزينة بالرسوم ويتقدم أحد الرسميين فيستخرج واحدة منها، وتكون من الجلد الرقيق وتحتوى جميع الأسفار الخمسة الأولى ـ وهى التى تعرف عندهم بالتوراة. وهى مكتوبة بخط اليد بحروف عبرية. وهذه الصحيفة مثبت على جانبها قطعتان رقيقتان من الخشب، ملفوفتان بالحرير الملون أو ذى الوبر، وتتوجهما حلية فضية ويمر حامل الصحيفة بصفوف المعبد، وكلما حاذى واحدا انحنى راكعا، وإذا مر بالصف الذى خلفه استدار هو إلى الخلف حتى لا تكون التوراة خلفه، وذلك احتراما للقانون الالهى.

وأخيرا تحل اللفافة وترفع للأعلى ليراها الجميع ـ ثم توضع على المكتب، وتفتح عند الدرس الذى يراد قراءته، ويستطيع كل شخص أن يتقدم ويصعد إلى المكتب ويقرأ شيئا من الدرس بصوت مرتفع. وفي المعابد المتطورة قد تأتى امرأة لتقرأ. والصبيان يقرأون أيضا إذا كانوا قد بلغوا الثالثة عشرة. إيذانا بأنهم مقبلون على سن الرجولة. والقسس ومن هم اللاويين يقرأون أولا. ويقرأون الآخرون بعدهم إذا شاءوا ـ ويقرأ القانون باللغة العبرية، وقد تتلوه مترجمة.

وقليلا ما يقرأ الدرس من سفر من أسفار الأنبياء، ولكن هذا لا يحتم أن يكون مكتوبا باللغة العبرية، بل يقرأ من أى كتاب مطبوع. وبعد القراءة

تطوى اللفـائف وتحفظ فى كسائها ثـم تعاد إلى مكانها، وأيضـا أثناء المرور بها للإعادة ينحنى الحاضرون. وقد تنتهى الصـلاة بهذا وقد يتلوها خطبة قصيرة، ونشيد تقليـدى، وصلوات ويختم كل ذلك بـالتبريك. وبهذا تنتهى الصـلاة ويخلو المعبـد ــ وقـد يسبق انفضاض المعبـد «قـداس» أو تبريك بتوزيع كأس من النبيذ ورغيفين مبركين لكل مصل.

بهذا نرى أن العبادة اليهودية تكون فى المعبد وفى المنزل.

ويحرم يوم السبت أعمال خـاصة تصل إلى تسعة وثلاثين نـوعا. ومنها تناول النقود، ولهذا لا يوجد جمع نقود فى المعابد، ويمكن أن يعلن الشخص أنه سيدفع للمعبد مبلغا وحينئـذ يتلى اسمه من منصة المعبد، ويمنع النواح والصيام يوم السبت، ولذا فطعام السبت كطعام العيد.

ويحتفل اليهودى بعيـد الفصح Passouen وهو اليـوم الذى نجـى الله فيه بنى إسرائيل من آخـر طاعون أصـاب المصريين. يوم الراحة، وقـد جاء وصفـه فى الاصحـاح الثـانى عشر من سفـر الخروج.. وهـو يـوم اجتماع الأسرة، ولذا بجانب العبادة فى المعبد يكـون احتفال وبهجة فى المنزل. تضاء المائدة بالشمـوع، وتدار كؤوس النبيذ على جميع الأفـراد، ويوزع كعك غير مخمـر، وصحـون بكل صحن منهـا بيضـة واحـدة، ولحوم محمـرة من الضأن، ثم يـوزع الزبيب والمكسرات.. وكل ذلك لإحيـاء الذكـرى العزيـزة لـديهم، ذكرى خـلاص الإسرائيليين من مصر. وتقـام صـلاة أيضا حـول المائدة تتلى فيها قصـة حياة الإسرائيليين فى مصر، وتبدأ بسـؤال من أصغر طفل يكون حـاضرا، وتنشد بعض المزامير فى نغمـة غنائيـة، ويقضى بذلك على الطعام والنبيـذ ـ وفى هـذا الاحتفال يـدعى غير اليهود. وتـوضع كأس خاصة جانبـا باسم النبى إليجا **Elijah** ـ ويترك الباب مفتوحا عسـى أن يحضر ليعلن يوم الرب وذلك عمـلا بما جاء فى سفر ملاخى ٤ / ٥ ــ هاأناذا أرسل إليكم النبى قبل مجىء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف.

وهذا العمل شبيه بعمل الإمامية فى انتظارهم الإمام المهدى المختفى.

وعيد الفصح **Passouen** هو أيضا عيد الأغنام، تـذكيرا برعاة اليهود القدامى، ولذا يكـون فى مائدة الاحتفال عظام الخراف المطبـوخة ـ ثم يأتى

عيد الخماسين **Pentecest** والكلمة مأخوذة من كلمة خمسين الاغريقية، لأنه بعد خمسين يـوما من عيد الفصح، ويدل على نهايـة عيد الحصاد. وفى هذا اليـوم يزين المعبد، وتوضع مظلـة رمزية كتلك التى كـانت تنصب عند حصاد الكـروم، أو الخيمة التى كانت تتخـذ فى رحلة التيه. وتـزين المحاكم والحدائق حيث تنصب فيها الخيام، والأغصـان ويتناول الطعام هناك لمدة أسبوع، ويزين المعبـد بالنباتات والثمار، وتوجد أيضـا الخيام أو الأكشاك مزينة بالنخيل وتسمع صيحات التسبيح.

ويـوجـد أيضـا احتفـالان آخران ـــ عيـد الشنـوقـة **Chanukkeh** واليوريم. لذكرى نجاة اليهود وانقاذهم بواسطة المكابيين واستر.

والأيام العظيمة لديهم والتى يحتفـى فيها احتفالات أكبر هى أعياد رأس السنة وأيام الكفارة والندم على الخطايا. أو التـوبة ـ وهذا اليوم أهم الأعياد لديهم ولـذا فالـذين لا يحضرون فى المعبد يـوم السبت، لابد أن يحضروا فى هـذا اليوم، فيغلقـون محلاتهم التجـارية ويجتمعـون فى المعبـد. انه يـوم العبادة والتوبة ممـا يعلم وما لا يعلم من الآثام سواء كانت آثـاما فردية أو جماعية، وتقرأ طقوس الضحية كما هى مسطورة فى سفر اللاويين ص ١٦ ثم تقـرأ العبارة المألـوفة: «اللـه ربنا» **The lardis God** سبع مرات، ويروى بها قرن الكبش وينتهى اليوم عند غروب الشمس.

الباب العاشر

عهد التشتت

الإسرائيليون فى عهد التشتت

الإسرائيليون مثل فريد فى الترابط العنصرى، فان الأحداث الكثيرة التى تعرضوا لها كانت خليقة أن تمحوهم من التاريخ كما محيت أمم كثيرة من معاصرى نشأتهم، ولكنهم ظلوا ـــ بسبب ما يؤمنون به من أنهم شعب مختار ـ جماعات مترابطة رغم تفرقهم فى أنحاء الأرض شرقا وغربا. وظلوا أيضا مرتبطين بأرض المَعَاد حتى عادوا إليها وكونوا بها دولة مستقلة بعد ألفى عام أو نحوها.

وعهد التشتت الاسرائيلى الذى يسمى عندهم دياسبورا **Diaspora** عهد طويل وزعهم فى جوانب العالم وبين مختلف الأقطار والدول حتى لا توجد بقعة واحدة من الأرض ليس بها يهودى، أو «حى يهودى»، وفى كل حى أقاموا المعابد وشعائر السبت، ووجد بينهم رباتيون يعظون ويعلمون التلمود ويحضون على الترابط، ولهم أيضا دائما اجتماعاتهم الخاصة السرية، كما لهم سجل خاص لقيد أسمائهم وأسماء مواليدهم.

وهناك ظاهرة واضحة فى حياتهم وهى نشاطهم التجارى والاقتصادى والعلمى، وربما كان العلم. كما قيل وسيلة للمال، ولكنهم كانوا مبرزين فى كل الميادين التى عملوا بها فكرية وعلمية ومادية، وبهذا التفوق عاشوا ذوى منزلة، وبجانب ذلك لهم مقدرة على التدخل فى شئون البلاد والمجتمعات التى يعيشون فيها، وفى تاريخهم وكتبهم مواقف من هذا

التدخل، وقد مر بنا مافعلوا مع الامبراطور بيوس، وما كان يفعله سيميون وابنه يهوذا، وعلى نحوها وعلى نحو ما جاء فى سفر استير صارت الخادمة منهم ملكة.

والذين عاشوا منهم فى بلاد العرب امتهنوا مهنا لم يكن العرب يزاولونها، بل كانوا يأنفون من الكثير منها، كالحدادة والنجّارة والبناء، وأيضا الزراعة، وكان لهم فى مستوطناتهم بالجزيرة مزارع ونخيل.

وفى انجلترا والبلاد الأوروبية الأخرى، وأيضا الآسيوية، أقاموا لهم متاجر كبيرة ومزارع، وأقرضوا الربا الفاحش وغير الفاحش وكونوا ثروات طائلة، ولم يلفتهم هذا النشاط عن الجانب العلمي، بل كانت ثقافتهم وسيلة لنجاحهم. وسبب لهم هذا النشاط وهذا التعّصب ـ مقابل ما هيأ لهم من نجاح ـ متاعب أيضا، فلم يكونوا يقابلون بالترحاب، بل كان الناس يرونهم مستغلين، يستفيدون أكثر مما يفيدون، وكثيرا ما نفر منهم الناس واضطهدهم الحاكم لهذا، واضطهدهم الرومان أكثر من أى دولة أخرى، وخلال العهد البيزنطى أنقذهم ظهور الإسلام، ففى العراق وفارس، والشام ومصر والمغرب وأسبانيا كانت رحمة الاسلام منقذا لهم. ولم ينقطع وجود أفراد منهم فى فلسطين، وكانت لهم جماعات فى سوريا، ولم يكن الاسلام منقذا لهم من ظلم المسيحيين فقط، بل شجعهم المسلمون على المضى فى العلم، واقتبسوا من مدارس المسلمين، كما خفف حكام المسلمين عنهم الضرائب، ومنحوهم حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية.

أما فى العراق المقر الثانى للتلمود. فقد ظل به المركزليهود «الدياسبورا»، وفى العصر العباسى تبوأوا فى بغداد مكانة لم تمنح لهم من قبل، فقد أعادوا. فى ظل الاسلام صورة جديدة للسنهدريم، فكان هناك رئيس دنيوى ورئيس روحى أطلق عليه اسم «جيونيم» **geonem**. وهو اسم لرئيس الأكاديميتين البابليتين، إحياء لمدرستى صورا، وبامبيدثا، وكانت تعاليمهم الروحية قبل مجىء الاسلام تنقل سرا، وأصبحت بعده تنقل جهرا، وزاد نشاط دعاتهم لذلك. وقد قام هذا المجلس أيضا بشروح وتفسيرات جديدة، وأكثرها وضع محاورات فى صورة سؤال وجواب، لأنها كانت ردودا على ما يرد للمجلس من مشكلات تتطلب أجوبة.

وربما كــان أهم أعمال هــذا المجلس ومــدارس هذا العهــد عكــوفهم على نصوص التلمــود القديمــة ووضعها فى كتــابة خطيــة جديــدة، لأن الكتابــة البــابلية القــديمة كــانت خــالية من النقط والشكل، وكــان ضبط الكلمات يتوقف على الرواية الشفوية، فــوضع هؤلاء طريقة للنطق من غير حاجة إلى تلقين. وقــام بهذا الضبط جماعــة سموا علماء الماســورة Massoretes (١) ومن أعمالهم أنهم صححــوا أشياء ونسقــوا الكتاب فــوضعوا الأبــواب فى فقار منظمة، ووضعوا لسائله عناوين جانبية، وكان عملهم نموذجا يحتذى بعد ذلك. ولا ينبغى أن ينسى فضل الإسلام عليهم فى ذلك كله.

وفى القــرن التــاسع الميــلادى، بفضل تســامح المسلمين أسس اليهــود مجمعا أكــاديميا فى فلسطين وهــو الذى أطلق عليــه اسم جونيت Jeanet، وقد أيده اليهود من مختلف البقاع نظــرا لمكانة الأرض المقدسة لديهم، ولأن التلمود الفلسطينــى كانت لــه المكانة الأولى. وكــانت مدارســهــم لهذا أيضــا مفضلة. وفى الجهــات النائية عن فلسطين استفــاد اليهود أكثــر من تسامح المسلمين، فأقامــوا لهم مدارس لاهوتيــة لدراسة التلمود فى شمال أفــريقية وفى أسبانيا المسلمة.

مــــوقف شارلمـــان

كان الامبراطور شــارلمان الذى يوصف بالحكمــة ولقب باسم شارلمان الحكيم ذا رغبة فى نشر الدين المسيحى وإشاعة المدارس الــدينية بوجه عام فى أنحاء الدولة، ووجد فى نشاط اليهود التلمودى ودراســاتهم للعهد القديم مــا يشبع رغبته، فــأذن لهم بفتح المدارس فى إيطاليــا وجنــوب بلاد الغــال (فرنســا) وفى ألمانيا، حتى أنــه بعث إلى الخليفــة المسلم هارون الــرشيد أن يبعث إليــه بعلماء يهود ليعلموا رعــايــاه اليهود، هــذا لأن اليهود فى بغــداد والعالم الإســلامى كله، كانــوا أوفر عددا، وأكثــر تمتعا بحريتهم الــدينية

---

(١) مجموعــة من علماء الأكاديميات الثــلاث السابقة الــذكر ـ أكــاديميات sora، وبامبــدتا Bambedethia، ونهارديا Nehardea و كلمة ماســورة تعنى ناول أو سَلِمْ. أى الذين يعطون المعرفة.

حتى برز بينهم علماء لا يـوجد مثلهم فى البلاد الأخرى. وكـان المسيحيون يحضرون الدروس التلمودية لأنها دراسة مشتركة بين الدينيين، وكان التلمـودان ــ البـابلى والفلسطينى يــدرســان معـا فى المدارس اليهـوديـة الأوروبية بعضها يـدرس هذا وبعضها يدرس ذاك. فكانت إيطـاليا لقربها من الشرق. تستعمل التلمــود الفلسطينى، والمدارس الأوروبيــة الأخــرى كانت تعتمـد على التلمود البابلى لأنــه الذى هيأ له الشيــوع طوال المدة التى كانت فلسطين تعانى فيها ضغطـا. ولكن فى كل المدراش كان الدارس يدرس أيضـا، كما درسنا هناك أيضـا الأناشيـد التى جدت مؤخرا وأطلق عليها اسم البيوتو **Piyyut** (١).

ونالت مدارس إيطـاليا حظا أوفر من الازدهار، لأن روما مـدينة مقدسة من قبل، ويرجع قيامها إلى أسطورة قديمة تكسبها قداسة أيضـا، وهى مهد ديانات قـديمة. وقد ازدهرت بها المسيحيـة بعد، وفى إيطاليا أخـذ التلمود صيغتــه الحالية، وبها وضعت مبـادىء النظم الكنسيـة التى جرت عليهـا المعابد اليهودية ثم ورثتها المسيحية، ولا تزال جارية فى أوروبا، وفى إيطاليا ظهـر عـدد من نوابغ الشعـر الـدينى «بيـوت» لا يزال اليهـود يترنمـون بأشعارهم فى معابدهم. ولم يكن اتصــال اليهود الأوروبيين ـ فى غير مملكة شارلمان ـ بفلسطين أو بابل ميسورا دائما، ولا عمــلا هينا. وكانوا يعتمدون على التلمود وعلى ربانيين من بينهم، أما فى البـلاد الإسلامية فكان اتصـالهم بالبابليين سـهلا، وكانت لهم مراكز دينية فيما بينهم تقوم بهذا الاتصـال.

وبسبب هــذا الوضـع وجـد منهجان للـدراسـة، منهج اليهـود الـذين يعيشون فى إيطـاليا وفرنسا وألمانيـا ـ وهؤلاء غلبت عليهم تعـاليم التلمود الفلسطينى الـذى يعنى به فى إيطـاليا، وقـد عرفـوا باسـم «الأشكينـان» أو الأشكينــازيين، وجماعــة آخـرون كـانـوا يعيشـون فى أسبـانيـا والبـلاد الإسلامية وهؤلاء عرفوا باسم السفرديين.**SePherdin**.(٢).

ولا يزال هذان الجزءان يتميز كل منهما عن الآخر.

---

(١) هى بمعنى الشعـر ومنها Poim. و Poet. وسمى مؤلفـوها باسم بيـوتايم Biyyotamim أى الشعـراء، وأدخل هـذا الشعر فى تفـاسير التلمـود والمدراش التى عرفت باسم Aggadeh.

(٢) انظر 9 - gaudaism PP186

الباب الحادى عشر

الفلسفة اليهودية

يرى أكثر مؤرخى الفلسفة أنه ليس هناك فلسفة يهودية، وأن الفلاسفة اليهود لايمثلون فلسفة يهودية ذات صبغة خاصة، ولكنهم أبناء فلسفات أخرى اغريقية واسلامية وشرقية قديمة، ويرى آخرون من وجهة نظر أخرى أن الفكر الفلسفى اليهودى لايعد فلسفة حقيقية، لأن الفلسفة الحقيقية تخضع للعقل وحده، وفلسفة اليهود مرتبطة بالكتاب المقدس. أو النصوص المقدسة اليهودية لاتخرج عنها حتى فيما خالف العقل.

هذا رأى الذين ينكرون الفلسفة اليهودية.

أما الذين يثبتونها فيقولون : إن هناك فلسفة بوجه ما، فالكتاب المقدس تحدث عن نشأة الكون وتدرج الحياة، وجاءت نصوص متأخرة فيه تصف الأفلاك والمخلوقات، وتلفت الأنظار إلى مبدعها، وتدعو إلى التعرف عليه عن طريقها، وهذه فلسفة، ثم إن الفلاسفة اليهود مع أنهم تكونوا على فلسفات أجنبية كانت لهم بحوث خاصة فى تفسير الكتاب المقدس، وكان لبعض أنبيائهم ومعلميهم تعديلات فيها، فهناك إذن فلسفة يهودية.

وهذا كلام قد يؤخذ على علاته، وهى فلسفة مقيدة بحدود، ومحصورة فى إطار خاص، ولكنها عناصر فلسفية، وقد كان هذا الفكر الميتافيزيقى محور دراسات ومجال فكر لاتزال له آثاره، وعلى هذا الفكر أو على هذه الفلسفة الضيقة المحدودة قام تاريخ الاسرائيليين منذ ظهور النبى موسى وتلقيه التوراة.

"وأبرز مايبدو فى العهد القديم هو فكرة التوحيد المطلق، فقد كان العالم القديم يدين بآلهة متعددة، على نحو مـاكان عند اليونانيين، ودعا اليهود إلى عبادة اله واحـد، وحرموا عبادة الأوثـان وصنع التماثيل، ولكن كان الشعب الاسرائيلى ـ منـذ هبط أرض كنعان يحاكم الشعـوب التى تجاوره فى اتخاذ أوثان للعبـادة، وكان الأنبيـاء ينعون عليهم هـذا الانحراف. ولكـن التوراة المحرفة تنسب إليهم مساوىء كثيرة، وتصف أنبياءهم بالالحاد والزنا.

ومن بين الفلسفـات القديمـة انفردت هـذه الفلسفة بفكـرة أن الله أنشأ الكون من العدم، وكان الآخرون يفترضـون مادة أصلية خلق منها الكون، إما الماء أو التراب أو النـور أو غيرها على نحو مـانجد فى الفلسفـة الطبيعية، ومن هذه المادة خلق الالهة الكون، فآلهتهم فى الـواقع ليست خالقة منشئة، وإنما هى مصورة منظمة.

ورتب العهـد القـديم نشأة الكـون فى ستة أدوار، كل دور منهـا سمى يومـا، ففى الأيام الثـلاثة الأولى خلق النور ثم الماء، ثم فصل بين ماء أعلى ومـاء أسفل، فكانـت السماء والأرض. وفى الأيام الثـلاثـة الأخرى ظهـرت نباتات الأرض وكواكب السماء، وبها ظهر الليل والنهار، ثم ظهرت زحافات الماء والطيور، وأخرجت الأرض أنفسـا حية من الحشرات والبهائم.. وأخيرا أظهر الانسان[1].

وفى هذا الترتيب يبـدو منطق جيد، خلقت الأشياء الدنيـا الأساسية أولا، ثم ظهر بعدها مايحتاج إليها وتتوقف حياته عليها، فالعشب لايوجد إلا بعد الأرض وبعد الماء، والحيـوانات تحتـاج إلى الماء والعشب، والانسـان يحتاج إليها جميعا، فخلق بعدها، وهو سيدها وكلها مسخرة له.

والانسـان مكـون من جسم خلق من التراب، وروح من عنـد الله، وحين يموت يعـود جسمه ترابا، أو يتحـول إلى التراب الذى خلق منه، أمـا الروح فتصعد إلى بارئها، لتثاب أو تعاقب، والانسـان الأول وجد طاهرا نقيا، وهو جميل لأنـه على صـورة الله وصدر عنـه، ولايصـدر عنه إلا مـا هـو جميل

(١) راجع سفر التكوين ص ١

وحسن، ولكن الانسان نسى وصية الله، وخضع لوسوسة الشيطـان، وبذا تدنس، فـزالت سيادته، ونالتـه الأمراض وجاء عليه الموت. ومع نسيـانه أو عصيانـه لم تنسه رحمة الله، فهـو ـ سبحـانه لـذلك يرسل إليـه من يمحو خطيئته ويخلصه منها، ويمحـو خطيئته الأولى يتطهر ويخلص من الشقاء، وهذا المخلص المعزى هو المسيح المنتظر.

على هذه المبـادىء الثلاثة قامت الفلسفـة اليهودية، ودار عليهـا تاريخ اليهود، وهم لايزالون ينتظـرون ظهور هذا المخلص، وليس المسيح عيسى بن مريم مخلصـهم.

ولم يبين العهد القديم إن كان الشيطان خلق قبل آدم أو بعده، ولكن لأن النور وهـو من النار سبـق وجود الانســان، والشيطان مخلوق مـن النار، فيكـون أسبق من آدم وحـواء ــــ وليس لـدى اليهـود بـراهين عقليـة على فلسفتهم، فهى اتباع لكتابهم.

وفى العهد المسيحى استعان فـلاسفة المسيحية بالفلسفة اليـونانية على تبرير هـذه الافتراضات والبرهنـة على صحتها، فأمـدوا الفلسفة اليهـودية بغذاء جديد.

لاحظ الأنبيـاء الأوائل من بنى إسرائيل أن هنـاك تضـاربا فى نصـوص الكتاب، إذ يصف الله مرة بأنه مختلف عـن المخلوقات ليس كمثله شىء، ثم يصفـه أخرى بصفـات البشر، وذلك واضح جـدا فى سفـر التكوين وسفـر الخروج على الأخص [1] فأولـوا هذه العبـارات بأنها تعبيرات مجازية يـراد بها تثبيت صفـات الله فى عقـول النـــاس، وبهذا أبقـوا وجـودا غير مـادى، وينسب إلى النبى عزرا أنه قام بما سموه تصحيحات النصوص Correctins of the Seriles . أو التصحيحـــات، وهى تصحيحـــات أريـــد بها تصحيح المتشابهات، أو التوفيق بينها، وسنجد أن فـلاسفة اليهود بعد قد استفادوا منها وجـزوا فى تيارهـا، وقد أدخلـت هذه الاضـافات التفسيريـة فى ترجمة التوراه إلى الآرامية والاغريقية، وكان القارىء يتلو النص والاضافة جميعا،

---

(١) انظر سفر التكوين ص ٣ / ٨ ـ ١٠ ، و ص ١٥

وكانت هــذه التفسيرات ذات أهمية فيما عدلتــه من مفهوم لــذات الالهية، فى كونها تعمل أعمال البشر ولكنها منزهة عن صفاتهم.

هذه التفاسير كـانت عملا يهوديا بحتا باعه هــو الفكر اليهودى، وليس فيها تقليد يــونانى أو غير يونانى، وهذا لايعارض أو أصحـاب هذا الفكر لم يكونوا جاهلين بفلسفة الاغـريق أو أن عقلياتهم استفادت منها، وبهذا نجد أن هناك مايمكن أن يسمى فلسفة يهوديـة أو عناصر فلسفية يهودية. وهذا غايـة ماكـان لليهود القـدامى من فلسفة، ولنــلاحظ أن هــذه العناصر على ضآلتهـا تركت أثـرا فى الفلسفة المسيحيـة فيما بعد، والتشــابه المشترك فى فلسفة أفلوطين وفى هــذه الفلسـفة يوحى بأن الفكر اليــونانى لم يكن بمعزل نهائى عن الفكر اليهودى.

وفى القرن الثانــى ق م ـ ظهر كتاب الحكمــة ذو الشهرة بين اليهود(١) وهو فى نظر بعض الكتاب بداية الحركة الفلسفية اليهودية.

هيــوى البـلخى

لم يعرف بــالدقــة تاريخ مولــده ووفاتــه، ولكن معروف ، أنــه عاش فى القرن التاسع الميلادى ربما فى منتصفه، وهو من دارسـى الفلسـفة اليونانية والمنفعلين بأفكارهــا، وقد استخدمهــا ضد تفسيرات الــربانيين وشروحهم

(١) كانت مـدرسة الاسكندريـة قبيل عصر الميلاد جـالية يهودية ، وكـانت منفعلة كل الانفعال بأدب اليونان حتى انها كانت تستعمل اللغة اليـونانية بدلا من اللغة العبرية ، وكانت تقرأ التوراة باللغة اليونانية ولا تستطيع قراءتهاباللغة العبرانية .

وفى هذا الجو ظهر كتاب الحكمة الذى أشرنا إليه .

وكان بالاسكندرية مدرستان تستعملان اللغة اليونانية ولكل منهما اتجاهها .

إحداهما مدرســة يمثلها اليهود وهى مـدرسة موحدة تـدعو إلى عبادة إله واحـد والثانية مدرسة وثنية يمثلها اليونان ومن حذوا حـذوهم وأشهر الذين دعوا إلى هذه المدرسة الوثنية ، أمونيــوس الذى يلقب بسكاس ـ أى الحمال لأنـه كان يعمل حمالا ، وكان نصرانيـا من أبوين نصرانيين ، ولكنه بدرسه الفلسفـة اليونانية ترك النصرانية وصار وثنيـا ، وكان يعمل جاهدا للتوفيق بين فلسفة وتعاليم أرسطـو وأفلاطون ومع نشاطه فى هذا لم تـؤثر عنه كتب ، ومات سنة ٢٤٢ م . وكان بين المدرستين تنـافس ، وكانت المدرسة اليهودية الموحـدة خصوصا قبل ظهور المسيحية تقاوم مدرسة اليونانيين وتثبت أحقيتها وحدها بالوجود .

(ونحن نذكر موقف اليهود من الهللستنية وكيف تبنوها) .

بعنف وحماس، وكــان هجومـه شاقا عليهـم، لأنه يــوجه نقـده القارص إلى نصوص التوراة وإلى المبادىء والأفكار التى تواضع عليها اليهود منذ زمن بعيد، بل كان هجومه على اليهودية نفسها.

وأعظم آثاره كتــاب وضع فيه مـائتى سؤال يتحدى بها تفاسير الكتاب المقـدس (الأسفــار الخمسة التى عنـى بها أكثر من غيرهــا واقتصر عليهــا بعض الجماعات).

وانفعــالا بالفلسفــة اليونــانية أنكـر وحدانيــة الله، أو قل انه خــرج عن اليهــوديــة الموحــدة، فقــرر أن هنــاك آلهة شتى للمطــر والبحــار والــزرع والرياح.. كل لــه اله، وتبعا لذلك أنكــر قدرة الاله ـ أى إله ـــ الكاملة على كل شىء، وعلمــه التام بكل شىء، هــذا لأن كل إله يعــرف ماهــو إله لــه، فإلــه الزراعة لايعــرف شيئا عن البحار، وإله البحار لايعــرف شيئا عن الأمطار.. وهذه المســائل عرضت فى الفلسفــة اليونــانية، ويبــدو أنه اعتبر كبير الالـهة لايعرف إلا الآلهة، بعبارة أخــرى رد هيوى ديانة اليهود إلى وثنيــة اغريقية واستمر يعتبر نفسه يهوديا.

وتعرض هيــوى لمسائل أخرى بعضهــا مما تعــرض له علماء المسلمين وفلاسفتهم مثل حرية الارادة والقضــاء والقدر، ومعجزات الأنبياء وإمكان حدوثهــا، وهو ينكــر ذلك كله، فــلايقر معجــزات أيا كــانت، ويرى ألاّ إرادة للأشــخاص، كذلك أنكر كثيرا من تشريعــات اليهود كالختان وتحريم بعض الأطعمة.

وقد لاقى كتــابه رواجا، كما لاقى مــذهبه أتباعا، وكــان يقرأ فى المدارس ليتعلمه الناشئون.

وأرى أنه من التجاوز أن يسمى فيلسوفا يهوديــا إذ لايربطه باليهود إلا دمه وادعاؤه أنه يهودي، أما أفكاره الفلسفية فكما عرضنا.

سعدايا الفيومى (٨٩٢-٩٤٢)

عاش هــذا الفيلسوف اليهودى خــلال القرن الثالث والـ...

وكان من الربــانيين، ولكنه بسبب درسه الفلسفة ـ اليونــانية والاسلامية ـ تصدى للرد على القرائين. ودحض اعتراضاتهم وفندها.

كان يعيش فى الفيوم من أعمال القطر المصرى، وكان عربى اللسان ولكنه بسبب تعمقه فى درس الهلستينية، ترجم منها إلى العربية وألف فى الفلسفة والدين وبدا نبوغه وهو فى سن مبكرة فأحرز شهرة واسعة ومكانة بين اليهود، حتى انه - وهو مايزال فى سن الشباب رشح ليكون رئيسا لأكاديمية صدرا فى بابل، وكان تفوقه يقوم على اجادته اللغات العبرية والعربية واليونانية، واستخدم ثقافته الواسعة التى أحرزها منها جميعا فى جدله وردوده على خصومه، وبها انتصر عليهم وأحسن الدفاع عن عقيدته، وكانت ميزته أنه يجمع دراسات واسعة فى التوراه والتلمود والفلسفة، وكان يمزجها جميعا محاولا التوفيق على طريقة قريبة من طريقة فيلو.

وإليه يرجع الفضل فى اخراج أول ترجمة عربية للكتاب المقدس، وكان الغرض منها هو الرد على القرائين، ولذا وضع معها شرحا ضافيا ليوضح آراءه، وكان هذا أول عمل من نوعه، وكان يقرأ بلغته العربية فى المعابد اليهودية.

وكان القراءون أهم خصوم سعدايا، وقد عنى بالرد عليهم منذ فجر حياته، ومازال يصارعهم حتى كانت نهايتهم على يديه.

أخرج عددا من الكتيبات يؤيد بها الدراسات التلمودية التى ينكرها القراءون ، ثم أخرج سلسلة من الكتب مرتبة ترتيب أسفار التوراه أراد بها أن يقدم عونا للدارسين ولاتباعه ضد خصومهم، كل هذا بجانب موسوعات أخرى فى أصول الديانة اليهودية وفروعها وبجانب صلوات وأدعية مبسطة يتعبد بها الناس وأعمال للطقوس الكنسية، وله فتاوى وأحكام وأجوبة على أسئلة وجهت إليه، وكذلك وضع صيغا و اصطلاحات قانونية.

ومن أعماله أيضا أنه وضع حلا أوضح لمشكلة التقويم اليهودى القمرى الذى تعرض له من قبل هليل الثانى، وقد وضحه سعدايا توضيحا أكثر فعمل به اليهود واستمروا يعملون به. سعدايا إذن فيلسوف سخى الذهن واسع التفكير والاطلاع.

ولم يقو القراء على الصمود أمامه، ولاوجدوا قوة لدفع اعتراضاته

عليهم، فأخذ الناس ينفضون من حولهم، وأخذ نجمهم فى الأفول تدريجيا، ولم يبق منهم إلا جماعات قليلة متفرقة كان بعض منهم فى تركيا ولكنهم انقرضوا سريعا، وبقيت لهم قلة فى أسبانيا.

واتجه سعدايا إلى أعمال هيوى البلخى فألف ردا عليه ومحاجة له كتابا سماه «الإيمان والمعرفة» (١) وهو فى جملته رد على العقلانيين، وبيان لأن عقيدة التلمود لاتتنافى مع الفلسفة، وكانت هذه أول محاولة لمد اليهود بأدلة فلسطينية وقواعد علمية، ولذا فرح اليهود بهذا الكتاب لأنه قضى على البلبلة الفكرية التى كانت شائعة لديهم، كما انه وثب بالفلسفة اليهودية الدينية، ومثل مرحلة جديدة فى تاريخها.

وكان سعدايا قمة فى عصره وبموته سنة ٩٤٢ ذبلت دراسة اليهود الفلسفية والتلمودية فى الشرق، ولم تعد بابل مركزا للدراسات اليهودية التلمودية، وانحصر مفكرو اليهود بعد ذلك فى الجماعات التى فى مصر وفى اسبانيا.

فلسفة سعدايا

فلسفة فى جملتها مزيج من الفلسفة الاسلامية واليونانية، وكانت ميزته الكبرى أنه درس الفلسفة دراسة مستقلة وقد بذل جهدا كبيرا فى محاولة استخراج علاقة متبادلة بين الوحى والسبب أو بين الايمان والمعرفة، وفى نظره أنه لاتعارض بينهما، وأن التضارب الذى واجهه معاصروه يرجع إلى عدم الفهم، فكل من الوحى والسبب أو الايمان والمعرفة يرجع إلى الله، أو هو نبع وانبجاس منه، والفرق بينهما راجع إلى الطريقة الفكرية التى عولج بها والوحى أسرع وصولا إلى الحقائق الدينية من السبب، ولكن كلامنهما يكمل الآخر ويساعده فى الوصول إلى الحقيقة، والوحى يختصر طريقة البحث السببى من الشك ومن عدم اليقين، أما الأسباب فهى توضح مايأتى به الوحى، وتبرز علله وتوسع دائرة البحث فيما يأتى به.

وبهذا نرى أن سعدايا يضع الوحى فى المقدمة ويجعل الفلسفة تابعة له.

---

(١) من هذا الكتاب نسخة فى دار الكتب المصرية باللغة العربية.

وفى ضوء الأسباب والـوحدة التى قررها أخذ يطبق نظـريته على الوحى الذى جاء بالديانة اليهودية، أو الحقيقة التى يدين بها اليهود.

واصطـدم سعديـا بآراء أهل السنـة من المسلمين، فقـد نفوا الأسبـاب والنتـائج الطبيعيـة ، وأرجعـوا كل شئ إلى إرادة الله تعالى وقـدرتـه، فهم يقولون مثلا ان النار لاتحرق، وقد يلقى الشخص فى جوف النار فلاتحرقه إلا بإرادة الله، وكذلك السكين لاتقطع بنفسها والمطر لايبلل الأرض بنفسه وهكذا، لايـوجد مؤثر فى الكـون إلا بإرادة الله، ورفض هو هذا الـرأى وأخذ بفكرة السبب أو القانون الطبيعى.

وبهذا الاتجاه ومتابعـة لآراء الفلاسفـة والمتكلمين المسلمين وجد دليـلا قاطعا على وجود الله الخالق، وهو فى هذا قريب من منهج ديكارت.

وله أيضا براهينه على أن الله أنشأ الكون من العدم.

وقد وصف الله بأنـه دائم أبدى، وأنه تـام الحكمة والقدرة، ولايشـاركه شئ فى قدمه. فالكون إذن نشأ من العدم فهو مستحدث.

ووقف بهذه الفلسفة وتقـرير وحدانيـة الله ضد التثليث الذى يـدين به المسيحيون وضد التنويه التى يدين بها الفرس، وليس الله سبحانه ـ واحداً فقط، ولكنه أحـد، ومجرد من المادة، فلا هو جسم مركب ولاأعضـاء ، وقال انه بسيط وانـه روح خالص أو عقل خالص والصفـات المادية التى وصف بها فى الكتب المقـدسـة إنما هى تعبيرات مجازيـة، والانسـان فى قمـة هـذا الوجود المستحدث، وهو وحده ـ دون المخلـوقات الأخرى ـ محل رعاية الله ومحبتـه، ولهذا سخر لـه جميع المخلـوقات الأخـرى، ولمحبة الله الانسـان وحرصه على منحـه السعادة أنزل التوراة وفيهـا الوصايا العشر، وبطـاعة التعـاليم التى فى التوراة وتنفيـذ وصايـاها يصل الانسـان إلى الخير، أو إلى قمة الخير والسعادة.

والتـوراة فى رأيه خـالدة ضمن الله خلـودها، وخلـودها يتضمن خلـود الشعب الاسرائيلى، وأفضل عمل لـلانسـان هـو ألا يكرس نفسـه للعبـادة، صلاة وقياما وصياما وتأملا.

ولاتعنى التـوراة ولاالتكريـس للعبادة عـزل الانسـان عن تيار الحيـاة

نهائيـا، ولكنها تعنى سلـوكا خـاصـا، انها تأمـر بحسن المعاملـة، وحسن الجوار والصدق وحفظ الأسرار.. الخ وإذا انقطع الشخص للعبـادة واعتزل الناس لم يكن ثم معاملة ولامعاشرة ، وإذن فقد ضاع جزء هام من التوراة.

من هذه المثل البسيطـة يبدو تأثـر سعدايا بـالفكر الاسلامى وهـو قد عـاش عصر نضجه. كما يبـدو سبب اعتزاز اليهـودية بـه وبفلسفته لأنـه ضمن لهم الخلود، وأنهم أرقى الناس، لأن الله اختصهم بالتوراة.

وهـو على أى حـال ابن بيئتـه، فبمعيشتـه فى بـابل احتك بـالتنـويـر والمسيحية والاسلام ونالت فلسفته من كل هذه الفلسفات نصيبا.

ابن جبيرول

سلمان بن يحيى جبيرول. من أوائل فـلاسفـة اليهـود فى الأنـدلس العربية.

ولد فى مالقـة ـ غرب اسبانيا سنـة ١٠٢١م ومات فى بلنسه ١٠٥٨م أو نحوهـا .. كان فى أوائل الثلاثينيـات من عمره، ولكنه فى هـذا العمر القصير أخـرج آثـارا فكريـة قيمـة وكـان يسمى أفـلاطـون اليهودى لأنـه نـاشر الافلاطونية الجديدة وأول معلمها فى الغرب.

لم ينح نحو سعـدايا الفيومى فى تـوجيه فلسفته وفكره لـلاستدلال على وجـود الالـه ولكن المشكلة التـى شغلت فكره وقـامت عليهـا فلسفتـه هى البحث فى العـلاقـة بين الخالق وبين الكـون. وهى مشكلـة كـان فيلـو الاسكندرى قـد حلها بـوجود الكلمـة. Logos . واعتبرها واسطـة أو آلة بـها خلق الله الكـون، وبها مهد لظهـور الافلاطـونية الحديثـة ونظريـة الفيض وكانت متصلة بفكـر افلوطين، أو كانت فلسفة قائمة عليهـا، ومعروف لديه أنها سلسلة متواصلـة تنتهى بالكلمة المتجسدة، وقد تبنتهـا المسيحية بعد وقامت عليها.

تبنى ابن جبيرول نظرية الفيض ورتب عليها فكرتين ذواتى أهمية.

الفكـرة الأولى هى أنـه لم يـر الارادة الالهيـة واسطـة بين الخالق وبين الفيوضات التى تصدر عنه كما زعمت الافـلاطونية الحديثة، ولكنها نتيجة حتمية تنبثق عن الارادة الالهية حتما وطبيعة.

والفكرة الثانية أن الهيولى من أوائل سلسلة الفيوضات ، وليست آخرها كما ذهبت مدرسة الافلاطونية الحديثة، وطبقا لنظريته ليست الهيولى مادة، وإنما هى روحانية، وأى مادة تصل بالهيولى لاتصير ملكا لها لهذا الاتصال، ولكنها تتوقف على البعد والمسافة بينها وبين المصدر الذى انبثقت منه، ومع ذلك تظل متصلة بها اتصالا لايقبل فصلا والمصدر الأساسى للحقيقة هو الكائن الأعلى، وهو واحد لايمكن ادراكه، وبارادته وجد الروح الكونى وهو يتكون من الهيولى الكونية، ومن تشكيلها، ومن الروح الكونى تنبثق كل الروحيات تلقائيا من خلال سلسلة الوسائط التى افترضها، وكذلك تأتى الماديات من الطريق نفسه، وكلها مشتركة فى شىء شائع بين الهيولى والشكل.

بعد هذه الفلسفة التى لاتخلو من تعقيد والتى يطول شرحها تفصيليا. كان من المهم لدى هذا الفيلسوف أن يوفق بين نظرية الأوساط التى قررها وبين ماجاء فى التوراة عن بداية الخليقة، وإنشاء الكون لا بالطريقة التلقائية أو الاجبارية ولكن بمحض إرادة الله، وكان عليه ثانيا أن يخفف من حدة النظرية التى جاءت بها الافلاطونية الحديثة وهى نظرية وحدة الوجود The pamtheism وعدم تحديد الشخصية، وكلا الأمرين يكونان هذه النظرية .. على أن فكرته هو فى سبق الروح الكونى وانبثاق الهيولى منه يجعل كل شىء روحيا .

والبارز فى فلسفته أنه لم يبذل محاولة للتوفيق بين الفلسفة الاغريقية وفلسفة التوراة ، ولم يقتبس فى فلسفته أى عبارة من التوراة أو من التلمود وكان اتجاهه يهدف إلى تكوين فلسفة مستقلة بعيدة عن الطقوس والتعاليم الموروثة وأيضاً بعيدة عن التحامل .

وهذه النزعة الاستقلالية المنقطعة عن تعاليم العهد القديم دعت إلى أن يهجره كثيرون من اليهود ، أو أن يهجره اليهود عامة ، مما ضايق الآخرين من اليهود وأغضبهم ، ولذا حين ترجم اليهود فلسفة مفكريهم من العربية إلى العبرية . فيما بعد ـ عناية بها لم تترجم أعمال ابن جبيرول الهامة ، وبعد مائتى عام من وفاته ترجم أحد اليهود مختارات من أعماله ، وحتى هذه

المختـارات لم تلق اهتماما ولا أقبل عليهـا القرار ، وفى سنـة ١٨٤٥ كشفت مخطوطـات لهذا المترجم ، وهو Shentave Flagvera . شنتوف فـلاكرا وهى تصف فك ابن جبيرول وفلسفة ، وبها عرفت آثاره .

وفى العهـد المسيحى وجدت أعمال كـاملة وتـرجمت إلى اللاتينيـة تحت عنوان Fans vital . اسم المؤلف ولكنه عدل Auice Bram .

وظن رجـال الكنيسة ابن جبرول مسيحيـا فعنوا بـدراسته ، وقـادتهم فلسفتهم إلى الافلاطونية الحديثة .

وفى القرن الثالث عشر مع قيام جماعة القبالة The Kallalak ـ عرف ابن جبرول وعـرفت آثاره لأنـه كان ذا تأثير كبير على فكـر هذه الجماعـة . ويمكن تتبع الآثار الـروحية لدى هذه الجماعة ، وفكـرهم أن الإرادة الالهية وسلسلة الفيض الالهى هى التى أبرزت هذا العالم إلى الوجود . ورد الفكرة إلى فلسفة ابن جبرول فى كتـاب له سماه Mekan Hayyim ـ وقـد ترجم للانـجليزية .

وكان ابن جبيرول شـاعرا ، وكان العبـاد يترنمون بشعره فى المعـابد ، وقـد جاءت أفكـاره الفلسفية فى شعـره وتعارف عليهـا الناس قبل تـرجمة كتـابه القيم ، وأشـهر هذه الأشعـار أناشيـده التى عنوانها التـاج الملكى ـ Rayal Csawn وهى تأملات عميقـة فى عظمة الله وجـلاله وسعـة ملكه ، وقـد صيغت فى أسلوب أدبى رفيع ، وظلت تتلى ويتغنى بها فى المعـابد أيـام الكفارات والتوبة وفى الأعياد زمنا غير قصير .

يهوذا الحليفى الطليطى ١٠٨٥ ـ ١١٤٠

يهوذا الحليفى الطليطى ـ شـاعر وفيلسـوف ، ومفكر دينى ، ـــ ويتميز عن سـابقيه من فـلاسفة اليهـود بأنه صرف قـوته وأعمالـه إلى اظهار مـا لليهوديـة من عظمة وتفـوق على الديانتين المنـافستين لها ، وهما المسيحية والإسـلام ، هذا بينما كـانت مهمة اسلافه حماية اليهوديـة أو حماية الدين بوجه عام من الفلسفة أو التفكير العقلى البحت .

وأشـهر أعماله كتـاب له سماه كوزارى (Kuzari) ـ تسمية مأخوذة من الخزر ، وهم قبيلة مـن التتار كانـوا على نهر الفلجا . وكـانوا وثنيين ثم

قبلوا اليهودية واتخذوها دينا لهم ، وقـد ترجم الكتاب واتخذ له اسم طويل يبين انه عرض لليهودية ومساعدة لها ضد الديانات غير المحبوبة ، والكتاب محاورات بين جامعي يهودى وبين ملك هذه القبيلـة ، وقد دخل اليهودية فى القـرن الثامن الميـلادى ، وفى هـذه المحاورات يبـدو مـا يراه من فـرق بين نداءات الفلسفة التى تكررت من أسلافه وبين الوحى السموى ، أو كما قال هو رأيـه انه يـوضح الفـرق بين الاله الـذى تحدث عنه أرسطـو فى فلسفته والاله الذى رآه إبـراهيم وكلمه . وقال ان جهد مـا عملت الفلسفة أنها أكدت وجود الاله الخالق الذى برأ هذا الكون ونظمه ، ولكنها لم تتعرض للمسائل الدينية التى تؤكد وجود صلة قريبة بين الانسان وخالقه ، وقرر هو أن هذه العـلاقة تـرجع أسـاسا إلى التجـربة الشخصيـة ، وإلى الانـارة الباطنيـة والانكشاف ، وهو مايسميـه ذووه الوحى ، ومهما يكن من أمره ـ فيما رأى ـ فإنه لايخلو من شك ذاتى أو مايشبه ذاتى الاضطراب والهلوسة النفسية وهذا لايمكن تطبيقـه على الوحى الذى يشمل النـاس جميعا ، ـ هـذا الوحى الذى كان منحـة لإسرائيل فى سيناء والصوت الذى سمعـه موسى هناك لم يكن نـداء له شخصيـا وإنما كـان دعاء لجميع الأمم ـــ وهـو لذلك ينبـوع المعارف كلها . وهو الذى يضمن حقا ان ديـانة ـ بنى إسرائيل .. هى الديانة الحقة سيدة الديانات ، ولذا بنو إسرائيل سادة الشعوب .

ومن حيث أن بنى إسرائيل هم الشعب الـذى اختص بـالوحى والنبـوة ، فهم شعب مختار من الله ، وهو مفضل على كل الشعـوب بالطبيعة ، ومملكة إسرائيل أسمى الشعوب بحق الهى ، والـوجود فيها مقسم شـامل للمعادن والنبات والحيوان والانسان حسبما رسمت التـوراة وبهذه الطريقة وبمثل هذا الاختيار يوجد بين النوع الانسان حسبما رسمت التوراة.

وبهذه الطريقـة وبمثل هذا الاختيـار يوجـد بين النون الانسـانى أفراد يصطفيهم الله، فيخصهم بوحيه وبـرسالته حتى يكونـوا على صلة مباشرة بالله.

وهذه النبوة أو المنحـة الإلهية غرسـها مبدئيـا فى آدم من غير واسطة لأنه خلقه بيـده، ثم انتقلت من آدم بـالوراثـة إلى أشخاص تتـابعوا واحـدا بعد الآخر ففى سلسلـة متصلة حتى وصلت إلى يعقوب ثم إلى بنيـه ثم مرت إلى

بنى اسرائيل جميعــا. وانتهى هـــذا الفيلســوف فى نظـريتـه إلى أن الشعب الاسرائيلى مختار من الله، وكل شخص فيه به قوة كافة من النبوة والوحى.

ويتغـالى الحليفى فى هذه الفكـرة فيجعل القداســة التى لاسرائيل عامــة تشمل الأرض ـ أرض الميعـاد ـ والهواء الذى بها، واللغة العبريـة أيضا لغة مقدســة نزلت بها التـوراة وهى بما فيها من تعبير جميل وألفـاظ وأساليب تصلح وحدها أن تكون الواسطة التى يتم بها الاتصال بالروح النبوية.

من هذا يبدو انفعال يهوذا الحلفى بالفكر الاسلامى ـ الذى يكرر أن الله فضل بنى اسرائيل على العــالمين. وهــم عــالمو زمــازنهم الــذين لم يكـونــو يعرفون ديانة التوحيد كذلك يبـدو انفعاله أكثر بالفكر اليهودى، ولهذا قرر أن اسرائيل من الأمم الأخـرى بمنزلــة القلب، لأنها اختيرت من الله وفضلت على العــالم جميعــا، من معــاصريها وممن بعدهم، وهــى تقوم للعــالم كلــه بالــدور نفسه الذى يقــوم به القلب فى الجسم، فهى تــوزع على الأمم الفكر والحضارة، واذن فانفعاله بالفكر الإسلامى انفعال محدود.

وينتقل خطوة أوسع حين يقرر أن الأمم الأخرى لديها كما لدى اسرائيل أصول نبــوية ولكنهــا فى درجة أقل ممــا لدى الاسرائيليين أو أحط، ولكن فى الملكوت المسيحى، يمكن أن تصل جميع الأمم إلى الــدرجة الــروحيــة التى عليها الاسرائيليـون الآن، ولايكون ذلك إلابالبـذور الروحية التى غـرستها اسرائيل. من هنا يبدو التعصب اليهودى الذى لايتفق والفلسفة الحرة.

وقد سجل هذه الأفكار فى أشعار رائعــة عبرانية، وقد شمل شعره أغانى صهيونيــة تمجد صهيون ويؤكـد أحقية اسرائيل به، وكانت هـذه الأشعار تنشــد فى المعـــابـد اليهــوديــة، ولاتـــزال تنشــد إلى الآن، وعلى الأخص فى الاجتماعات العــامة من اليوم التاسع مــن أغسطس، ولقد كان انفعالــه هو بالــدعوة الصهيونية شــديدا، وبهذا الانفعال، ازمع الرحلــة إلى بيت المقدس على الرغم مــن شدة المشقة وبعـد الطريق وهنــاك عند حائط المبكــى كانت نهايته ولقــى حتفه، كــان راكعا على الأرض يقبل تــرابها عندمــا جمح جواد بــراكبه العــربى، وركض من البوابــة التى انطرح الحليفى أمــامها فــوطىء جسده فمات.

موسى بن ميمون ١١٣٥-١٢٠٤

أشهـر فلاسـفة اليهـود فى عصره ، وهـو فيلسوف وطبيب ولاهـوتى ، مدين بثقافته كلها للمسلمين ، فقـد أخذ الطب عن الرازى والفلسفة عن ابن رشد . ويسميه العبريون مـوشيه هازمان [١] أي موسى العصر أو موسى زمانـه ، ومن العبارات الدائرة بينهم أن «بين مـوسى وموسى لا يوجـد أحد مثل موسى » ، يريدون لايوجد بين موسى بن عمران النبى وبين موسى بن ميمون شخص مثله .

ولد فى قرطبة ١١٣٥ ومات بالقاهـرة سنة ١٢٠٤ فعمره سبعون عاما ، ودفن فى طبريـة وحسب وصاتـه حمل جسمه على الأيـدى من القاهـرة إلى مدفنه ، وقبره محجـوج هناك إلى الآن ، وله فى القاهرة كنيسـة لايزال الناس يؤمـونها للاستشفاء ، وكان طبيب صـلاح الدين الأيوبى وابنه العـزيز من بعده .

حين كان لايزال فى سن الصبا استولى الموحدون على البلاد ، وكانوا على جانب مـن التعصب يكرهون الفلسفـة والنزعـة العقلية عـامة ، كما كـانوا يكـرهون النصـارى واليهود . واضطـرت أسرة مـوسى أن تغادر البـلاد ، فتجول فى عدد من الأقطار ثم استقر بـه المقام فى مصر القديمة سنة ١١٦٥ وهناك أخرج ضمن ما أخرج من الكتب كتـابه المشهور .. هداية الحائرين : **Gwide Par peve lexed** . وبه وضـع الأساس لفلسفة اليهـود ، وظل بعد ذلك المثل المتبع لجميع اليهود حتى الذين لم يوافقوه على جميع أفكاره . والذين عارضوه .

كان بن ميمـون يدين بـالفلسفة الأرسطيـة ويعلى قدرهـا ، وكان المثل الأعلى للمفكـر الانسانـى بعد الأنبيـاء ، وهـو يعنى أنبياء العهـد القـديم ، وبـانقيـاده لهذه الفلسفـة الأرسطيـة بـذل جهـدا لإيجاد تفـاسير مجازيةلعبارات التوراة حتى تتفق مع نظريات الفلسفة وأقوالها ، ولتحويل

---

(١) اللغـة العبريـة تعـرف الاسم بـالهاء والـلام ، وهـالـزمـان تعنى الـزمـان ، وبالانجليزية يكتب **Maimonides**

النصوص التــوراوية إلى تعاليم الأرسطيــة النصوص التوراويــة إلى تعاليم أرسطية ، وجهده ومحاولات فى هذا الصدد كثيرة الوجوه وعندما يستعصى التوفيق أو لايجد من الاحتمالات المجـازية مـايحمل عليه نصــوص الكتاب المقدس يقرر أنه يوجـد بعض النقص فى العقلية البشرية ، ولذا يعجز البشر أحيانا عن الوصول إلى ما يتضمنه النص الإلهى ـ ويرجع النقص إلى القوى البشرية وليس إلى النصوص .

هــذه المحــاولات وهــذا الكتــاب من أعظم أو هى أعظم مــا أضــاف ابن ميمون إلى الفكر الدينى اليهودى : وقد عالج مشكلـة الخيفة ـ علاجا يغاير ماكان عليه سابقوه . فقد بعــد بها نهائيا عن دائرة الدين ، وكل ماكان يعنيه هو سلامــة الإرادة الالهية والعناصر التى بها حول بداية الخليقــة ـ وأبدى المشكلة فى هذا الموضــوع حول نقطة واحدة ، هل هــذا الكون نشأ عن إرادة الهيــة حرة عن السبب ومــاله مــن تأثير طبيعى . ومسألة السبب هــذه هى النظريــة الأرسطية التى تقــول ان الله ـ سبحانــه ـ هــو السبب الأول الذى انبثقت عنه الكائنات بالضرورة كما كان تنبثق الأشعة تلقائيا عن الشمس ، وتنبثق عنها الحرارة .

وحيث رفضت نظريــة أرسطو عن نشأة الكــون بقيت نظرية أفــلاطون وهى قبل كل شىء تقرر خلود الكــون ، وتتصور الخالق فى موقف الصانع الذى يباشرصنعــه بواسطة شىء موجود مــن قبل لاشكل له ، وهذا لاينفى وجــود الإرادة الإلهية فى نشــأة الكون وإبــرازه إلى الــوجــود . وهذا أيضــا يقتضى قدم العالم لأن الإرادة الهية قديمة وهى لابد ان ينتج عنها شىء أو يفيض عنها .

وهــذه النظريــة الأخيرة ـ فى نظــره ـ لاتتعــارض مع الدين إلا فى نقطــة واحدة وهى أن نص التــوراة يقول إن الله قــال للكون كن فكان ـــ وهذه لم يعتبرها ابن ميمــون معارضــة حقيقية ، وذهب يلتمس لها أوجــه التوفيق ، ولكنه رأى أن نص التوراة أوضح فركن إلى قصور العقل البشرى .

وهو يــرى فى هذه النظــريات تأكيــدا لوجــود الله وأدلة عليــه ، حتى مع افتراض ان الكون قديم خالد . وفى هذا الصدد ذهب يعرض افتراضات بلغت ستة وعشرين فرضا كلها مشتقة ومبنية على نظرية أرسطو الفيزيقة. ونجد

مثـل هـــــذه الافتراضات أو بعضها فى فلسفة المسلمين مثل الموحد الأول والسبب الأول والمحرك الأول ، والتوفيق بينهما جميعا ليس عسيرا فى نظره.

وإذا كان لنا ان نستمر قليلا مع ابن ميمون فى فلسفته فانا نذكر لمحات عابرة فى فلسفته ان مفتاح الاتصال الحق بالله هو المعرفة أو بالدقة معرفة الله ـ وهذه المعرفة عقلية بحتة تشمل كل الأشياء فيزيقية أو ميتافيزيقية أو فلكية أو علمية طبيعية أو كيماوية أو منطقيـة أو فلسفية .. الخ ، فهذه تقود إلى تعليم أو إدراك حقيقى إلى وجـود الله ، وهذه المعـرفـة بقدر مـا يستطيع العقل الإنسانى أن ينال منها تقود تلقائيا إلى اتصال الانسان بربه فى الدنيا، كما تعد الروح إلى حياة خالدة سعيدة فى الدار الآخرة ، حياة المعرفة والعلم ورضا الله .

فى هذا الاتجاه نجـد الفلسفة الميمونية تجرى مع فلسفـة أرسطو فى خط واحد ، ذلـك أن أرسطو يرى أن المعـرفة هى الهدف الأخير والأسمـى الذى تتسامى إليه الإنسانية ، ولكن ابن ميمون يتجه اتجاها آخر فرعيا فى فلسفة أرسطـو هو أن المعـرفة بـالله تتجه أو تقـود إلى محبة الله ومحبـة الله تعنى محبة ما أمـر به من الأخلاق وحسن السلوك لأن هذه الأخلاق تقـود تلقائيا إلى محبة الله وحب محاكاته فى تصرفاته الحكيمة .

وينفصل عن أرسطـو نهائيـاً فى مسألـة النبـوة ، ويجرى مع الفلسفـة الافـلاطونيـة والاغـريقية عـامة فى أن النبـوة صفـة مكتسبة يصل إليهـا الانســان بالمعـرفـة ــ والعلم ، وكل من أخضع نفســه لمتطلبـات المعرفـة يستطيع أن يرتفع بها إلى مقام النبوة .

ومرت بنا قريبا نظرية يهوذا حليفى من أن النبوة منحة يضيفها الله على من يصطفيـه مـن بنى إسرائيل ، ممن يـؤدون شعــائر الله فى أرض المعـاد المقدسة ـ كذلك تتعـارض مع رأى التلمود فى أن النبوة نعمة من الله يضيفها على من يشاء اطلاقـاً ، ولكنه بعد هذا كله يقـرر أن الانسان بعد أن يحصل على كل الأسبـاب التى تقـود إلى النبـوة يظل أمـره معلقـا بإرادة الله وبهذه الفكرة رجع إلى التعليم اليهودى .

نستطيع بهذا ان نقول ان ابن ميمون يشـترط المعـرفة الحقة أولاً لإدراك النبـوة ، ثم يبقى الشخص معلقـا تحت المشيئة الالهيـة ، وبـدون المعرفـة لامشيئة فى النبوة .

وقد شرح ابن ميمون وصايا التوراة على ضوء هذه الفلسفة ، إذ قرر ان الغـرض الـذى تهدف إليه هـو الأخـلاق والمعـرفة ، وبها تكمل إنسـانيـة الانسـان، وبها نبعث الانارة القلبيـة فيه ، وتنبت فيه القابلية للمعـرفة العليا والحقيقية الميتـافيزيقيـة التى يربطـه بالله ، وبغير هـذه المعرفـة واخضاع النفس لهذا السلوك لاتؤدى الـوصايا إلى الغاية المنشـودة من الاتصال بالله والحياة معه !

وفى تفسيره للـوصايـا قـرر أن الكثير منها جـاء لمعـارضـة الوثنيـة فى عباداتهم ، وقد كانت غامضة فى وقت نزول التوراة والتشريع الالهى ، وعلى سبيل المثال مسألة الضحايا البشرية التى أبعدتهم التوراة عنها .

وتناول فى فلسفـة المعجزات التـى جاءت فى التـوراة فردهـا إلى أسباب وظواهـر طبيعية ، وهـو لم ينكر المعجزات نهائيـاً بل قال بـامكانها ، ولكن الدين فى نظره لايعتمد على المعجزات ، وإنما يعتمد على الحقائق الفكرية ، أو لعله فى هـذا الغموض ان القـدرة الالهية تهيـىء الأسباب الطبيعيـة لظهور المعجزة ، وفى اتجاهه إلى تفسير النصوص تفسيرا مجازيـا فسر ماجاء فيها عن الجنة والنـار تفسيرا مجازيا أيضاً ، وكـذلك فعل فى حديثـه عن الملائكة والشيـاطين . ومـاجاء عنهـم فى الكتب المقدسـة . ولم ينكـر وجـود أى من النوعيـة نهائيا ، ولكنه أنكـر أن يكون أى منهم نـزل إلى الأرض فى وصورة انســان ، وقرر ان كل مـاجـاء عن الشيـاطين فى المدراش والتلمود إنما هـو صور مجازيـة لتقريـب المعنويات إلى الأذهـان . وبالأسلـوب نفسه عـالج ماجاء فى الشعر الدعـوى على ألسنة الأنبياء وخصوصا فى عصر المسيح من ذكـر الشياطين والجنـة والنار ، وقـال ان عصر المسيح لم يكن يختلف عن غيره من العصور من نـاحية المظاهـر الطبيعية ، وكثرة الشيـاطين والرؤى التى تغنى بها الأنبيـاء فى هـذا ليست إلا أسلوبـا مجازيـا أرادوا به قيـادة الناس إلى معرفة الله الحقة ، وبهذا قرر ان المسيحية والاسلام مهدا الطريق لهذه المعرفة ، وحديث الكتب الدينيـة عن الجنة ونعيمها والنار وعذابها كله من هذا النوع المجازى ـ أمـا النعيم الحقيقى فهو الاتصال الروحى بواجب الوجود ، كما أن العذاب الحقيقى هو البعد عنه والجهل به .

ومن خلال هذه النظرية يقول ابن ميمون ان معرفة بالله هى التى قادته إلى تقريـر العناصر الأولى لليهودية ، وكـانت الخطوة الأولى معارضـة الذين أنكروا الرؤيـا أو الوحى وأنكروا البعث ، وأخيرا لخص مقـالات اليهودية فى العناصر الآتية .

١ — الإيمان بالله وبالعناية الالهية .

٢ — الإيمان بوحدانيته .

٣ — الإيمان بأنه مجرد من المادة .

٤ — وأنه خالد أبدى .

٥ — أنه وحده المستحق للعبادة ولا يعبد غيره .

٦ — الإيمان بكلام الأنبياء .

٧ — وأن موسى كان أعظمهم ، أعظم جميع الأنبياء .

٨ — الإمان بالوحى إلى موسى فى سيناء .

٩ — الإيمان بثبات ودوام القوانين التى أوحيت فى سيناء .

١٠ — الإيمان بالله كلى العلم يعلم كل شىء .

١١ — الإيمان بالجزاء فى الدنيا وفى الآخرة .

١٢ — الإيمان بمجىء المسيح .

١٣ — الإيمان ببعث الأموات

ويمكن تلخيص أهـدافـه الفلسفيـة فى أمـرين ، تأسيس فلسفـة دينيـة مرتكزة على المقدسات اليهودية ، ثم معارضة المسيحية والاسلام.

ولابن ميمـون كتاب مشهور فى الطـب اسمه «الفصول فى الطـب» ، وقد أضاف إلى الطب الموروث فى عهـده أشياء جـديدة استخلصهـا من تجاربه، وهـو فى طبـه متأثـر بطب جـالينوس، ولكنـه كـابن رشـد لم يكن يعـرف الاغـريقيـة، وانما نقل عن المسلمين على الأخص الـرازى وابن سينـاء وابن زهـر، وقد استحسن طـريقة الختـان من الـوجهة الطبيـة، وعزا الامسـاك المعوى إلى البواسير، ووصف للامساك الطعام الخفيف والخضراوات (١).

(١) انظر Yudaism 220

وكتابه الدين الفلسفى «هداية الحائرين» نشر بالعبرية وترجم إلى الفرنسية، ولكنه بحديثه عن النبوة والمعجزات الذى سبق أغضب الكثيرين من اليهود حتى عابوا كتابه وسموه «الضلال» .

وقد كتبت مؤلفاته كلها إلى اللغة العربية ماعدا واحدا منها، وكانت تكتب بالحروف العبرية .

وترجمت أيضا بعض نظرياته إلى اللاتينية، وظلت إلى القرن الثامن عشر الوسيلة الوحيدة التى ينتقل بها الفكر اليهودى إلى الأمم الأخرى، وكان لها آثار أيضا فى المسيحية.

وجاء فى كلام القفطى وابن ابى صيبعة أنه كان فى اسبانيا يظهر الاسلام ويبطن اليهودية، وهو عمل ليس غريبا ولا بعيدا عن يهودى ولكن النقاد المحدثين عارضوه ويقال إنه أسلم ثم ارتد .

ولخص ابيستاين فلسفته فى النقاط الآتية .

١ـ الإيمان بوجود الاله خالق الكون .

٢ـ الإيمان بوحدانيته .

٣ـ الإيمان بأنه معنوى لا جسم له .

٤ـ الإيمان بأنه خالد لا يموت .

٥ـ الإيمان بأنه وحده المستحق للعبادة .

٦ ـ الإيمان بكلام الانبياء ورسالتهم .

٧ ـ الإيمان بأن موسى عليه السلام أعظم الأنبياء .

٨ ـ الإيمان بالوحى إلى موسى فى سيناء حيث تلقى القانون الالهى .

٩ ـ الإيمان بأن هذا القانون ثابت لا يتغير .

١٠ ـ الإيمان بأن الله عليم بكل شىء .

١١ـ الإيمان بالجزاء العادل فى هذه الدنيا وفى الآخرة .

١٢ ـ الإيمان بمجىء المسيح .

١٣ـــ الإيمان ببعث الموتى وحسابهم .

وكان يرمى من وراء هذه الفلسفة إلى أمرين

أن يؤكد تصورات فلسفية خاصة بالاله الخالق .

أن ينافس ما تدعو إليه المسيحية وما يدعو إليه الإسلام .

موسى ماندلسون

لهذا الـرجل أثـر كبير فى تقـريب مسـافـة الخلف والجفـاء بين اليهـود والمسيحيين فى أوروبا، وهو قد عـاش فى عصر النهضة (١٧٢٩ـ ١٧٨٦)م وهـو أيضـا من الشخصيـات البـارزة الكبيرة التى أضفت على اليهـوديـة صبغة خاصـة وتركت أثرا عميقا فى حياة اليهود، ولا تـزال آثاره الفلسفية قائمة .

لخص فلسفته الميتافيزيقية فى ثلاث نقاط رئيسية هى :ـ

الإيمان بالله، الإيمان بالعناية الالهية الإيمان بخلود الروح.

وكانت اليقظـة العقلية فى عصر النهضة تعـرف بحركـة الاستنارة وهى تابعة أساسـا من فلسفة كانت(١)، وهى فى الواقع باعثة اليهودية الحديثة، ومانحة اليهودية عامة مظهرها الحديث .

وأهم ما فى المظهـر الحديث انه وفق بين اليهـودية والمسيحيـة إلى درجة كبيرة، لأنه أبرز مواضع الاتصال بين الديانتين، وعمل على إزالة الجفوة بين الـديانتين أو على الأصح بين اليهـود ومواطنيهم المسيحيين، وأيضـا بسط القوس والعبادات اليهودية .

وقد كـان كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) يعيـش فى بروسيا الشرقيـة، ومنها ومنـه انبعثت حـركـة الاستنـارة الاتجاه نشأت معـابد يهوديـة حـديثـة،

(١) لم يكن إيمانويل كـانت يهوديا .. وإنما هـو مسيحي بروتستـانتي ومعروف من فلسفته أنـه رفض كثيرا من الأصول الـدينية ، لأنها تتعـارض مع الفلسفة ، أو لأن الفلسفة لا تقـرها والعقل لا يقبلهـا ، ولكن كثيرا من الأشيـاء التى رفضها دينـا تقبلها أخلاقا ، لما لها من أثر فى حسن السلوك والعاملة الطيبة الكريمة ، وقد حاول أن يخضع كل شيء للعقل ، ولم يقبل من الفروض ما لا يقبله العقل ويقـره ، وكان يناقش الغرض ويناقش ضده أو نقيضه ، فما ثبت للنقد وسليم من الطعن قبله .. وما لم يثبت رفضه . وتعرف فلسفته بـاسم الفلسفة النقدية ولم يقف بنقده عند الفـروض المستحدثة ، بل نـاقش الأشياء التى تـواضع عليها النـاس وجـروا على أسسها منـذ زمن بعيد ، وكـان يناقش الآراء التجريبية ويناقش العقليين .. ويقـابل الطبيعيين بالرياضيين ، ويقابل الآليين بالدينـاميكيين واستفاد من فلسفته كثيرون منهم ماندلسـون. عاش كانت بين عامى ١٧٢٤ و ١٨٠٤ فهو معاصر لماندسون .

وانشىء أول معبد بـواسطة اسرائيل يعقـوب (١٧٦٨ ـ ١٨٢٨) ـــ وكانت هذه المعابد تخالف سبقتها فى مبادىء كثيرة(١).

وفى بدايـة القرن التـاسع عشر وبتأثير فلسفـة الشك وسيدة الـدراسة العلميـة للتـاريخ اتجهت بحـوث حـديثـة لـدرس العهـد القـديم ودرس التفسيرات التى قامت حـوله وكونت التلمـود، وإزاء هذه النزعـة لم يعد من المقبول أن الاسفـار الخمسة (من أول العهد القديم) ممـا أوحى إلى موسى، أو ان الله أملاهـا عليه فكتبها، أو كتبهـا عدد من الكتبة، بل إن فكـرة الوحى تبددت نهائيـا، وكذلـك التلمود كـان منذ قـرون طويلـة مصدر الـربانيين ورجال الـدين اليهودى وضع موضـع الشك والانكار، وهو فى الـواقع كان أكثر أهميـة فى جوانب التشريع والسمعيـات والعقائد من نصـوص الكتاب المقـدس، لأنه يحوى تفصيـلات وقواعـد وأخبـاراً وأحكامـا تتناول كلهـا شئـون الحياة المختلفـة ، مما لا وجـود له فى الكتـاب المقدس، ولكن هـؤلاء المحـدثين واجهـوه بكثير من الاعتراضات، وألقـوا عليـه كثيرا من الشكـوك والاتهامات، وسلبوه قـداسته نهائيا لأنه من صنـع البشر ونتيجة دراسات واجتهادات قد تصيب وقد تخطىء ، فلاينبغى أن تكون له هذه القداسـة، بل اعلنـــوا أن محتـويـــات الكتابين ـ الكتاب المقدس والتلمود ملوثة بخرافات لا ينبغى أن تتدنس بها عقول الناس، بسبب ذلك كلـه اتجه دارسو الديانة اليهودية ومعلموها ـ تأثرا بتيـار العصر وحركة الاستنارة العقلية إلى ديانة مبسطة توحيـدية لا ترتبط بالقـومية اليهودية ولا بـأرض المعاد، ودعوا إلى ديانة كونية لهداية الناس جميعا ، ويلاحظ فى هذا الموقف أمران .

١ ـــ ان يغلب على الظن أن هـذا الاتجاه كـــان نتيجـة تأثـر بـالحركـة الاسـلاميـة، وقد كـانت افكارهـا الميتافيـزيقية قـد تسربت من آسبـانيا إلى جوانب أوروبا، وهذه الحركة جـاءت بعد الحروب الصليبية وبعد الاحتكاك بالمسلمين نحو مائتى عام .

٢ ـ ان الـدعوة اليهـودية مع تخليهـا عن قوميتهـا، واعتبارهـا أن الاله

(١) كان اسـم المعبد مقصورا على المعبـد فى بيت المقـدس وكانت هـذه أول تسمية لمعبد خارج أورشليم ثم تبعته دور العبادة الأخرى .

الواحـد ليس اله اليهـود وحدهم لم تقض على النزعـة القوميـة بين اليهود، فمازال جنسـهم لـه ميـزته، ومـازال شعبهم هـو الشعب المختـار المفضل، ولكنها دعوة ظهرت بين قوم تأثروا بمبادىء خارجية .

وقد كان من الطبيعي أن تقابل هذه الحركة التجديدية بحركة أخرى من المحافظين أصحاب الروايات التى كونت التلمود ، فهم يرونها مقدسة لأنها فسرت كتابا مقدسا ووضحت نصوصـا ربانية واعطت الشعائر اليهودية ، ومن جهة أخـرى رأوا فى هذه الحركـة المستحدثة ،أنها حـركة هـدم وانكار لم تقف عند موارد التلمود، بل عصفت بكل المقدسات التاريخية، وبالرباط الذى جمع اشتات اليهودية خلال عصـور التمزق والتفرق الطويلة، فاعلن هؤلاء مقـاومتهم للحركة التجـديدية، وكـانت مقاومتهم قويـة ولا تزال إلى الوقت الحاضر، قواهـا أنها تستند على تراث قديم وتقاليـد ألفها اليهود من زمن بعيد .

ولانـزال إلى الآن نجـد هـذين التيـارين فى الفكـر اليهـودى والحيـاة اليهودية، ولكن يجب أن نقرر أن الحركة المحافظة لم تكن منعزلة عن حياة الناس والتيـارات العقلية ، بـل كان فيها رجـال بذلـوا جهدا فى التقـريب أو التوفيق بين المحافظة والتجديد، نذكر بعضا منهم .

زكريا فرانكل

شغلت حيـاة هـذا الفليسوف ثـلاثـة أرباع القـرن التـاسـع عشر الأولى تقريبا (١٨٠ ـــ ١٨٧٥م) وهو فيلسوف يعتبر المؤسس للمـدرسة الحديثة التى عرفـت باسم مدرسـة التاريخ الايجابى، وخـاصية هـذه المدرسة أنها تجمع بين وجهة نظـر علمية نـاقدة وبين المحافظـة على التقاليـد والاخلاق اليهوديـة قررت هذه المدرسـة أن الشريعة والتلمود، والتفسيرات الـواسعة التفصيلية التى قـامت حوله قد طبعت حيـاة اليهود بطوابع خاصـة خلال قـرون طويلـة، فهى لـذلك لها قداستهـا وتجب المحـافظة عليهـا، ومع أن التقاليـد التى طبعت حياة اليهـود والطقوس الدينيـة التى يقومـون بها قد تكون كلها أو معظمهـا مما استحدث بعد مـوسى، ومع أن نصوص التوراة قد تكون بدلت وغيرت بالحذف والزيـادة مع هذا كله تجب المحافظة عليها، لأنها اكسبت حيـاة اليهود سمات خـاصـة ، وهى التى حافظت على حيـاة

المجموعة والـوحى الالـهى، كما انها رسمت طريقة العبادة اليهـودية وقادت إلى التقوى وإخلاء اليهود من هذه الصفات يجعـل حياتهم جافة خالية من الروح المعنوى، كما يذهب بوحدتهم ويعرضـهم للتفكك .

وبهذا تجد أن مـذهب فـرانكل دعـا إلى الابقاء على الموروثـات لأسبـاب خاصــة، ولم يحاول اقامة الادلـة على صحتها، ولا على كـونها سماوية ولم يقدم براهين علميـة تدعو للاخـذ بها، ونظرته القوميـة التعصبية أقوى من نزعة الدينية والعلمية، ولكنه بوجه ما مجدد .

وقامت فى ألمانيةحركة محافظة تقاوم حـركة التجديد عامة، وظل معظم اليهـود فى أوروبا محافظين لا مجددين، أمـا فى أمريكـا، وهـى أمـة حديثـة لا تحرص على التقاليد فقد وجدت اليهودية المجددة أرضا خصبة، وظفرت بكثير من الازهار .

وبينما كانت هـذه الفرق اليهوديــة فى صراعها ظهر مبـدأ أو اتجاه آخر كـان له أعظم التـأثير فى حياة اليهـود خـلال القرن العشرين ــ وذلك هـو الحركة الصهيونية التى أذكاها ما صادف اليهود من اضطهادات فى أوروبا ففى روسيـا عقب استيـلاء الاسكنـدر الثـالث على عـرش الحكم (١٨٨١) واجه اليهود حـركة اضطهاد وكراهية، كـان لها بواعث كثيرة ربما كان من أهمها استحواذهم على الثروة فى البلاد، ثم كانت فى فـرنسا حركة قريبة من هذه، وكذلك فى بعض الاقطـار الأخرى، فقد كانت الشعـوب الأوروبية تكره فيهم نزعـة الاستغلال والاستئثار بالمال وأحسوا هم بـالحرج فى كل مكان، فقـويت وشـــاعت فيهم فكـرة الصهيـونيـــة. واتجهت افكـارهم إلى اتخاذ فلسطين وطنا قـوميا لهم، وهم يحنون إلى أرض المعـاد منذ شتتهم نبـوخذ ناصر ، وهم فى الواقع لم يظفروا بإقامة هانئة مستقرة ومتنقلة بها منذ ذلك الوقت، وكـانوا يحلمون بـالعودة ولكن لم تكن لهم آمـال كبيرة فيها ، حتى جاءت هذه الأحداث فبثت فى الفكرة حيـاة جديدة اتجهت افكارهم إلى اتخـاذ فلسطين وطنا دائما لهم لأن بها بيت المقدس، ولأنها أرض الميعـاد وقد وعد الله بها ابراهيم ويعقـوب فرأوا أن يـركزوا تفكيرهم وجهـودهم على العودة إليها. وهكذا قامت حركة الصهيونية التى انتهت بقيام دولة اسرائيل .

الباب الثانى عشر

إسرائيل الجديدة

مخططات تاريخية

عرض الأستاذ محمد السمان فى كتابه «الأصولية الانجيلية» مخططات تاريخية بارزة» نقتطف منها هذه النقاط:

١٦٤٩ صدر نداء العالمين اللاهوتيين الانجليزيين من هولندا «حوانا والبنزر كاريت رايت» إلى الحكومة للمطالبة بأن يكون للشعب الانجليزى ولشعب الأرض المنخفضة شرف نقل اليهود إلى الأرض التى وعد الله بها أجدادهم.. ومنحهم إياها إرثا أبديا.

١٦٥٥ تبنى أوليفر كرومويل هذا النداء، وألغى قانون نفى اليهود الذى أصدره الملك إدوارد.

١٦٢٢ نشر هنرى فنش — وكان المستشار القانونى لملك انجلترا دراسته من «الاستعادة الكبرى للعالم» - يدعو لاستعادة امبراطورية الأمة اليهودية.

١٧٩٩ دعا نابليون الأول يهود العالم للقتال معه لإعادة مملكة القدس القديمة.

١٨١٨ الرئيس الأمريكى جون آدمز يدعو إلى استعادة اليهود لفلسطين وإقامة حكومة يهودية مستقلة.

١٨٣٩ نشر اللورد أشلى كوبر «إيدل شافتسبرى» دراسة عن أن اليهود هم الأمل فى تجدد المسيحية وعودة المسيح، وأن لله إرادة يعودتهم إلى فلسطين.

١٨٤٠ بـرنامج شـاقتشيرى إلى مـؤتمر لنـدن بشـأن توطين اليهـود فى فلسطين على قاعدة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

١٨٤٤ البرلمان الانجليزى يـؤلف لجنـة إعادة أمـة اليهود إلى فلسطين. نشر مشروع إدوارد متفـورد «إقامـة دولة يهوديـة متكاملـة فى فلسطين تحت حمايـة انجليـزيـة مؤقتـة إلى أن تتمكن الـدولـة اليهودية من الوقوف على قدميها.

١٨٨١ أغتيل القيصر الروسى الاسكندر الثانى.. وتعرض يهود روسيا للإضطهاد والهجرة.

١٨٨٧ أسس بلايستـو ن فى شيكاغو منظمـة «البعثة العبرية نيـابة عن اسرائيل» لحث اليهـود على الهجـرة إلى فلسطين ـ هـذه البعثـة باقية حتى اليوم باسم «الزمالة الأمريكية المسيحية».

١٨٩٦ صدور كتاب هرتزل: الدولة اليهودية.

١٨٩٧ انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بال فى سويسرا.

١٩٠٣ تشمبرلين يعرض على هرتزل الاستيطان اليهودى فى العريش.

١٩١٧ صدور وعد بلفور بمنح اليهود وطنا قوميا فى فلسطين.

١٩٢٢ عصبـة الأمم المتحـدة تقـر الانتـداب البريطـانى على فلسطين ـ وقرار مجلس النواب الأمريكـى بضرورة منح اليهود الفـرصة التى حـرموهـا لإعادة إقـامة حيـاة يهودية وثقـافة خـاصة فى الأرض اليهودية القديمة.

١٩٢٢ إعـلان المصادقـة الأمريكيـة على وعد بلفـور الفاتيكـان يوجـه مذكرة رسميـة إلى عصبة الأمم ينتقد فيها إقـامة وطن لليهود فى فلسطين.

١٩٣٠ تأسست منظمـة «الاتحاد الأمريكـى من أجل فلسطين» للدفـاع عن وطن اليهود القومى.

١٩٤٣ انعقاد مـؤتمر برمـودا من روزفلت.. وفتح أبواب هجـرة اليهود إلى فلسطين. الفاتيكان يعارض انشاء دولة يهودية فى فلسطين.

١٩٤٤ أرسل الفـاتيكان إلى الـولايـات المتحدة يحذر من الخضــوع إلى المطالب الصهيونية.

١٩٤٧ ترومان يدعـو إلى تحقيق أكثرية يهودية فى فلسطين ويطلب من انجلترا أن تسمح لمائة ألف مهـاجـر يهودى يدخـول فلسطين. صـــوتت الأمم المتحـدة على تقسيم فلسطين إلى دولتين عـربيــة ويهوديـة، وتـدويل القـدس ـــ بأكثـريـة٣٣، ومعـارضـة١٣، وامتناع ١٠ عن التصويت.

١٩٤٨ قيام الكيـان الاسرائيلى، واعتراف أمريكى وســوفيتى به أمـريكا تقرض اسرائيل بقيمة مائة مليون دولار.

١٩٤٩ مساعـدة أمريكيـة لإنماء اسرائيل بقيمة ١٥٠ ألف دولار احتلت اسرائيل جنوب النقب ووصلت إلى خليج العقبة «إيلات».

١٩٥٦ العدوان الثلاثى على مصر.

١٩٦٤ اسرائيل تمنع بـالقوة العسكـرية ـ تحويـل رواقد نهر الأردن فى لبنان وسوريا.

١٩٦٧ حرب على مصر وسوريا والأردن، واحتلال سيناء وغزة والضفة الغربية ومرتفعات الجولان والقدس.

١٩٦٩ محاولة إحراق المسجد الأقصى.

١٩٧٦ إعـلان جيمى كـارتـر «أن تـأسيس اسرائيل المعـاصرة، تحقيق للنبوءة التوراوية.

١٩٧٨ مؤتمر كامب ديفيد.

١٩٧٩ معاهدة السلام المصرى الاسرائيلى.

كيف استعادت اسرائيل كيانها

ظل اليهود مشتتين فى أنحاء الأرض قرابـة ألفى عام، ثم قامت لهم دولة قوية فى فلسطين ويطول بنا الحديث إذا ذهبنـا نتتبع الخطوات التى خطوها طـوال هـذه الأيام حتى قـامت لهم دولـة، ولكننـا نختصر الحديث ونكتفى بالسمات البارزة فى هذا الطريق.

وقد كـان اليهود بغيضـين لـدى كل الشعوب التـى عاشوا بينهـا، ولكن

كانت لهم روابط خفيـة خاصة، وفى كل بلـد عاشوا فيه كـان لهم مايسمى حـارة اليهـود أوسوق اليهـود، وكـانت لهم اجتماعـاتهم السرية، وكـانـوا يحاولون التـدخل فى شئون الناس والانـدساس فى مجتمعاتهم، وبـرعو فى الطب والشئـون الماليـة، ولم يكن بين غير المسلمين من يتقبلهـم أويأنس إليهم. فالمسيحيون يعتقدون أنهم أعداء المسيح الذين وشوا به حتى قدموه للصليب، ولـذا كـانت الجفـوة بينهم شـديـدة، وهم لـدسـائسهم الخفيـة وتـدبيرهم السيىء للحصول على المال والتفـوق على من حولهم يبغضـون من الشعوب، ولكن نشاطهم وتفـوقهم الثقافى والمالى أعانهم على جمع المال، وعلى التفوق حقا على جيرانهم ومخالطيهم.

ففى أسبانيا على سبيل المثال كانوا قبل الفتح الإسلامى منبثين فى أنحاء البـلاد فى عهد القـوط، ولم يبالـوا أن يعملوا خـدما عنـد أمراء النصـارى، وموظفين ماليين عند أصحاب الضياع والأموال[1]، واحترفوا المهن الحقيرة التى كان العرب يتنزهون عنها من الحدادة والنجارة وأعمال البناء.

وأفسح لهم المسلمـون مجال الحريـة وسمحـوا لهم بتـولى الـوظـائف العاليـة حتى لنجـد الخليفة الأموى عبـدالرحمن الثـالث الناصر لـه طبيب يهودى هو حسداى بن شبروط وقد عهد إليه أيضا بشئون المال[2].

وكان اسماعيل بن تعزاله اليهودى وزيـرا للأمير البربرى حبوس. وكان لسليمان بن يحيى بن جبرول شعر عبرى يبدو فيه أثر الشعر العربى، مما يـدل على تـدخلهم لدى المسلمين وتعـرفهم على الأدب العـربى، وقـد درس فلسفة ابن مرة وضمنها كتابه «ينبوع الحياة»، ولكن هذا كله لم ينجهم من الاضطهاد والمضايقـات لكراهة الناس لهم، وكان أشـد اضطهاد عليهم هو اضطهاد المرابطين، وبـه اضطر ميمون والـد موسى بن ميمـون أن يغادر أسبانيا إلى افريقية سنة ١١٥٠م. ثم رحل إلى فلسطين.

ونرجع قليلا إلى الوراء لنرى بدايـة انفراج عزلتهم الاجتماعية، فنجد أن

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص٣١٤
(٢) نفسه ٣١٥

حركة التنوير التى انبثقت فى القرن الثامن عشر بداية الشرارة التى اشتعلت بعد ذلك، فهـذه الحركة دعت إلى المنطق وربط المسببات بأسبـابها، وأكدت الحرية والمساواة بين الناس من غير نظر إلى أديانهم أوأجناسهم. ثم جاءت الثـورة الفـرنسية وكـان شعـارهـا الإخاء والمســاواة وبها أعلنت حقـوق الإنسان وحرية العقائد، وبهذه الأفكار نال اليهود مكانا فى مجتمعاتهم.

كانت بـداية حـركة التنويـر فى أقطار أوروبـا الشمالية، وفى انجلترا ثم وصلت فـرنسا، وانتشرت من فـرنسا ـــ بعـد ثورتها ـــ إلى ألمانيا ثم بقيـة الأقطار المجاورة حتى وصلت الفولجا.

هذه الحركة هى التى أزالت الفوارق والحواجز بين اليهود ومجتمعاتهم وبرز فى محيطهم أشخاص شجعوا هذه الحركة وأضافوا إلى تعاليم اليهود الدينية والاجتماعية كثيرا أوقليلا كل على حسب جهده.

وأبرز هؤلاء موســى ماندلسون ـ الذى سبق ذكره مـع فلاسفة اليهود فهـو تحت تأثير ليبننتيـز leibnits عمل كثيرا فى ميـدان التســامح الـدينى فأخرج كتابه أورشليم jeruselem وقرر فيه أنــه لاحقيقة تفهم أوتؤسس إلا على المبادىء الثـلاثة التى سبقت فى فلسفتـه، وقد قال: إن اليهـودية ليست دينا مـوصى بـه، وأن الصوت الذى سمعـه موســى فى سيناء كـان يتكون أويطلب مجرد اعمال هدفهـا أن تحفظ تقاليد الجماعة اليهـودية حتى تظل متماسكة الوحدة والكيان.

بهذا أدخل مانـدلسون على اليهـودية شيئا مغـاير لما عملـه ابن ميمون وغيره من فـلاسفـة اليهـود الدينيين. ومن أعمالـه التى حـاول بها إدمـاج اليهـود بمجتمعهم الجرمـانى انـه ترجم التـوارة إلى الألمانيـة، وبـذا شجع اليهود الألمان أن يستبـدلوا بلغتهـم اليهوديـة الألمانية لغـة ألمانية خـالصة مكنتهم من الاندمـاج لدى الشعب الألمانى كما أعدتهم للمشاركـة فى المدنية الغـربيـــة، وصحب هـذه الترجمة تفسير عبرى يقـوم على ثقـــافـة العصر الحديث، وبهذا أعد اليهود لتلقى ثقـافة عامة عالمية، وقـد قبل ماواجهه من معارضات ولكنـه لم يعدم أنصارا يدعـون لأفكاره، فقد كان لـه حواريون أتقيـاء أخرجـوا مجلة سمـوهـا اسما عبريا «حشكـالاه» Heskelch، وسموا

أنفسهم بهذا الاسم أى الأتقيـاء أوالمحافظـون. واستمـرت هذه المجلـة من سنة ١٧٨٤ حتى سنـة ١٨١١ واستعملت الكتاب المقدس فى أجمل صــورها ونشرت أفكارا تلمودية فى محيط واسع.

ونذكـر من أشهـر حوارييـه نفتالى هــرز ويزلى Nofhtoly Hers Wessely (١٧٢٥ ـ ١٨٠٥). فقـد كان ذا حماس بـالغ لإذاعـة أفكار أستـاذه، وكان شاعرا ذا شهرة فاستطاع أن يستحـث يهود النمسا وهانغاريا أويستجيبوا لنداء البـابا يوسف الثانـى (١٧٤١ ـ ١٧٩٠) وبذا قرب أبعـاد الفجوة بين اليهود والمسيحيين.

وعـاش مانـدلسون حتى رأى بـواكير جهـاده وأعماله التعليميـة، ففى سنــة١٧٧٨ فتحت فى بـرلين أول مـدرسـة يهودية تـدرس المواد الـدينيـة والدنيويـة باللغة الألمانية. وظهرت بوادر ذات أثـر غير كبير فى إزالة الجفوة والكراهة ضد اليهود والدين اليهودى. وساعد ذلك أن أعلن فريدريك الأكبر فى بروسيـا (١٧١٢ ـ ١٧٨٦) أن كـل شخص فى دولته لـه حريـة السلوك والعبادة على مايحب.

وبعـد خمسة أعـوام من موت مـاندلســون سنة ١٧٩١ ظهـرت بدايـة الحريـة اليهوديـة إذا عقد المؤتمر القـومى الفرنسى فقـرر قاعـدة حريـة الأديان، وبذا أعطى اليهود مع حرية الدين حقوقا مدنية كاملة.

وظلت حـركة اليهـود تنمو تدريجيـا، وظهر عـدد من الأفـراد يغذونها بالأفكار ويشجعون نظامها. ولسنـا بحاجة إلى ذكر الكثيرين منهم، ونذكر بعضا مـن أهمهم داود فرايـدلا إندر Dauid Freid lender (١٧٥٦ ـ ١٨٣٤) فهو من أشهـر حواريى مـاندلسون ومـذيعى أفكاره وتعـاليمه. واسرائيل حاكوبسون (١٧٦٨ ـ ١٨٢٨).

وجاكوبسون بنى فى سين. Seesen بألمانيا على نفقته الخاصة أول معبد يهودى يجدد معبــد أورشليم، وسمى المعبــد اليهــودى، وكــان ذلك فى سنــة ١٨١٠ ولم يكن لليهـود بيـوت عبادة بهذا الاسم، وكـانت معـابـدهم تسمى بيوت اليهود. Jewrish Houses وكان ذلك على أمل إعادة معبد اسرائيل القديمـة واقتبس لطقوس هذا المعبد بعض طقـوس الكنيسة، وأدخل بعض

التغييرات فى طقوس العبادة وفى الأناشيد.

وفى سنــة ١٨١٨ أعيد بنــاء الهيكل ليكــون على نسق هيكل أورشليم فى مدينة هامبرج. Hamburge.

وإلى هذا الوقت كــان قصارى مافعله القادة اليهــود هو العمل على إزالة الجفــوة التى كانت بين اليهــود وجيرانهم، ولما تبرز بعد فكــرة الصهيونيــة أواتخاذ فلسطين وطنا لليهود. وأول مانبعث هذا الصوت وهذه الفكرة كان فى روسيا. نــادى به عليــزر بن يهوذا Eliger benyehude. (١٨٥٨ ــ ١٩٢٢) وكان ذلك فى مقــال له نشره سنة ١٨٨١ فى فيينا، وسماه: «المسألــة المتهبة أوالمحترقة Burning quistion. وأشار إلى الأوطان القوميــة فى أوروبا، يريد أن اليهــود أيضــا يستحقــون أن يكــون لهم وطن قــومى. وتلقــف الشبــان الناشئــون هذه الفكرة، وقــالوا ماأمكن حدوثــه فى بلد يمكن حدوثــه فى بلد آخر، ويمكن أن يحدث لليهود. وفى هذه المقــالة دعا أيضا إلى استعمال اللغة العبرية كى تكون لغة قومية بين اليهــود. ولكنه عندما كان فى فلسطين وجد اللغة العبريــة التى اندثرت من زمن بعيــد ينقصها كلمات وتعبيرات تجارى بها الحياة الحديثــة، فأضاف من عنــده بعض كلمات ألبسها صبغــة عبرية وبها أعلن أن اللغة العبريــة صالحة لكل جوانب الحيــاة وأنها تصلح لحياة اليهود فى فلسطين.

الدعوة إلى اتخاذ فلسطين وطنا

أول من دعــا إلى هــذه الحركــة هو ليــوبنسكــر leo Pensker (١٨٢١ ــ ١٨٩١) وقد دعا إليها سنة ١٨٨٢، وكان فى أوربا، وأعلن هذا الرأى فى مجلة أوكتيب له سماه الحرية الذاتيــة أوالتحرر الذاتى Auto Emancepation وفيها وصف أعداء الساميين (اليهــود) بأنهم مرض عضــال فى المجتمع مســىء إلى الحياة كلها. وصادفت فكرته هــوى من اليهود المشردين الذين كانوا يكنون فى أنفسم هــذه الأمنيــة ولايجدون إليهــا سبيلا. وجــاء فى مقــالاتــه وصف اليهود بأنهم:

موتى أمام الحياة والأحياء أجــانب أمام المواطنين غرباء فى الأرض التى ولدوا فيها.

أما المقيمون ذوو الأوطان لاوطن لهم.

انهم مكروهون من جميع الطبقات.

منافسون أعداء كثرا ويعوزهم المساعد المعين.

لهذا كله يجب أن يكونوا ثانيا أمة لها كيانها، وشعبا له أرض خاصة به. ودوى هذا النداء وبه كان ميلاد الصهيونية. وظل بنسكر بعد ذلك يوالى نداءه وينشر دعوته، وأيدها المؤتمر الصهيوني أواليهودي الذي انعقد فى سنة ١٨٨٤م ووالى هو نشاطه فيها حتى وفاته.

تسربت الدعوة إلى رومانيا ثم ألمانيا والنمسا وأمريكا وانجلترا ثم صحبتها حركة عملية كان من أعظم نتائجها أن اتخذ الصهيونيون قرى زراعية فى فلسطين، وتوطن بها عدد كبير. وفى العام الذى ظهرت فيه مجلة بنسكر تأسست جماعة بيلو Bilu. أسسها فئة من شبان اليهود اتخذوا لأنفسهم هذا الاسم، وهو مكون من الحروف الأولى من كلمات «يابيت يعقوب تعال وادفعنا للأعلى» ـ من اللغة العبرية. وكان الأعضاء الذين كونوا هذه الجماعة كلهم أو معظمهم من الطلبة، ودفعهم حماسهم أن يصمموا على ماأرادوا وأن يكونوا هم الرواد الأوائل. وأيضا النموذج المقتدى به للمستعمرين الذين يبنون بيت اسرائيل فى فلسطين، وبهذا اعتبروا أوكانوا آباء المستوطنين فى فلسطين وواضعى نواة الصهيونية المستعمرة.

وفى سنة ١٨٨٣م أى قبل أن ينعقد المؤتمر بنحو عام قام البارون أوموند دى روث تشايلد. Rotjachild(١٨٤٥ ـ ١٩٣٤) بتبنى الفكرة وتولى الانفاق عليها وباشر توجيهها، وهو من باريس، وقد أنفق كثيرا وعنى بتنمية الجماعة والفكرة. ثم وكل أمر القيام بالفكرة إلى تيودور هرزل.

جهاز تيودور هرزل

عاش تيودور هرزل theodore Herzel بين سنتى ١٨٦٠ و١٩٠٤. وهو دون ريب أبو الصهيونية وإن لم يكن فى أول دعوته مصرا على اصطفاء فلسطين وطنا لليهود.

وحقا كان بجانب هرزل أقطاب ذوو جهاد وتخطيط للدولة اليهودية،

ولكن الحركة الصهيـونية لم تتحدد وتأخـذ شكلها المميز إلاعلى يـد هرزل لأنه نادى بقيـام دولة قومية يهودية فى فلسطين طبقا للمبـادىء الموسوية، وفى الـواقع لم يكن صهيـونيـا دينيـا، لأنه مـن اتباع جماعـة الـلاأدريـة ـ والـلاأدريـة مـذهب يخالف جميع الأديـان ولايـؤمن إلابما دخل فى نطـاق التجربة الملموسة، وكان هـرزل يعارض بكل شدة من يفهمون أن اليهودية دين من الأديـان السماوية[1]، وكـان هدفـه الأساسى مـن دعوتـه هدفـا سياسيا[2] وكان يعلن أن هذه الدولة ليست لمجرد إيواء اليهود المشتتين فى أنحاء الأرض ولكنهـا لصالح العالم كلـه، ومن خلال منح اليهـود حريتهم لابد أن يشعر العالم كلـه بالحرية والعالم أيضا يثرى بثـراء اليهود وينمو ويعظم، ونمو ثرواتهم إثراء له كلـه. وكلل سعيه بعقد أول مؤتمر صهيونى فى بازل Basel سنـة١٨٩٧، وقدر أنـه خـلال عشرين عامـا، وبـالتحديـد سنة١٩١٧، تكون بريطانيا قد استعـدت لتقرير قيام وطن قومى لليهود فى فلسطين، وتحققت نبـوءتـه ففى شهـر أغسطس سنة١٩١٧ صـدر قـرار بلفور بمنح اليهـود وطنا قـوميا فى فلسطين، وأعلن ذلك فى رسـالة بعث بها إلى اللورد روتشلد.

وكتب هرزل فى يـومياته انه بعـد خمسين عاما من هذا التـاريخ ستقوم دولة اسرائيل، وتحققت نبوءته أيضـا، ففى ١٤مـايو سنة١٩٤٨ قامت دولة اسرائيل رسميا. دعـا دافيد بن جوريـون قائد الصهيونيـة إلى اجتماع عام عقد فى متحف تـل أبيب وأعلن بين الجموع: «نحن من الآن نعلن قيـام دولة يهودية فى فلسطين تدعى «دولة اسرائيل»[3]

لم يكن اليهود جميعـا مؤيـدين للحركـة الصهيونية، بل كـان منهم من يقاومها. كـان الكاثوليكيون يترقبون يـد الله التى تحركهم وتدفعهم إلى هذا الوطن، وفى هذه الحركـة فيما يرون.. هم الذين يدفعـون يد الله لتحريكهم، قـالـوا إنهم لم يخرجـوا من وطنهـم إلا لأنهم عصـوا الله، فسلط عليهم من أخرجـوهم، ولاتجوز معارضة الله، وكـان من غير الكاثوليك من يتخـوفون عاقبة الحركة، وكان بعض من أصحاب الثروات يخشون أن تهمل ثرواتهم

(١) ملف اسرائيل لروجيه جارودى ص٨ (٢) نفسه ٩ (٣) Judism

لأنهم ظنوا أن هذا الوطن سيحملهم قسرا إلى مغادرة أماكنهم، ثم حدثت أحداث جديدة حملت على جدية أكثر.

كانت حركة النازى والتحديات التى واجهها اليهود فى أوربا كلها وخصوصا أثناء الحرب العالمية الثانية مما أعطى دفعا ذاتيا للحركة الصهيونية وحركت اليهود نحو فلسطين، ثم كان هناك بين اليهود وبريطانيا تضارب أدى إلى أن تطلب أمريكا تحديد الانتداب البريطانى والحماية على فلسطين.

أما المشادات بين العرب وإسرائيل فقد بدأت منذ إعلان قيامها ولم ينته النزاع بينها وبين مصر إلا سنة ١٩٧٧ أى بعد نحو ثلاثين عاما من قيامها.

خطوات التمركز فى فلسطين

كانت فلسطين كسوريا ولبنان ومصر وغيرها أجزاء من الدولة العثمانية وبعد الحرب العالمية الأولى تقاسمت انجلترا وفرنسا هذه الأقاليم. ووقعت فلسطين تحت الانتداب البريطانى سنة١٩٢٢، واعتبرت اللغات الرسمية لها هى العربية والعبرية والانجليزية، لغات متساوية، ولكن كان الشعب يتكلم اللغة العربية، والرسميات تجرى باللغة الانجليزية، واكتفى اليهود أن لغتهم احدى اللغات الرسمية للبلد. وكان أول مندوب سام لبريطانيا هناك هو السير هربرت صموئيل وهو يهودى أخذ على عاتقه أن يسهل هجرة الاسرائيليين إلى فلسطين.

وأخذ اليهود يهاجرون إليها، واعتبرت هجرتهم خطوة أولية لاستيطان عام. اشتروا أراضى واسعة. وآثروا شراء الأراضى البور غير المزروعة فبنوا فيها مساكن وأنشأوا مزارع، وأقام الأثرياء فى المدن التى نزلوها مصانع واجتذبوا التجار وأحيوا التجارة.

وظلت الهجرات اليهودية تتوافد والمزارع الاشتراكية التى سميت كابوتزات تتزايد، وكان من التخطيط للمستقبل أن ينبشوا فى جوانب فلسطين، ثم كانت مقاومة العرب وتزعمها الشيخ أمين الحسينى مفتى فلسطين فحرم بيع الأراضى لليهود مهما أغلوا الثمن حتى الأراضى البور، ولكن المندوب السامى اليهودى كان يسهل لهم الاقامة.

وكـانت المقـاومـة أقـرب إلى النجـاح لو وجـدت جـديـة كـافيـة، ففى سنة١٩٢٥ هاجر من فلسطين عـدد كبير من اليهود، وفى سنة ١٩٢٧ كان عدد الخارجين من فلسطين أكثـر من عدد الـوافدين، أى انهم بـدأوا يقلون. ولكن الفلسطينيين لم يحافظـوا على مبـادىء المفتى، وكـانت مضـايقـات النازية وغيرها فى أوروبا ممـا دعا اليهود إلى هجرة أوسع إلى فلسطين، ففى سنة ١٩٣٣ كان التضخم اليهودى فى فلسطين كبيرا، وفى سنة ١٩٣٥ كان عدد اليهود المهاجرين إليها ٦١,٥٤٠ فردا أو أكثر قليلا وكـان عدد اليهود الموظفين فى الحكـومة أكثـر من عـدد المسلمين، وكـان عدد النصـارى أقل، واستغل اليهـود خلافـات العرب، فـالمسلمون والنصـارى لم يكونـوا على وفاق، والمسلمون فيما بين بعضهم وبعض كانوا يختلفون كثيرا، ولكن إزاء هذه الكثـرة من مهاجرى اليهود، وإزاء تـوسعهم فى شراء الأراضى وإنشاء الكابوتزات ظهر بينهم نوع من الاتحاد لأجل محدود. وظهر مفتى فلسطين بنداءاتـه ومبادئه. وكان المنـدوب السـامى البريطـانى دائما فى صف اليهود حتى ان الشيخ أمين الحسينى المفتى اضطـر أن يهاجر إلى لبنان هـربا من الاعتقال سنة ١٩٣٧..

فى سنة ١٩٣٦ قامت بعثـة بريطانية لحل الأزمـة الفلسطينية، فدرست حالها وقـدمت سنة ١٩٣٧ تقـريرا ينص على أن تقسـم فلسطين إلى ثلاث دول، دولة يهودية فى الجزء الشمالى الغربى، وكـان يقطن فى هذا الجزء نحو ٣٠٠,٠٠٠ ثلثمائة ألف عـربى، بين مسلم ونصرانى، رأى التقـريـر أن يعيشوا تحت سلطان اليهود. ودولة عربيـة تشمل سائر البلاد ما عدا جزءا يبقى تحت الانتداب البريطانى، وهـذا الجزء يشمل الناصرة والقدس وبيت لحم.. ولكن العرب لم يقبلوا هذا التقسيم.

أرسلت انجلترا بعثـة أخرى، وانتهى بحثهـا إلى طلب عقد مـؤتمر لتتفق فيه الأطراف كلها، ولكن رأى ذوو الرأى فى هذه البعثة ألا يحضر المفتى هذا المؤتمر ولم يكن هنـاك، بل كان يتردد بين لبنـان ومصر، ولم ينعقد المؤتمر إلا فى فبرايـر سنـة ١٩٣٩ ودعى إليـه كـل من سـوريـة والعـراق ومصر والسعـوديـة، ولم يقبل العـرب أن يجلسـوا مع اليهـود على مائدة، وظلت فلسطين معلقة ينهش منها اليهود حتى كانت كلها لهم.

موقف مصر

قال بن جوريون فى كتابه «إسرائيل فى سنوات التحدى» ان إسرائيل لا تحسب حسابا لدولة عربية إلا لمصر، لأنها الدولة العربية الوحيدة التى لها جيش منتظم، وهذا القول يبين مدى ما ربحت اسرائيل من صلحها مع مصر، ولكن موقف مصر من إسرائيل من بدايته لم يكن موقفا جادا، ولم تستطع أن تقضى على إسرائيل وهى وليدة ضعيفة..

يوم أن أعلن قيام إسرائيل كان ملك مصر هو فاروق الأول، وكان رئيس وزرائها محمود فهمى النقراشى، وفاروق - كما هو معروف - تولى حكم مصر وهو شاب فقير جدا فى ثقافته وليس له إدراك بطرق السياسة، والنقراشى تعلم فى مدرسة المعلمين العليا واشتغل بالتعليم مدة، وكان معروفا عنه أنه ضيق العقل ضيق الأفق الفكرى، وكان صلبا عنيفا أدنى لى الاستبداد فى كل تصرفاته، وله أخطاء سياسية كثيرة معروفة، وكان علانه الحرب على إسرائيل يوم قيامها من أخطائه الكبيرة، فمصر كانت حديثة عهد بالتخلص من ربقة الانجليز، ولم يكن جيشها على استعداد خوض حرب، ثم لا مغزى لمحاربة قرار أصدرته هيئة الأمم، ولكن هكذا سريعا وفجأة صدر قرار بالحرب وأعلنت الأحكام العرفية فى مصر، كان رارا يتسم بالفجاجة والسرعة، ولم تسبقه دراسة ولا حسن تخطيط..

وإنصافا للنقراشى أؤكد أنه قيل ولعله قول صحيح، إن الملك هو الذى علن القرار، وأن النقراشى غضب له وهدد بالاستقالة ولكنه لم يستقل كراما للملك، وكثرت الأقوال فى هذا الشأن..

قيل ان الملك كان يريد التخلص من جماعة من الجيش فأراد أن يزج بهم فى هذه الحرب، وإذا صح هذا فهو تفكير خاطىء سيىء جدا، فإن زيمة أو موت الفئة التى كان يكرهها ليست هزيمة لها وإنما هى هزيمة مصر، وحاربت مصر على أى حال وتطوع عدد كبير من الاخوان المسلمين ن الأهلين، حتى صار الجيش المصرى على أبواب تل أبيب.

وهنا طلب بن جوريون عقد هدنة للتصالح وإعادة النظر فى الموقف ستجاب النقراشى، ووقفت الحرب، وخلال هذه الهدنة استقدمت

اسرائيل أسلحة كثيرة واستعدت من جديد لحرب نهائية.

وفى أثناء هذه الهدنـة أيضا ومن قبلها بـدت تيارات الخلاف فى صفوف العـــرب. اختلفـوا على تقسيم الغنيمـــة قبل أن تنتهى الحرب. لمن تكـــون فلسطين؟ تطلع إليهـا بشراهــة ملك الأردن ـــ الملـك عبـدالله فى ذلك الـوقت وتطلعت إليهـــا العـراق وســـوريـا ومصر، وقـــال بعض الســاســــة هى للفلسطينيين واشرأب المفتى ليكون أميرا عليهـا، فلما عادت الحرب تخاذلت بعض الـدول العـربيـة، وتقـدم الجيش الاسرائيلى، ثم بـدت فكـرة الصلح أو الهدنــة واجتمع المصريون والاسرائيليـون فى قبرص التى كـانت يومئـذ تحت سيطـرة الانجليـــز، وأنف المصريــون أن يجلســـوا مع الاسرائيليين فجلسوا أوأجلسوا فى منزل كان المصريـون فيه فى طابق أعلى والاسرائيليون فى طابق أسفل، وتمت الهدنة وكان قطاع غزة تحت يد المصريين.

ماالذى كان يمكن أن يحدث إصلاحا لهذا الموقف؟

شر الرأى الدّبرى، الذى يأتى بعد فوات الأوان كان يمكن بدلا من إعلان مصر الحرب أن تكتفى بفتح بـاب التطـوع لمن يرغبـون فى الحرب، وتمدهم الـدولة بـالأسلحة، فإذا انتصروا فـذلك مانبغى وإن انهزمـوا فلا عـار على مصر.

كان الملك والنقـراشى يكرهـــان الإخوان المسلمين. وحينئـذ كان الموقف مناسبـا أن يستحث الذين ينـادون «الموت فى سبيل الله أسمى أمـــانينا» ان يحققوا الأمانى التى يجأرون بها، والحق أن الـذين تطوعوا لهذه الحرب من الاخوان أثبتوا بسالة واخــلاصا وآذوا الاسرائيليين فى غير موقف. ولو صح هذا لكان موقف هؤلاء الثوار هو موقف الثوار فى فيتنام.

وقد زاد الطين بلــة ان الأسلحة التى كانت فى يد المصريين كـانت أسلحة فاسدة تدفع قذائفها إلى الوراء فتقتل الذين يستعملونها، وقيل إن الملك كان يتجر فيها، وكانت حالتها الفاسدة معلومة.

على أى حال حـوصر الجيش المصرى فى «الفالوجة» حتى حـدثت الهدنة ولم يكن الموقف خاليا من الخيانة.

ويبدو أنه منذ ذلك الوقت نبتت فكرة التخلص من الملك فاروق.

وبعد خروج فـاروق من مصر وبعد تولى عبدالنـاصر الحكم كان إعلان العداء لاسرائيـل والتغنى بوعيـدها والاستعـداد لحربها أو لمحوها وكـانت تهديـدات ناصر دائما: سأرمي اسرائيل فى البحـر. وكـانت نغمة حلـوة على مســامع المصريين، وربحت منهـا اسرائيل واستـوردت بها أسلحـة وكـان جمال عبدالناصر يحب أن يملأ حياته بمواقف البطولة.

وفى سنـة١٩٥٦ أعلن تأميم قناة السـويس، وفرح المصريـون وأعجب الناس بهذا القرار.

قال بن جوريون إن اسرائيل فرحت جدا بهذا القرار، وعلى اثره ذهب إلى فرنسـا وانجلترا وبهذا كان العـدوان الثلاثـى على مصر. وجاء فى «يـوميات سينـاء» التى كتبهـا مـوشى ديـان، ان بن جـوريون قـال لـه إن روسيـا ستتدخل وأن عليـه أن يسرع بالوصـول إلى قناة السـويس قبل عشرة أيام، ووصل وتدخلت روسيـا، وعقد اجتماع بين بن جوريـون وناصر والسفير الأمريكى، وفيـه أقر نـاصر بحق اسرائيل فى مرور سفنهـا فى خليج العقبة، وأقـر ناصر أيضـا أن يترك بين اسرائيل والجيش المصرى مسافـة فاصلـة بمقدار كيلوا متر واحد يمتد من إيلات إلى البحر الأبيض، وقال بن جوريون لاأترك ذرة رمل واحدة من أرض اسرائيل، ولم يكن مسمـوحا لمصر ولالأحد من سكان غزة أن يتجاوز نصف هذا الكيلو الفاصل، أى ان اسرائيل ربحت نصف كيلو لنفسهـا بامتداد هـذه المسافة، ولم يعـرف ذلك المصريون، بل ظلوا يحتفون بانتصاراتهم فى هذه الذكرى!! أى انتصارات؟

وفى سنة١٩٦٧م طلب الرئيس ناصر سحـب القوات الدولية من الحدود بين البلدين، وبذا أعلن الحرب على اسرائيل والتـزمت اسرائيل الصمت وجاء سكـرتير الأمم المتحـدة فقابل نـاصر ليرجع عن قـراره فلم يقبل، ثم كـانت الخدعة الكبرى التى عملهـا ديان وبها حطم مطـارات مصر فى نحو عشرين دقيقـة، وسميت هـذه الحرب حرب الأيـام الستـة وفى الواقع كـانت حـرب العشرين دقيقة. هـذه الهزيمة الكبرى هى التى ثبتت اسرائيـل، بها استولت على سيناء ومرتفعات الجولان، ولايزال العرب يعانون آثارها(١)..

(١) انظر كتاب Six days War ونستون تشرشل (الحفيد)

صــــدى الهزيمــة

كان لهذه الهزيمــة صدى واسع فى العالم كلــه إذ لم يكن أحد يتــوقعها، كانت الدعاية قد مــلأت أذهاننا بأن اسرائيل لاقبل لها بمصر ولاطاقة لديها لحربها. كنت فى ذلك الوقت أعمل فى لندن، ولما جــاء إعلان هذه الحرب كنت أقول لمن حــولى: إن اسم جمال عبدالناصر سيحل محل اسم صــلاح الدين الأيوبى، وتســاءل الناس أهى حرب محليــة أم حرب عالمية، وقال ناصر: إذا دخلت أمــريكــا مع اسرائيل فستدخــل روسيا مع العــرب وقــالت الصحف الاسرائيلية سندخل الحرب وحــدنا، وقال السير جلوب بــاشا: لن تقع حرب أصلاً، ولكن عبــدالناصر سينال منها شعبيــة واسعة، فعندما يصل يــوثان Uthan ــــ الأمين العام لــلأمم المتحــدة إلى مصر سيقنع ناصر بعــدم الحرب، وتظل قوى الأمم المتحدة على الحدود ويقول ناصر: لولا هذا لرمينا اسرائيل فى البحر فيكتسب شعبية، وأيَّد جلوب كلامــه بأنه يعرف قوى البلدين لأنه كان رئيسا للجيش الأردنى، ويعرف جيــدا ـ كما يعرف كل من له أدنى علم بحــال البلدين ــــ انــه ليس هناك تكــافــؤ بين جيش مصر وجيش اسرائيل. ويبدو أن يوثان نفسه كان يحب هزيمة العرب، فحين رفض ناصر وساطته سحب الجيش الذى على الحدود ولم يرجع لهيئة الأمم.

وظللنا خمســة أيام نترقب وثبة صــلاح الدين، وإذا الأنبــاء المفجعة بأن مطارات مصر الحربيــة وطائراتها حطمت نهائيا. وكــانت مصر تخفى أنباء الهزيمــة وكنا نسمع إذاعتهــا، ونرى على شــاشة التليفــزيون الانجليــزى رقص الشعب المصرى وجــاء فى الصحف أن قنــاة الســـويس أغلقت وأن البترول انقطع.

وأصــدر ونستون تشرشل حفيــد تشرشل الزعيم وأبــوه كتاب «حرب الأيام الستــة» وأعيد طبع «يوميات سينــاء» لموشى ديان وطبع (اسرائيل فى سنوات التحدى)الذى عمله بن جــوريون، وتحدث ديان بكثير من الفخار والزهــو عن انتصاره، ونقد خطــة الحرب التى رسمت فى سيناء وكيف انها تخلو من تــدبير خطة للإنســحــاب إذا اقتضى الأمر ذلك وسألــه سائل: أنت نقدت هــذه الخطة منــذ حرب١٩٥٦، فكيف لم يعــرف المصريون خطأهم؟

فأجاب: إنهم لايقرأون شيئا مما نكتب. وظلت الصحف بعد ذلك تتحدث عن هذه الحرب ولكن لات حين مناص، واستولت اسرائيل على الضفة الغربية ومرتفعات جولان فى سيناء. واستردت مصر سيناء بصلح غير متكافىء الجانبين ولاتزال اسرائيل تضع يدها على الأجزاء الأخرى.

والناس من يلق خيرا قائلون له
ما يشتهى، ولام المخطىء الهبل

رقم الإيداع ٣٢٦٦ / ٩٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N. 977 - 08 - 0593 - 9

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

هذا الكتاب

الشيخ والدكتور عبدالجليل شلبى عالم من طراز فريد.. فهو ليس رجل دين متفقها فى الدين الاسلامى فقط.. بل هو متفقها أيضا فى اليهودية والمسيحية.! وهو حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة لندن فى الأديان المقارنة.. وقد عمل فترة طويلة مديرا للمركز الاسلامى فى لندن وأستاذا فى جامعة الأزهر وترك لنا العديد من المؤلفات القيمة فى الدين والتاريخ والادب..

وكتاب «اليهود واليهودية» آخر ما كتبه الشيخ عبدالجليل شلبى.. وهو كتاب خطير يكشف لأول مرة الاسرار التى حاول اليهود اخفائها دائما عن أصلهم وتاريخهم وديانتهم الحقيقية.. كل ذلك من خلال مصادر علمية لا يرقى اليها الشك..

وهذا الكتاب أول كتاب بالعربية يحكى
اليهود الحقيقية ومعتقداتهم بلا أى
وبموضوعية كاملة.. فالشيخ عبدالجليل
يعتبر من أكبر الخبراء والعلماء فى هذا الموض

نبيل أبا

الثمن ٥ جنيهات